الدكتور سليمان حريتاني

المتهتك الفاضل
أبو نواس

شاعر الحداثة والخمرة والتمرد والاغتراب







المهتك الفاضل

أبو نُواس

شاعر الحداثة والحيرة والتمرد والاغتراب

المتهتك الفاضل

أبو نواس

شاعر الحداثة والخمرة والتمرد والاغتراب

اسم الكتاب: المتهتك الفاضل أبو نواس شاعر الحداثة والخمرة والتمرد والاغتراب

المؤلف: الدكتور سليمان حريتاني

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

الطبعة الأولى ١٩٩٦

التنضيد والطباعة والإخراج الفني: تنوير للخدمات الطباعية – حمص ☎ ٢٢١٣٥٥



الإهداء

إلى أحفادي فؤاد وفارس ودانا...

لعلّ جيلهم يستطيع أن يدرك

ويتجاوز مهزلة ما جُرّ من تزوير

بحقّ تاريخ شعوبنا وأمتنا...



1 مدخل إلى شخصية الحسن وفنّه



قال ابن الأعرابي[1]:

«.. لولا أن أبا نُواس وضع نفسه بهذه الأدناس والأرفاث لاستشهدت بشعره ولاحتججت به..»

ثم قال: «ختمتُ الشعر بشعر أبي نُواس فلم أدوّن بعده لشاعر»[2]

ومُليحّةٍ باللّوم تحسِبُ أنني	بالجهْلِ أوثِرُ صُحبةَ الشُّطّار
بكرتْ عليَّ تلومني فأجبتها	إني لأعرفُ مذهب الأبرار
فدعي الملامَ فقد أطعتُ غوايتي	وصرفتُ معرفتي إلى الإنكارِ
ورأيتُ إتياني اللذاذة والهوى	وتعجّلاً من طيب هذي الدار
أحرى وأحزمَ من تنظُّرِ آجلٍ	علمي به رجمٌ من الأخبار
ما جاءنا أحدٌ يُخبِّرُ أنه	في جنةٍ من مات أوْ في النار

«أبو نُواس»[3]

● الحياة هي الحقيقة الثابتة:

أستهلّ حديثي - والحديث تعارف وتجاذب معارف - بهذه المقطوعة لشيخ العابثين وحكيم الماجنين، المتماجن العابث المتمرد الحسن بن هانئ الحكمي الذي مثل عصره أفضل تمثيل، وصوَّره بكل تناقضاته ونقائصه ومزاياه، ووسمه بميسم نكهته النواسية الخاصة المتفردة. لأبي عليّ الشاعر الكبير الذي كان من أرحب شعراء زمانه سيرورة وأعمقهم حساً، وأبرعهم فناً، وأخصبهم خيالاً، وأكثرهم شعبيةً، وأسماهم إنسانية رميلاً نحو الأجمل والأغنى حضارة وحريةً، وأوفرهم حظاً من الظُرف والفكاهة

1- ابن الأعرابي: هو محمد بن زياد اللغوي، ولد في الكوفة عام ٧٦٧ ميلادية وتوفي بسامراء عام ٨٤٤ ميلادية. أخذ عن المفضل الضبي زوج أمه. واشتغل في التدريس ببغداد. عُرف باللغة والنحو ورواية الشعر. وقيل إن أباه من أصل هندي وإنه تثقف بالثقافة العربية ونشر الأفكار الهندية.

2- مختار الأغاني: أبو الفضل جمال الدين بن منظور المصري الأفريقي، المجلد الرابع، ص٢

3- ضحى الإسلام: الدكتور أحمد أمين، المجلد الأول، ص١٤٨ والفكاهة والإيناس، ص١١٥

والنظرة العابثة اللاهية الضاحكة، الهادفة إلى الحياة بغناها المستفيض على الوجود. لأبي نُواس الفاضل المتهتك الذي امتدت شهرته إلى آداب الأمم الغربية والشرقية وعالج في شعره بعبقرية فريدة، وتجليات مريدة، قضايا الحياة والمجتمع. والتفت إلى قصة المبتدأ والمنتهى في الوجود، وعمّا سيأتي بعد هذه الحياة.

لقد اخترت هذه المقطوعة لأنها كما نرى تعكس جانباً لاحباً عن موقف هذا الشاعر من الوجود، من الحياة، من المجتمع، من القيم الدينية السائدة والموروث الفكري والمعتقدي والأخلاقي لعصره.

لأنها تعبر بشكل خاص عن موقفه من الفكر الجبري الذي ينفي الفعل حقيقة عن العبد ويضيفه إلى الرب على اعتبار أن العبد مجبور في أفعاله ولا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار إلا بما يريده الله له ويختار: **«لا فعل لأحد في الحقيقة إلّا لله وحده. وإنه الفاعل وإنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز»**[٤]

الفكر الذي استُغِلَّ من قبل الطبقات والفئات الاجتماعية المسيطرة وأنظمتها السياسية بهدف إسباغ الشرعية على تصرفاتها الاستبدادية بالناس، ولفرض ديمومة حكمها وسيطرتها واستغلالها، ونفي المسؤولية الشخصية عما يفعلون من خلال الاختفاء وراء طاغوت فكرة التفويض الإلهي للحاكم: **«لن أخلع قميصاً كسانيه الله»**[٥]

الفكر الذي نظر إلى العالم المادي والوجود الموضوعي على أنه مجرد وهم وُجِدَ بوساطة تدخل قوى غيبية كلِّية القدرة، مطلقة الإرادة والفعل من خارج هذا الوجود، وبالتالي يعتبر الحياة المعيشة مجرد هنيهات حُلُمِيَّة خاطفة، وممر عبور إلى الجنة ونقيضها، إلى الحياة الآخرة التي هي الحقيقة الأكيدة والمطلقة، إلى دار القرار[٦] وديمومة مستقر الحياة ومثواها الأبدي.

٤- هذا القول لجهم بن صفوان زعيم المدرسة الجبرية. نقلاً عن مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، الجزء الأول، ص٢٧٩

٥- هذا القول للخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، أطلقه في وجه المسلمين الثوار عندما طالبوه بالتنحي عن الخلافة وخلع نفسه. عن المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبد الجبار الهمداني، طبعة القاهرة، الجزء الثالث، ص٤

٦- سورة غافر: الآية رقم ٣٩ وتنص: «وأن الآخرة هي دار القرار».

لقد قلب الحسن المعادلة في هذه المقطوعة، وعكس مفهومها عن وعي وتصميم[٧] ليقول لنا: إن القول بالجبر يمثل النقيض السلبي لحرية إرادة الإنسان. وإن سلب حرية هذه الإرادة فيما يفعل يعني تعطيل دوره في تحسين وتغيير ظروف حياته إلى الأفضل والأرقى والأهنأ، وعبثية هذا الدور إذا أراد. بل عبثية تكليفه بالفروض الدينية ومحاسبته عليها مادامت طاعته ومادام عصيانه لا يصدران عن إرادته، بل عن جبرية تحكمه وتحكم أفعاله.

لقد عكس المعادلة ليقول لنا: إن النهاية الحتمية لكل حيّ هي الموت وظلمة القبر، وإن اللحظة الحسية الحاضرة التي يعيشها الإنسان ويستمتع بها هي وحدها الحقيقة المؤكدة ولا جدال حول حتمية وجودها. بل هي اليقيني المليء الذي يمتلك الإنسان فيه نفسه ويسيطر لأنه يريد لأنه يختار. وما أراده الحسن وما اختاره هو في نظره نعمة كبرى لا يقبل - مهما ليم عليه وحُذِّر من عقابه - أن يقايض عليه بالحياة الآخرة الموعودة. فربما لا توجد جنة ولا يوجد روّاد حقيقيون إليها...؟! وربما لا توجد صاخةٌ[٨] غاشيةٌ[٩] قارعةٌ[١٠]، ولا وافدون إليها تجرجرهم ذنوبهم وآثامهم إلى الهاوية[١١] ذات النار الموصدة طالما تُنسب إلى الإنسان أفعاله على المجاز؟!..

● ممارسات الحسن المتباينة:

قد تستهوي أبيات الحسن من تستهويه منا؟!. وقد لا تستهوي بعضنا الآخر ويصمه بالكفر. لكنها قد تغري بنا جميعاً، وربما قد تغوينا وتدفع بنا إلى مدارج أعتاب

٧- ذكر المرزباني حديثاً للجماز عن أبيات الحسن تلك قال: «لما بلغ الحسن البيت الأخير

ما جاءنا أحدٌ يُخبِرُ أنَّهُ ... في جنةٍ من مات أو في النار

قال له الجماز: «يا هذا إن لك أعداء وهم يتطرون مثل هذه السقطات فاتق الله في نفسك ودع الإفراط في المجون». فقال أبو نواس: «لا والله لا أكتمها خوفاً وإن قُضي شيء كان» عن الموشح للمرزباني ص١٢٣

٨- سورة عبس: الآية رقم: ٣٣ وتنص ﴿فإذا جاءت الصَّاخة يوم يفر المرء من أخيه﴾.

٩- سورة الغاشية: الآية رقم واحد وتنص: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾.

١٠- سورة القارعة: الآيتان رقم واحد ورقم اثنين وتنصان ﴿القارعة. ما القارعة﴾.

١١- سورة القارعة: الآيتان رقم ثمانية وتسعة. وتنصان: ﴿وأما من خفّت موازينه. فأمه هاوية﴾.

محراب فنه الخالد لنستمتع بتلاوة أبيات له وأشعار. ونُصيخ إلى تراتيل قصائد له ومقطوعات تُنير لنا أكثر فأكثر جوانب متعددة من شخصيته الفنية المتألقة، من شخصيته المتباينة العابثة والمتمردة، من شخصيته المرحة الماجنة التي تخفي تحت ستار مجونها حكمة عميقة، وحداثة متفتحة ساطعة، وذكاءً متوهجاً، ولغزاً يحارُ الفكر في تفسيره والحقائق المتوفرة والمعطيات المتعارضة والمتناقضة قاصرة عن إيضاح كنهه.

بل ربما تكشف لنا عن شخصيته التي أخفت تحت إهاب تهتكها لغزاً وسم بميسم الإباحية الاستعراضية، والفن الأصيل، بميسم العبقرية المتفتحة والانحراف مذهبه وفنه وحياته الأسطورة، وممارساته التي جهد على أن يصورها ممارسات تقوم على ارتكاب الإثم ابتهاراً[١٢] لا ابتآراً[١٣].

قال في أحمد بن أبي صالح[١٤]:

يا أحمدُ المُرتجى في كُلِّ نائبةٍ   قُمْ سيدي نعص جبّار السمواتِ

ممارسات تتلظى شوقاً إلى الانغماس في شبق الملذّات الداعر، وتتشهى دنفاً إلى الاستغراق المسعور في إدمان الراح مهما كان الأمر وعراً ويثير سخط الآخرين ونقدهم.

قال[١٥]:

كُنْ لِمَنْ لامَ عصيّاً   واركبِ الأمرَ القويّا

واشربِ الخمرَ وجاهرْ   بالزّنا ما دُمتَ حيّاً

ممارسات تدّعي إيثار الذكر على الأنثى[١٦]، وتستهوي هذا الميل المنحرف وما يفرزه من غوايات، وتبرير ما يشاع عن هذا الإيثار.

١٢- الابتهار: من ابتهر ادعى كذباً. فإن قال قلت. لم يفعل وبالغ في الشيء ولم يدع جهداً.

١٣- الابتآر: من ابتأر الشيء خبأه. الخير عمله مستوراً.

١٤- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص١٧٤

١٥-الفكاهة والإئتناس في مجون أبي نواس: ص١١١

١٦-- المقصود قول الحسن:

مَن كانَ تعجبه الأنثى ويُعجبها   من الرجال فإني شفّني الذكرُ

أخبار أبي نواس: لابن منظور المصري، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٨٧

قال[١٧]:

أيسر ما فيه من فضائله　　　أمنك من طمثه ومن حبله

ممارسات تقوم على الجهر بما يدَّعيه من ملذات حسية مقترفة مهما كانت هذه الملذّات غريبة، مهما كانت شاذة ومنحرفة ومدعاة إلى الشبهة؟!.

قال[١٨]:

لستُ بالتارك لذّات الندامى للصلاح

قل لمن يبغي صلاحي　　　بعتُ رشدي بطلاحي

أطيبُ اللّذّات ما كان جهاراً بافتضاحِ

وقال أيضاً[١٩]:

ومقدودٍ كقدِّ السيفِ رخصٍ　　　كأنَّ بخدِّه لَمْعُ السرابِ

صففتُ على يديه ثم بتنا　　　جميعاً عاريين من الثياب

ثُكلتُ الظرفَ والآداب إن لم　　　أقم لي حُجَّةً يوم الحسابِ[٢٠]

●لغز الذات النواسية:

إن المتتبع لهذه الممارسات يتكون لديه انطباع واضح بأن المتعة تكبر في جسِّ الحسن وتحقق غايتها لا بمقدار المتعة نفسها وفرح الاستمتاع بملذّاتها الحسية وتنوع مُشهياتها الجنسية كتلك الجارية التي أحبت أن تستوفي لذتها في العشق من جميع جوانبها.

قال في وصفها[٢١]:

١٧- الحان الحان: عبد الرحمن صدقي، ص٢٨٧

١٨- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص١٨٥

١٩- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٧٠٨

٢٠- يقلل الحسن في هذا البيت من أهمية ما يقال عن يوم الحساب في الآخرة ويقول: لا بدّ أنه واجد له في حينه حُجّة يدافع بها عن نفسه ويبرر بها سلوكه.

٢١- الفكاهة والإيناس في مجون أبي نواس: ص٦٠

وشاطرة تتيهُ بحُسن وجهٍ ... كضوءِ البرقِ في جُنحِ الظلامِ
رأتْ زِيَّ الغلامِ أتمَّ حسناً ... وأوفى للفُسوقِ وللأثامِ
فما زالت تُصرِّفُ فيه حتَّى ... حكَتْهُ في الفعالِ وفي الكلامِ

بل بمقدار ما تفضح هذه المتعة حماة الثبات في المجتمع الذين يعترفون بحرية المتع الشخصية في السلوك ويمارسونها مهما كانت شاذة ومنحرفة ومخالفة للنواهي والمحرمات والأعراف مادامت تمارس سراً، ولا يريدون أن يعترفوا بها ولا بحرية التعبير الفني عنها وعن حقيقة الواقع الذي يعيشون فيه لا الواقع الذي قيل إن الأسلاف قد عاشوه وبشكل منزه عن الشبهات. لا يريدون أن يعترفوا بحرية التعبير عن التجربة الحياتية المباشرة واليومية للناس، عن ترف الحياة وتحضرها في القرن الثاني للهجرة.

لذلك نراه يربط بين دعوته إلى حرية التعبير الفني وحرية المتع الشخصية في سلوك الناس وبشكل خاص ذروة المجتمع. كما يدعو إلى تحطيم تلك القيود التي تفصل بين الموقفين من خلال إصراره على تسمية الأشياء بمسمياتها.

قال[٢٢]:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سِرّاً إذا أمكن الجهرُ

وبمقدار ما يأخذ هذا التحطيم الشكل الاستعراضي المكشوف والمخالف للنواهي والمحرمات والأعراف السائدة، بمقدار ما يصدم وقار مجتمع الخلافة العباسية ويفضح حُماة الثبات في المجتمع، ويميط اللثام عن زيف الفضائل المعلنة والتقى الكاذب، ويعري السمات العامة المخادعة التي تتوارى خلف ألف ستار وحجاب.

قال[٢٣]:

غادِ المُدامَ وإن كانت مُحرَّمةً ... فللكبائرِ عند اللّه غفرانُ[٢٤]
يا ليلةً طلعت بالسَّعدِ أنجُمُها ... فبات يفتك بالسكران سكرانُ
بتنا ندين لإبليسٍ بطاعته ... حتى نعى الليل بالناقوسِ رهبانُ
فقام يسحبُ أذيالاً منعمةً ... قد مسَّها من يدي ظِلمٌ وعدوانُ

٢٢- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ص٢٨

٢٣ المصدر السابق: ص١٢٦

٢٤- غادِ المدام: من الغدو: بمعنى اشربها من أول النهار.

بل بمقدار ما يؤكد هذا الربط أن مُتع الحسن اللامستلبة، متعه الحسية المعيشة، ما هي إلّا تعبيرٌ عن حاجات حياتية روحية ونفسية مستلبة، تتجاوب مع وعي شاعر مُحدث[٢٥] آمن بالحاضر وجعل منه نبراساً في مواجهة الماضي عندما تبنى موقفاً جمالياً خصباً له من الجدة، من الحداثة ما يؤكد تجاوزه الماضي وتجاوبه ومواقف فكرية واجتماعية تُعطي الأولوية إلى ما هو قائم في الوجود ولو خالف المعهود. ويتعارض هذا الموقف ليس مع الماضي فقط بل ومع الحاضر أيضاً في محور زماني واحد، يهدف تلبية مطالب جديدة نشأت لدى المبدعين والمتلقين بفعل تغير الزمن وتقلب الأحوال وبالتالي تغير الأذواق، أدت إلى تغيير محض في شكل القصيدة وأساليبها وشملت مجالات دينية وفكرية واجتماعية وجمالية يتعارض فيها عالم الماضي بمفاهيمه وقيمه مع الحاضر بقيمه وتطلعاته، بل والحاضر نفسه بين الجانب الثابت فيه وجانبه المتقدم.

مواقف شاعر نبذ ما هو سائد ومفروض بعد أن طرح رؤيته الخاصة لعالمه وسخّر كل طاقاته وخبراته الجديدة وإمكانياته وأدواته التعبيرية التي تتسع لكل مضمون مستحدث. بما يُعبر عن النقلة الحضارية والفكرية التي عاشها القرن الثاني للهجرة. على الرغم من أن هذا الأمر قد أدخله في تعارض مع من يعيش في عصره ممن لا يشاركونه نفس الاختيار والتبني.

قال[٢٦]:

دعني من الناس ومن لومهم	واحسُ ابنة الكرم مع الحاسي
ريحانةٌ من كفِّ ريحانةٍ	تزهو على الخيريِّ والآسِ[٢٧]
يكاد يعطيني جنى ريقه	من فيه لولا رقبةُ الناسِ
أشرب من ريقته مرةً	ومرةً من فضلة الكاسِ
حتى انثنى مثل صريع الهوى	والنومُ قد عانق جُلاَّسي

٢٥- المُحدث: من الحداثة، وهي صفة أطلقت على ما طرأ على الشعر العربي في القرنين الثاني والثالث الهجريين من تغيير مايز تبلور فيما أنجزه عدد من الشعراء ابتداء من بشار الذي اعتبر رأس مذهب المحدثين وأستاذهم مروراً بأبي نواس وانتهاءً بأبي تمام. وتجلى هذا التغير في مجموعة من الخصائص ميزت هؤلاء الشعراء عن أسلافهم ومعاصريهم. وباعدت ما بين شعرهم والقوالب القديمة التي كانت مثالاً يحتذى.

٢٦- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص١٠٦

فنلتُ ما ضنَّ به صاحباً   والقلب مني جامحٌ قاسِ

لا خير في اللّذات ما لم يكن   صاحبها منكشف الراسِ

فتلألأ عالمه الشعري بألوان من الصفاء الخاص، وتضوّع بأريج الألق النواسي الذي يمور بالطرافة والرقة والمعاناة، وينوء بالشعور المرهف الجريح والإيماءة الخفية الهادفة مما يعانيه الإنسان من غربة وهو يجاهد في سبيل الحصول على لقمة عيش نظيفة، مطمئن البال هنيء النفس آمناً غير مستلب. وهذا لعمري مطلب عزيز يحمل دائماً معنى المعاصرة ويسمو على كل غاية وهدف.

قال[٢٨]:

أحسنُ من موقفٍ على طللِ   ومن عُقار جرت على ثَمِلِ

نعتُ رغيف كأنّهُ قمرٌ   لم يلكْ خبّازه على زَجَلِ

مدور الخلق لينٌ دَمِثٌ   تأكلُهُ خالياً على مهَلِ

وقد تكون هذه الممارسات تجسيداً لردات فعل، وربما خيبة أمل ويأس لعدم تمكنه من تحقيق ما يصبو إليه من أفكار ومواقف وقناعات لم يجرؤ أن يبوح بها ساطعة، وكان أعجز من أن ينتصر لها جهاراً. وبمقدار ما يزداد استلاب الإنسان ويشتد انسحاقه تحت وطأة نير العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بمقدار ما يزداد إيمانه بالقضاء والقدر، وشعوره بالانقياد، وعدم تحكمه بمقدرات نفسه وعجزه أمام السلطات البشرية المتنفذة. وبالتالي حرصه الواعي على حفظ اللسان وكتمان السر والاحتراس في اللفظ ووزن الكلام، وإن كانت نتيجة الموفقين في آخر المطاف الصمت.

قال[٢٩]:

خلِّ جنبيك لرام   وامضِ عنه بسلامِ

مُتْ بداء الصمتِ خيرٌ   لك من داء الكلامِ

رُبّما استفتحت بالمزحِ مفاليق الحمامِ

رُبَّ لفظٍ ساق آجال نيامٍ وقيامِ

٢٧- الخيري والآس: نوعان من الأشجار تطلعان أزهاراً طيبة الرائحة.

٢٨- الفكاهة والإيناس في مجون أبي نواس: ص٩٣

٢٩- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٦٢٠

أيها العالم من ألجم فاه بلجام
فالبس الناس على الصحة فيهم والسقام
وعليك القصد إن القصد أبقى للحمام[30]
شبت يا هذا وما تترك أخلاق الغلام
والمنايا آكلات شاربات للأنام

أجل داء الصمت الذي يعني في هذا السياق الموت المعنوي في سجن الحياة الكبير. لأنه يمثل باعتباره سيد الموقف وسيلة مفروضة يُعبر فيها الشاعر الحكيم المبدع عن صراع غير متكافئ مع مؤسسات مجتمعه وأنظمته الفكرية التي يتعارض معها ويخالفها.

قال[31]:

أحمدُ اللّه الذي أسكنني دار الهوانِ
وجفاني كلُّ من أمّلتهُ حتى لساني
مَنْ أجاد الظنَّ بالناس دهاهُ ما دهاني
إن في التعريضِ للعاقل تفسير البيانِ

ولكن عندما يضطر الحسن أن يخرج عن صمته، فإنه يلجأ إلى رداء الظُرف والسخرية يسربل به ردأت فعله. وكم من سخرية لاذعة تتولد عن شعوره بالمرارة والألم وتعبر عن ما لا يستطيع قوله صراحة، مثل قوله الذي وجه به إلى الخليفة الأمين.

قال[32]:

ألا قُلْ لأمين اللّه وابنِ القادة الساسَهْ
إذا ما ناكثٌ سرّك أن تُفقِدهُ راسَهْ
فلا تقتله بالسيف وزوِّجهُ بعبّاسه[33]

٣٠- القصد: الاعتدال في كل شيء.

٣١- المصدر السابق، ص٦٠٤

٣٢- المصدر السابق، ص٥٢٠

٣٣- العباسة: هي أخت الرشيد وابنة الخليفة المهدي وعمة الأمين. كانت قد تزوجت من محمد بن سليمان وإبراهيم بن صالح فماتا. ثم تزوجت جعفر فقتل. وبعد قتله لم يتزوجها أحد حتى ماتت. المقصود: إذا أراد الخليفة موت أحد فما عليه إلا أن ينكحه عمته لأنها فأل سوء.

أو كقوله[٣٤]:

قُـل لـلـخـلـيـفـة إنـنـي ... حـسَـنٌ أراك بـكُـلِّ نـاسِ
مـن ذا يـكـونُ أبـا نُـواسـك إذْ حَـبَـسْـتَ أبـا نُـواسِ؟
إن أنـت لم تـرفـع لـه ... رأساً فُديت فنصف راسِ[٣٥]

لقد أدرك الحسن بشكل واضح وصريح أن المزاح قد يفي أحياناً بالمطلوب عندما يعزُّ القول الصريح، ويمكن أن يشي بالجدِّ دون خطر.

قال[٣٦]:

صـار جـدّاً مـا مـزحـتُ بـه ... رُبَّ جـدٍّ جَـرّه الـلـعـبُ

وأدرك أن الظُّرف والفكاهة والسخرية والمزاح خير بديلٍ لمادحِ القوم اللئام.

قال[٣٧]:

يـا مـادح الـقـوم الـلـئـامِ ... وطـالـبـاً رِفْـدَ الـشِـحـاحِ
أشـغِـلْ قـريـضـكَ بـالـنـسـيـب وبـالـفـكـاهـة والمزاحِ

لذلك لم ولن نتعجب إذ نراه يواري حِسّه بالإحباط وخيبة الأمل خلف ستائر التهكم والظُّرف والنادرة الجارحة. أو أن يعكسه من خلال الهروب واللامبالاة أو عدم الثقة بالناس.

قال[٣٨]:

وقد صار هذا الناس إلاّ أقلَّهُم ... ذئاباً على أجسادِهِنَّ ثيابُ

٣٤- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٤٢٤

٣٥- قيل إن العتابي لما سمع بهذه الأبيات قال لأبي نُواس: «يا ابن كذا وكذا ما أحسن نصف رأس خليفة مرفع؟... فقال جعلني فداك يا أبا عمرو لا تتبهرْ فتهلكني» عن مختار الأغاني لابن منظور المصري، المجلد الرابع، ص١٨٣

٣٦- المصدر السابق: ص٢٣٩

٣٧- المصدر السابق، ص٦٠٠

٣٨- مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي: أحمد قبش، ص٥٠١ . علماً أن هذا البيت لم يرد في الديوان. بل ورد في ديوان أبي فراس الحمداني الصفحة: ٢٩ طبعة المستشارية الثقافية الإيرانية.

غير أن شعوره بالإحباط واللامبالاة، وفي عدم ثقته بالناس لم يمنعه من أن يُعلن رفضه لكل إمام جور فاسق.

قال[٣٩]:

والله لولا أنني مُشغوفٌ ... أن أبتلى بإمام جورٍ فاسقِ

لم يمنعوا ردات فعله أن تتسربل في بعض الأحيان دروع الرفض والكبرياء.

قال[٤٠]:

لقد زادني تيهاً على الناس أنني ... أراني أغناهم وإن كنتُ ذا فقرِ

فوالله لا يبدي لساني لحاجةٍ ... إلى أحدٍ حتى أُغيب في القبر

فلا تطمعنْ في ذاك مني سوقةٌ ... ولا ملك الدنيا المحجّبُ في القصرِ

أو أن تمتشق بمناها سهام النقد والتجريح والتشهير من خلال المقارنة والتفضيل على أنين الدنان[٤١]، ورنين الكؤوس ونقر العيدان. دفاعاً عن مجد الخلافة الذي ضاع، وهتكاً لوباء الفساد الذي تفشى وساد على يد سيد البلاد وخليفة رب العباد محمد الأمين. على الرغم من أن الأمين قربه إليه، وأدناه منه، وجعله نديمه.

قال[٤٢]:

اسقنيها يا ذُفافَةْ ... مُزّةَ الطعم سُلافَةْ

هاتها جهراً ودعني ... من أحاديثَ خُرافَةْ

ذلَّ عندي من قلاها ... لرجاءٍ أو مخافَةْ

مثلَ ما ذَلَّتْ وضاعت ... بعد هارون الخلافَةْ

أو أن تتقمص ردات فعله في مواقف أخرى لغةً أقرب ما تكون إلى لغة الرمز، إن لم تكن الرمز ذاته، يستخدمها أحياناً ليجسّد تصدُّعه ومعاناته واغترابه.

٣٩- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٢٢٠

٤٠- المصدر السابق، ص٥٩٧

٤١- الدنان: مفردها دَنٌّ: وهو إناء ضخم يدهن من الداخل بالزفت لسدِّ جميع مسامه حتى يشتد تخمر الخمرة فيه.

٤٢- أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله: لابن منظور المصري، تحقيق عمر أبو النصر، ص١٩٧

قال(٤٣):

فلما شربناها ودبَّ دبيبُها إلى موطن الأسرار قلتُ لها قفي
مخافة أن يسطو عليَّ شعاعها فيطلعُ ندماني على سري الخفي

عند هذا الحد يرتقي الحسن صهوة التمويه والمداراة كضرورة أمنية لا بُدَّ منها. ووسيلة للوصول إلى عالم الحقيقة، ليعبر عن غناه الخصب وجديده المتنوع. وهل يستطيع إلا أن يموّه وأن يداري؟!، ليخفي تمرّده، ويردم الهوة التي تفصل بين إدراكه ومسلمات معاصريه، بعد أن وعى وطأة الصراع مع هذه المسلمات. بعد أن أدرك أنه يعيش في زمن سيادة القرود، في زمن صعب قطع الأرزاق فيه والأعناق واغراق وجه الأرض بالدماء أسهل من شرب بلعة ماء. في زمن من أراد أن يأمن ويسلم ما عليه إلّا أن يطيع وأن يخضع. ما عليه إلّا أن يتقي(٤٤).

والتقية هنا نوع من النفاق السياسي والاجتماعي يُظهر فيه الإنسان ما فُرض عليه، ويُبطن ما آمن به كضرورة حياتية وحُرّم عليه.

قال(٤٥):

هـذا زمـان الـقـرود فـاخـضـع وكُـنْ لـهـم سامـعـاً ومـطـيـعـا

هكذا تبدو الذات النواسية. بل قُلْ هكذا يبدو سِرُّ الحسن. لغزاً غامض الملامح، زئبقي القسمات متى شاء وحين يريد. وربما زاد في عتمة سرّه ظلامية النفق الذي أدخلنا فيه كثرة المتقولين والمتحلين والمتحاملين عليه. فكلما شُبّه لنا أننا أدركنا سِرَّ هذا اللغز، أو تراءى لنا أننا قاب قوسين أو أدنى من سبر كنهه، وجدنا أنفسنا من جديد بعيدين تائهين في نجود ووهاد شخصية الحسن المحيرة، تائهين بين ركام متاهات ما دُبّج وحُبّر عن حياته، وما قيل أو نشر عن فنه وممارساته.

٤٣- أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد: الدكتورة أحلام الزعيم، ص٦٤ نقلاً عن مخطوطة من ديوان الشاعر عثرت عليه لدى بعض فئات الشيعة الباطنية.

٤٤- يتقي: من التقية. والتقية تشبه بالمقاييس العصرية أسلوب العمل السري الذي تسلكه الحركات والتنظيمات السياسية المعارضة، حين يشتد الإرهاب وتسدُّ أجهزة الحكم سبل العمل السياسي العلني. وفي مثل هذه الحالات ليس العيب فيمن يتقي الاضطهاد وينافق، بل فيمن يُرغم الآخرين على التقية.

٤٥- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٥١٩

وجدنا أنفسنا أكثر عجزاً عن إدراك سرّ هذا اللغز الذي بقي على الدوام زئبقي القوام هُلاميّ التخوم، يُحيّر الناس ويلعب بالألباب على مدى القرون وتتالي الأجيال. يرسم حول سلوك الحسن أكثر من إشارة استفهام، ويطرح حول حياته وفنه أكثر من سؤال وسؤال.

بعض هذه الأسئلة يقول: هل كان مجون الحسن وظاهرة التهتك في سلوكه واقعاً مؤكداً لا يختلف حوله اثنان؟.. وعندما يأتي الجواب نعم وألف نعم مصدقاً في شهادة توافق على مهرها بحرف ناصع واضح إجماع المؤرخين والمصنفين والرواة، يبرز سؤال آخر يقول: وإذا كان الأمر كذلك، فهل كان تبذله وتهتكه ومجونه مجرد نزوات شخصية تعبر عن غاية في ذاتها؟!... أم وسيلة لهدف ما كان يسعى إليه، وتعبيراً عن روح حضارة وطابع عصر؟!..

●الدوافع الكامنة وراء ممارسات الحسن المتباينة:

هنا يقف الزمن، ويسود الغموض ويكثر اللغط وينتشر التشويه وتتولد أسئلة تقول: لماذا جاهر الحسن بمجونه على هذا الشكل العاري والمتهتك؟.. هل لأنه كان مصاباً بميل جنسي منحرف ناجم عن «التواء في طبيعة تكوينه أو ولدته فيه ظروف نشأته ومناسبات بيئته وأحداث حياته»[٤٦].

هل كان شعره الماجن تصويراً لحالات متفشية في مجتمع الخلافة العباسية وبشكل خاص لدى أوساط الشرائح العليا من ذروة الهرم الاجتماعي؟...، فأراد أن يُعبّر بصدق الفنان المجدد المبدع عن مجون هذه الفئات وعن تهتكها وزيف فضيلتها باعتباره أحد الذين عاشوا أو عايشوا أجواء هذه الفئات، ومارسوا بعض سلوكها، أو ماثلوا في ممارساتهم بعض ممارساتها ومجونها؟!.

هل كان مجون الحسن تجسيداً لشخصيته الحقيقية التي أثارت حولها جدلاً كبيراً قام ولم يستقر؟!.. تلك الشخصية التي رفضت حلول عصرها وهتكت زيف وقار مجتمع الخلافة المحافظ وما يدعيه من فضائل كاذبة، وسعت إلى إظهار حريتها واختيارها وتمردها على الأعراف العامة والتقاليد والقيم السلفية[٤٧] الموروثة، التي

٤٦- نفسية أبي نواس: الدكتور محمد النويهي، ص٧٢

٤٧- السلفية: هي دعوة إلى اغتيال التاريخ، وإسقاط العقل واتباع خطى السلف بغض النظر عن مفهوم الزمان والمكان.

حولت الفرد إلى إنسان خيالي وضائع، وتركته يبحث عن ذاته خارج الرؤية التاريخية يبحث عن حاضره ومستقبله في فراغ بعد أن فرضت عليه أن يهمل الزمان والمكان وحولته إلى إنسان ناقل ومقلد هرب من مواجهة تحديات عصره على أرض الواقع الذي يعيش فيه. فأعلن وعلى طريقته أخلاقاً جديدة هي أخلاق الفعل الحر، والنظر الحر، ليؤكد ما تتمتع به شخصيته وإلى أي مدى من استقلالية في الرأي والتفكير والتصرف ووسيلة التعبير.

هل تقف وراء هذا الشعر الماجن خلفية ما؟!. ربما فرضت عليه استخدام هذا النهج لبرقعة وجهه الحقيقي وإخفاء تمايز شخصيته ومواقفه من قضايا السياسة والمجتمع والأعراف والتقاليد، من الموروث الفني والمعتقدي والأخلاقي لعصره؟!.. وجعلته يقول مالا يفعل.

قال الحسن[٤٨]:

لو كان من قال ناراً أحرقت فَمَهُ   لما تفوَّه باسم النارِ مخلوقُ

وكتب غالب هلسا يقول[٤٩]:

«..إن الكثير جداً من المغامرات التي يرويها أبو نواس لا يمكن إلّا أن تكون كاذبة قصد بها أن يستفز ذلك المجتمع المحافظ وأن يبدو غريباً وشاذاً في نظرهم. فهو حين يدعو إلى الاستمتاع الجسدي بالجار والشيخ ابن الثمانين والأقارب من الرجال، فلا أعتقد إلّا أنه كان يهدف إلى إزعاج وقار المجتمع المحافظ».

بمعنى أن الحسن كان يسقط صوره الماجنة تارة على نفسه وتارة على أصحابها الحقيقيين. هذا الإسقاط لا يعني بالضرورة أن يكون شعر الشاعر تعبيراً عن معتقده وسلوكه في مجتمع منافق إضطره أن يتماجن ليماشيه أو ليستر نفسه فيه وهو ربما كان في طهارة أبي ذر وصدقه. بل ربما كان تعبيراً عن معتقدات الآخرين وتصويراً لسلوكهم كرجال الدين مثلاً؟!.

٤٨- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٢٥٩

٤٩- العالم مادة وحركة: غالب هلسا، ص١٠٣

قال مصوراً انحراف رجال الدين وسوء طويتهم في عصره[٥٠]:

خلعتُ مجوني فاسترحتُ من العَذْلِ ... وكنتُ ومابي، والتماجن من مثلي

ألم ترَ أني حين أغدو مسبحاً ... بسمتِ أبي ذرٍ وقلبِ أبي جهلِ[٥١]

وأخشعُ في نفسي وأخفِضُ ناظري ... وسُجَّادتي في الوجه كالدرهم المطلي[٥٢]

أذُمُّ فقيهاً ليس رأبي بفقهه ... ولكن لربِّ المرد مجتمع الشملِ[٥٣]

فكم أمردٍ قد قال والده له ... عليك بهذا إنَّهُ من أُولي الفضلِ

يفِرُّ به من أن يصاحب شاطراً ... كمن فرَّ من حرِّ الجراحِ إلى القتلِ[٥٤]

●حملة التشهير ضد الحسن ومراميها:

وهكذا نجد أنفسنا أمام وابل من الأسئلة تنتظر الجواب المنصف والأقرب إلى الحقيقة والواقع تشخص بأعناقها من خلال هذا الركام الهائل من القصص والأخبار والأشعار التي منها الابن الحقيقي، وفيها الابن المنسوب، وتعطي أكثر من جواب ويدور حولها أكثر من رأي. حيث جعلت من سيرة الحسن وشعره بئراً تنضح بالغرائز[٥٥] البدائية و «أكداس العقد الجنسية والأوراثات الوحشية والمبهمات من الأحلام والصور والرغبات الأنانية الفردية...»[٥٦] ونهراً تصب فيه رذائل ومفرزات عصره، ومشجباً يُعلَّقُ عليه فحش وهلوسة كل ماجن متهتك، وكل عربيد فاجر شاذ. لأسباب متعددة المرامي والأهداف، توحدت غايتها وتباينت دوافعها، وكان في مقدمة هذه الأسباب

٥٠- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٣١٦

٥١- السمت، هيئة أهل الخير. أبو ذر من أفاضل الصحابة، أبو جهل هو الحكم بن هشام.

٥٢- يريد بسجادتي في الوجه: أثر السجود وقد شبهه بالدرهم المطلي.

٥٣- المرد: جمع أمرد وهو الغلام الذي ما طرّ شاربه بعد.

٥٤- الشاطر: اللص، الماجن: الخليع ويعني كالمستجير من الرمضاء بالنار.

٥٥- الغرائز: رغبات غير واعية ذات منشأ فزيولوجي بحت. وهي تتبع الجانب البشري الحيوي من الإنسان، مثل غريزة الطعام وغريزة الجنس... وفي هذا الجانب يكون الإنسان كالحيوان تماماً وغرائزه تعبر عن الجانب الوظيفي فيه.

٥٦- دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي: حسين مروة، ص٢٣٤

حرب الأخوين في صراعهما على السلطة، وما نجم عنها من حملة تشهير فاجرة قادها المأمون ورجاله في صراعه مع أخيه الأمين كان لها عميق الأثر على تشويه سمعة الحسن والتزيد عليه فيما لم يفعله أو يقصده.

كتب ابن منظور يقول[٥٧]:

«..لما وقع الخلاف بين الأمين والمأمون، كان ذو الرياستين يخطب بمساوئ الأمين، وقد أعدَّ رجلاً يحفظ شعر أبي نواس فيقوم بين يديه فيقول: ومن جلسائه رجلٌ ماجن كافر مستهزئ متهكم يقول كذا وكذا ويُنشد:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ

ويُنشد:

يا أحمدُ المرتجى في كل نائبةٍ   قُمْ سيدي نعص جبّار السموات».

فهل يجرؤ أحد بعد ذلك أن يقول في الحسن غير ما يريده المأمون وأعوانه؟، مادام المأمون يريد بل يطلب ذلك، ومادام سيف السلطة هو الحكم؟!...

ومن هذه الأسباب أيضاً ما هو مذهبي يتعلق بميل الحسن إلى الأخذ بمذهب الإرجاء[٥٨] واعتماده أساليب المرجئة الذين كانوا يوالون من غلب ويصانعون من حكم تقية وزلفى وانتهازاً. وكذلك لموقفه المؤيد لآل البيت، المخالف لموقف بني العباس الذين غدروا بحلفائهم من الشيعة وناصبوهم العداء، وسلبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين كما فعل قبلهم بنو أمية.

٥٧- مختار الأغاني: جمال الدين بن منظور المصري الإفريقي، المجلد الرابع، ص١٠٥

٥٨- الإرجاء: يرتبط نشوء هذا المصطلح تاريخياً بعد معركة صفين بين علي ومعاوية. حيث ظهر من يقول بإرجاء الحكم في هذه القضية إلى الله وحده. هذا الموقف هو في الواقع موقف سياسي يتذرع بالحياد، لذلك سمي أصحابه بـ المرجئة. عن مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، طبع القاهرة لعام ١٩٥٥ ص١٩٧

بينما ينسب البعض بداية الإرجاء إلى الحسن بن محمد الحنفية حفيد الإمام علي بن أبي طالب. لأن ابن الحنفية وأولاده تميزوا بسلوك يتناسب مع بواعث القول بالإرجاء. ويقول أبو الفتح الشهرستاني: «الإرجاء على معنيين الأول بمعنى التأخير، أي أمهله وأخره، والثاني أعطاه الرجاء أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول، فصحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل على النية والعقد. وأما المعنى الثاني فظاهر. فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقيل =

علماً أن تشيّع[٥٩] الحسن لم يأخذ طابع المجاهرة والعداء العلني لبني العباس لأنه التزم كما ذكرنا بالتقية ومصانعة السلطة حفاظاً على رأسه وصوناً لسلامته وهو في الحقيقة قطب من أقطاب الشيعة الباطنية الذين كانوا يعملون على تقويض سلطة الدولة لإحقاق العدالة والمساواة بعودة الخلافة إلى أصحابها الشرعيين.

= الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة... على هذا المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان. وقيل الإرجاء تأخير علي رضي الله عنه عن الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة. فعلى هذا المرجئة والشيعة فرقتان متقابلتان. والمرجئة أربعة أصناف، مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة». عن الملل والنحل للشهرستاني عرض وتعريف الدكتور حسين جمعه. ص٦٠

٥٩- التشيع: يطلق هذا المصطلح على جمهور من المسلمين تشيعوا (تحزبوا) للإمام علي بن أبي طالب، كونه صاحب الحق الشرعي (الإلهي) بالخلافة بعد النبي مباشرة، ثم لأولاده من بعده. واختلفت الشيعة إلى فرق متعددة بعد موت الإمام الرابع علي بن الحسين الملقب بزين العابدين.

أهم هذه الفرق وأوسعها الإمامية التي تقول بنقل الإمامة من الحسين إلى ابنه علي زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق. وبعد الإمام جعفر الصادق انقسمت الإمامية إلى قسمين. الإمامية الاثني عشرية التي تقول بانتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم ومن بعده إلى الإمام الثاني عشر. وهم الكثرة الغالبة الآن في باكستان وإيران والعراق وسورية ولبنان وغيرها. والإمامية الإسماعيلية التي تقول بانتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ومنه إلى ابنه محمد بن إسماعيل لأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب، ورفضوا إمامة موسى الكاظم ولم يعترفوا بها خاصة وأن محمد بن إسماعيل كان أكبر سناً من عمه موسى. وهؤلاء منتشرون في الهند وباكستان وسوريا وجنوبي أفريقيا وكان منهم الفاطميون والقرامطة.

ومن الفرق الشيعية: الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين الملقب بزين العابدين ولد سنة ٨٠ للهجرة وقتل سنة ١٢٢ للهجرة في المعركة بعد أن خرج ثائراً على الخليفة هشام بن عبد الملك وقد بايعه أهل الكوفة بالخلافة. وله كتاب المجموع الذي يُعتبر من أهم المصنفات في الحديث والفقه التي ألفت في أوائل القرن الثاني للهجرة. وكذلك فرقةالكيسانية أتباع محمد بن الحنفية وتنسب إلى كيسان الذي تتلمذ على ابن الإمام علي محمد بن الحنفية. وغيرها من الفرق التي تشعبت وتعددت مع ظهور طلائع التفكير الكلامي الفلسفي.

لقد أطلق المؤرخون اسم شيعة على كل فرقة تتصل نظريتها أساساً بشخص الإمام علي. والشيعة على اختلاف فرقهم ومذاهبهم ينطلقون من اعتبار الإمامة أو (الخلافة) ركناً أساسياً في العقيدة الإسلامية. على اعتبار أن السلطة هي حق إلهي وليس من حق الأمة أن تختار صاحب السلطة، بل الله هو الذي يختار. وقد اختار علياً وصياً وإماماً وخليفة بعد النبي على المسلمين ثم أولاده من بعده. وقالوا: إن معرفة الله وأسرار الكون والخليقة والروح ومعرفة الشريعة التي هي قانون الله للناس مرجعها النبي في حياته ثم مرجعها الإمام علي بعد النبي. وأن كل إمام في زمانه هو المرجع لإدراك هذه المعرفة، ولا مرجع غيره لأنه المخبر عن النبي والنبي مخبر عن الوحي الإلهي.

إن دلائل تشيع الحسن نراها مبثوثة في شعره وتشهد على تشيعه والتزامه مع الشيعة الباطنية التي تُنسب إلى الإمام الباقر على مستوى المعتقد الروحي واليقيني والسياسي والتي قيل إن الحسن كان قطباً من أقطابها، وله مكانة قدسية دينية بين أفرادها.

جاء في أعيان الشيعة(٦٠):

«... أما في مذهبه فكان شيعياً إمامياً حسن العقيدة وهو القائل في علي بن موسى(٦١) عليه السلام وقد عوتب في ترك مدحه.»

قيل لي أنت أوحدُ الناس طُرّاً	في فنون من المقال النبيه
لك من جيّد القريض مديحٌ	يُثمر الدُّرَّ في يديْ مجتنيه
فعلام تركت مدح ابن موسى	والخصال التي تجمعن فيه
قلتُ: لا أستطيع مدح إمامٍ	كان جبريل خادماً لأبيه
قصُرت ألسُن الفصاحة عنه	ولهذا القريضُ لا يحتويه

وكتب ابن منظور يقول(٦٢):

«.. قال أبو سهل إسماعيل بن علي النوبختي: قال لي عمي: قلت لأبي نُواس: ما رأيت أوقح منك ما تركت خمراً ولا طرداً ولا غزلاً ولا مديحاً ولا معنى إلّا قلت فيه شيئاً. وهذا علي بن موسى في عصرك لم تقل فيه شيئاً. فقال: والله ما تركت ذاك إلّا إعظاماً له. وليس قدر مثلي أن يقول في مثله.

٦٠- أعيان الشيعة: محسن الأمين العاملي، الجزء ٢٤، ص٧٢ وما بعدها

٦١- علي بن موسى الرضا: هو أبو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأمه أم ولد. ولد سنة ثلاث وخمسين ومائة للهجرة بالمدينة، وقيل سنة إحدى وخمسين ومائة. أحد الأئمة الاثني عشر على اعتقاد الأمامية. وكان المأمون قد زوجه ابنته أم حبيب في سنة اثنين ومئتين وجعله ولي عهده وضرب اسمه على الدينار والدرهم. قيل توفي مسموماً سنة اثنين ومئتين للهجرة وقيل ثلاث ومئتين بمدينة طوس وصلى عليه المأمون. عن وفيات الأعيان لابن خلكان، الجزء الثاني ص٤٣٢، ومقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ص٤٥٣ وما بعدها.

٦٢- مختار الأغاني: لابن منظور المصري الأفريقي، المجلد الرابع، ص٣٠٩ علماً أن الأبيات لم ترد في ديوان الحسن، تحقيق أحمد الغزالي.

ثم أنشدنا بعد ساعة:

قيل لي أنت أوحدُ الناس طُراً ... في فنون من المقال النبيه

وذكر بقية الأبيات باستثناء الأخير، قصرت ألسن الفصاحة..»

وذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان مقطوعة أخرى للحسن قالها في مدح الإمام علي بن موسى وآل بيت الرسول.

قال الحسن[٦٣]:

مطهرون نقياتٌ ثيابُهم ... تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا

من لم يكن علوياً حين تنسبه ... فما له في قديم الدهر مُفتخرُ

فاللّه لما بدا خلقاً فأتقنه ... صفاكم واصطفاكم أيها البشرُ

فأنتم الملأُ الأعلى وعندكم ... علم الكتاب وما جاءت به السُور

وفي ديوان الحسن أكثر من مقطوعة يهجو بها هاشم بن جديج ويُذكّر الناس بالتاريخ ويقول أن جد المذكور قتل محمد بن أبي بكر وعامل الإمام علي بن أبي طالب على مصر وابنه في التبني. ويُعرّض بقاتلي حجر بن عدي أيضاً الذي قتله معاوية بن أبي سفيان في غوطة دمشق بسبب ولائه وإخلاصه للإمام علي بن أبي طالب وتصديه لقاتليه وقاتلي أبنائه.

قال الحسن[٦٤]:

يا هاشمُ بن جُديجٍ ليس فخركُم ... بقتل صهر رسول اللّه بالسَددِ

أدرجتُمُ في إهاب العير جُثتَه ... فبئسَ ما قدَّمتْ أيديكم لغدِ

إن تقتلوا ابن أبي بكر فقد قتلت ... حُجراً بدارة ملحوبٍ بنو أسدِ

كما يُذكّر الناس بزمن الرِدّة الذي قتل فيه صهر رسول اللّه الإمام علي بن أبي طالب.

٦٣- وفيات الأعيان: ابن خلكان، المجلد الثاني، ص٤٣٢ علماً أن الأبيات لم ترد في ديوان الحسن، تحقيق أحمد الغزالي.

٦٤- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٥٥٦

قال[٦٥]:

فإنَّ خديجاً له هجرةً ... ولكنها زمنَ الرِّدَّه

وما كان إيمانكم بالرسول ... سوى قتلكم صِهرةُ بعدَه

تعدّونها في مساعيكمُ ... كعدِّ الأهلَّةِ معتدَّه

وما كان قاتلةُ في الرجال ... بحملٍ لطهرٍ ولا رشده

فلو شهِدَتهُ قُريشُ البطاحِ ... لما محشت ناركم جلدَه

ومن هذه الأسباب ما هو ذاتي يتعلق بشخصية الحسن وما امتازت به من ظُرف ودماثة خلق وخفة روح وميل إلى الهزل والدعابة والمطايبة، حتى كثرت طرائفه ونوادره مما: «جعل الكثيرين ينسبون إليه النوادر والحكايا والسلوك الماجن والشعر المبتذل ما لم يمت إليه بصلة»[٦٦]

قال يخاطب يحيى بن خالد البرمكي[٦٧]:

كم من حديثٍ مُعجب عندي لكا ... لَوْ قد نبذتُ بهِ إليك لسّرَكا[٦٨]

مما يزيدُ على الإعادةِ جِدّةً ... غضٍّ إذا خلَقُ الحديث أملَّكا[٦٩]

إني أنا الرجل الحكيم بطبعه ... ويزيدُ في علمي حكاية من حكى

أتتبعُ الظرفاء أكتبُ عنهمُ ... كيما أحدِّثُ من أحبُ فيضحكا

وهذا يعني أن الحسن كان يمجن ويتظرف دون أن يتزندق[٧٠]. والتزندق في هذا

٦٥- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص١٥٥

٦٦- أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد. الدكتورة أحلام الزعيم، ص٤١

٦٧- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد الغزالي، ص٣٨٣

٦٨- نبذتُ به: ألقيت به.

٦٩- أملّكا: من الملل والسأم

٧٠- يتزندق: من الزندقة: والزندقة تعبير لا يوجد أكثر منه غموضاً في معاجم اللغة العربية وفي أقلام المسلمين. حيث أطلق على معان عدة مختلفة فيما بينها على الرغم مما قد يجمع بينها من تشابه. وربما كانت هذه الكلمة معربة عن الفارسية وتحمل مدلولاً فلسفياً يعني مذهب أو معتقد أو طريقة. وربما اشتقه العرب من كلمة زندو التي تعني بالفارسية كتاب الفرس المقدس «الزندوفستا» فقالوا: تزندق فلان بمعنى انتسب إلى الزندو. وربما من «زنْدَكْره» المعربين وهو الأرجح. ثم صار في الفقه الإسلامي اسماً =

السياق لفظ أُطلق على نمط عبثي من السلوك شاع بين المجان والخلعاء والمتظرفين في العصر العباسي وعكس موقفاً احتجاجياً قد يندرج في سياق موقف حضاري وثقافي رافض للواقع الاجتماعي وقيمه السائدة إلى حد أنهم قالوا: «أظرف من زنديق». وأنه يُسقط نوادر الظرفاء على نفسه دون أن يبتعد عن حدود الأدب أو يتجاوز مقداره.

يُروى عن محمد بن أبي عمر قال[٧١]:

«.. سمعت أبا نُواس يقول: والله ما فتحت سراويلي لحرام قط».

وكتب ابن منظور يقول[٧٢]:

«... كان العباس بن محمد يتشوَّقُ أبا نُواس ويميل إليه، فلما رآه وسمع منه ورأى ظرفه وكماله أقبل عليه وقال: يا أبا علي أريد أن أقول لك شيئاً فأستحييك وأستحيي من نفسي في ترك نصحك، وقد بلغني أنك مُكِبٌّ على المعاصي مستهتر بالقبائح والمجون.

فقال: أيها الأمير أما المعاصي فإني أثق فيها بعفو الله عزَّ وجلَّ وقوله تعالى: فوالله لو أن السندي يقول ما قال الله سبحانه وتعالى لوثقت به، فكيف بقول رب العالمين عزَّ وجلَّ وهو يقول: ﴿يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[٧٣]. وأما المجون فما كل أحد يُحسن أن يمجُن، وإنما المجون ظرف، لستُ أبعد فيه عن حدِّ الأدب ولا أتجاوز مقداره. ثم نهض. فقال العباس: هذا والله الأدب الذي يَحْسُنُ معه كل شيء».

= يدل على من يظهر الإسلام ويبطن معتقداً غيره، أو ما تُسمى الإسرار والانطواء على العقيدة باعتقاد المانوية التي تقول بوجود أصلين أزليين للعالم هما النور والظلمة، أو الدهرية أو غيرها من المعتقدات التي تتلمس الحقائق الكونية خارج العالم الغيبي. وأعتقد أنه لفظ ارتبط بشكل واضح بمخالفة التصورات الدينية التي توارثتها الجماعة الإسلامية.

وربما أطلق الخلفاء هذا الاتهام على من كان مذهبه مخالفاً لمذاهب أهل السنة ليكون مبرراً لهم ووسيلة للتمكن من خصومهم الهاشميين والقضاء عليهم. وكذلك على كل من يشكل خطراً على الدولة فيتهم من قبلهم بالطعن في الدين أو بالانتساب إلى ديانة غير كتابية.

٧١- البداية والنهاية: للحافظ إسماعيل بن كثير الجزء العاشر، ص٢٣١

٧٢- مختار الأغاني: جمال الدين بن منظور المصري الأفريقي، المجلد الرابع ص٣١٩

٧٣- سورة الزمر: الآية رقم ٥٣

لقد أدرك الحسن أبعاد عدم فهم ظُرفه وعبثه وسلوكه الماجن تقيةً ومجانة من قبل البعض من معاصريه، وتعمُّد البعض الآخر العمل على تشويه سمعته والإساءة إليه. فعبر عن ذلك بأبيات تقطر أسىً وحسرة وتوجّه بها إلى اللّه يشكو ظلم الناس له وبهتان ما يدّعون. وتشهد على صدق طويته ونقاء سريرته.

قال الحسن[٧٤]:

يا ربِّ إن القوم قد ظلموني	وبلا اقتراف مُعطّلٍ حبسوني[٧٥]
وإلى الجحود بما عليه طويتي	ربي إليك بكذبهم نسبوني[٧٦]
ما كان إلّا الجريُ في ميدانهم	في كُلِّ خزي والمُجانة ديني[٧٧]

ومنها ما هو اجتماعي يتعلق بسلوك علية القوم ونخبة رجال الدولة والمجتمع، الذين تجمعهم مع الجواري والغلمان والمغنين مجالس الأنس والطرب. وخلوات القصف والعزف والشراب والرقص. وما أكثر ما تجمع شملهم هذه المجالس وتلك الخلوات. فإذا ما جادت قرائحهم، وفاضت خواطرهم بشعر مُسفٍ فاحش مكشوف في لحظات التجلي والنشوة والسرور، لم ينسبوا هذا الشعر إلى أنفسهم خوفاً من سيرورته على لسانهم حتى لا ينتقص قدرهم وتهتز صورتهم أمام الناس وفي المجتمع. وقد نسب الرواة والمصنفون والمتحاملون أكثر هذا الشعر إلى الحسن، والحسن منه براء.

● شخصية الحسن في تصوراتها وتعارضاتها ومعاييرها المعرفية:

لقد قام الحسن بمحاولة صياغة محض تصورات فكرية فلسفية دينية.. عن الكون والإنسان وطرحها في شعره كالنجوم الهادية في ظلام الليل الداكن، معتمداً على القرآن الكريم وقيم الدين الحنيف الرامزة حسب معاييره وفهمه لجوهر الدين ووعيه المعرفي

٧٤- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٥٩٦

٧٥- ديوان أبي نواس: تحقيق إيفالد فاغنر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة، طبعة سنة ١٩٥٨، الجزء الأول، ص٣٤٠: وردت كلمة (خطيئة) بدل (معطل).

٧٦- المصدر السابق: بما عليه خلافه، بدل طويتي، والزور والبهتان: بدل ربي إليك بكذبهم.

٧٧- المصدر السابق: والتقية بدل المجانة. وفي الحالتين يبقى المعنى الذي يهدف إليه الحسن واحد، حيث لا فرق بين التقية والمجانة بهدف التقية.

الذي كان ثمرة من ثمار اطلاعه على الفلسفات والأديان والمذاهب، وتعمقه في فهم نوازع الإنسان وسبر معنى الحياة المعيشة التي أخلص لها وآمن بقيمها.

قال[٧٩]:

ما لي وللناس كم يلحونني سَفَهاً ... ديني لنفسي ودين الناس للناس

أولاً: تعارضاته مع فقهاء السلطة:

تعارضت تصورات الحسن ومعاييره مع الكثيرين من أبناء عصره وخاصة مع الطقسيين من فقهاء السلطة، والقراء الفقهاء الذين نالوا من جوهر الدين الإسلامي وقيمه الرامزة. فقولبوا مفاهيمه واستشرافاته في معايير قيمية ثابتة وشعائر حدية اطلاقية ذات صفة إلهية، دمجت ما هو إنساني بما هو إلهي ومجدت الذهنية السلفية التي وقفت في حدود فهمها عند التفسير اللغوي والفهم اللفظي المباشر، وتجاهلت قيم الدين السمحاء ومشيئة الخالق في العفو الكريم عمن يشاء.

قال الحسن[٧٦]:

لا تحظرْ العفو إن كنت امرأً حرجاً ... فإن حظركه في الدين إزراء[٨٠]

وقال أيضاً[٨١]:

يا كبير الذنبِ عفو اللّه من ذنبك أكبر

أكبر الأشياء عن أصغرِ عفوِ اللّه أصغر[٨٢]

ألم يُصدرْ هؤلاء القراء من فقهاء السلطة فتاويهم الجائرة بحق كبار المثقفين من

٧٨- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٥٩٦

٧٩- المصدر السابق: ص٧

٨٠- لا تحظر العفو: لا تمنعه. حرجاً: مضيقاً. إزراء: من أزرى بالشيء أدخل عليه عيباً. يعني يريد أن تدلس عليه أمراً وهو ليس منه.

٨١- المصدر السابق: ص٦٢٠

٨٢- ينسجم هذا الأمر وموقف المرجئة تماماً حيث يقولون: (لا تضُرُّ مع الإيمان معصية) وكان الحسن من القائلين بها. عن الملل والنحل للشهرستاني، عرض وتعريف الدكتور حسن جمعه، ص٦٠

الشعراء والكتاب الظُرفاء بعد أن اتهموهم بالزندقة. أمثال الشاعر صالح بن عبد القدوس شاعر الحكمة والداعي إلى الزهد بأمر من المهدي بعد أن وصم بالزندقة. وقيل إن المهدي شطره نصفين بضربة واحدة من يده على هامته، ثم علق جثته بنصفيها في إحدى ساحات بغداد، وكان صالح قد شاخ وأدركه العمى، علماً أن كثيراً من الروايات أكدت أن صالحاً كان من الزهاد والصالحين وقتله كان افتئاتاً وظلماً. ويروي النقاد أبياتاً شعرية لصالح يصور فيها حالة المجتمع البائس وناسه المسحوقين في عصره، منها:

ألا أحدٌ يبكي لأهل محلةٍ مقيمين في الدنيا وليسوا من الدنيا
كأنهم لم يعرفوا غير دارهم ولم يعرفوا غير التضايق والبلوى[٨٣]

وكذلك الكاتب عبد اللّه بن المقفع الذي أعدم حرقاً بأمر سفيان بن معاوية أحد ولاة المنصور، لأن الأمان الذي أعطاه المنصور لعمه عبد اللّه وحرره ابن المقفع تضمن شروطاً تقطع على المنصور سبيل نقضه[٨٤]. ومقتل الشاعر الكبير بشار بن برد رأس الشعراء المحدثين وزعيمهم حيث أعدم جلداً حتى الموت وقد نيّف على السبعين من عمره بأمر من الخليفة المهدي وكان بشار قد قال:

خليفة يزني بعماته يلعب بالدبوق والصولجان

وقال أيضاً:

بني أمية هبوا طال نومكُمُ إن الخليفة يعقوبُ بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة اللّه بين الزّق والعودِ[٨٥]

ومن الذين اتهموا بالكفر والزندقة الشاعر آدم بن عبد العزيز الذي أظهر اللّهو والظُرف والمجون إخفاءً لأمر في نفسه. وقيل إن المهدي جلده وكان على دين صحيح. وقد قال للخليفة عندما ضربه: «واللّه ما أشركت باللّه طرفة عين، ومتى رأيت قرشياً تزندق، لكنه طرب غلبني وشعر طفح على قلبي في حال من الحداثة فنطقت به»[٨٦].

٨٣- ديوان شعري مخطوط بين أبي نواس والبارباري، تحقيق وتقديم عبد الحسين، ص٣٨

٨٤- الفهرست لابن الأثير، طبعة فلو جل، ص١٧٨

٨٥- كتاب الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، المجلد الثالث، ص٢٤٢

٨٦- المصدر السابق: المجلد الخامس عشر، ص٢٨٦ وما بعدها.

ومنهم الشاعر مطيع بن إياس والحمامدة الثلاثة حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان وغيرهم الكثير الكثير من الشعراء والكتاب والمثقفين الذين مثلوا منحى التنوير الإسلامي في أيامهم.

ثم ألم تصدر فيما بعد العقلية السلفية فتاوى ظالمة بل قل مجرمة بلسان فقهاء السلطة بحق العديد من المتصوفين المؤمنين بعد أن اتهموا بالكفر والخروج على الدين من أمثال الحلّاج(٨٧) الذي حاول بوصفه من أهل الجدل والوجد التوفيق بين الدين والفلسفة اليونانية على أساس من التجربة الصوفية، وقال بـ «إسقاط الوسائط» يعني إمكانية الاستعاضة عن الفرائض الخمس بشعائر أخرى، وبوجود روح ناطقة غير مخلوقة تتحد بروح الزاهد المخلوقة (حلول اللاهوت في الناسوت) فيصبح الولي الدليل الذاتي الحي على الله «هو هو»

والسهروردي القتيل(٨٨) الذي حذق حكمة الفرس وفلسفة اليونان وسلك طريق المتصوفة في العلم والعمل فجمع بين أنظار الفلسفة العقلية وأذواق التصوف القلبية وانتهى إلى تأسيس حكمته الإشراقية التي سماها «علم الأنوار». وكذلك الشيخ الأكبر ابن عربي(٨٩) صاحب مذهب وحدة الوجود الذي أثار عليه الفقهاء فنسبوه إلى الزيغ

٨٧- الحلاّج: هو الحسين بن منصور (٨٥٨-٩٢٢) ميلادية. متصوف ومتكلم. ولد بفارس ودرس على شيوخ الصوفية (التستري، المكي، الجنيد). وطاف يدعو إلى الزهد والتصوف بتركستان والهند ومكة حتى استقر ببغداد وجمع حوله الكثير من المريدين. اتهم بالكفر والخروج على الدين. وبعد سجن دام ثماني سنوات ومحاكمة استمرت سبعة أشهر أمر بقتله. فقيد وضرب بالسياط ثم قطع رأسه وأحرق. ورغم إجماع القضاة على تكفيره اعتبره الناس من الصالحين.

٨٨- السهروردي القتيل: (٥٤٩هـ/١١٥٤م - ٥٨٧هـ/١١٩١م) هو أبو الفتوح يحيى بن حبش حكيم إشراقي. ولد في سهرورد عند زنجان من عراق العجم وتتلمذ في مراغه على الإمام مجد الدين الجيلي. درس الحكمة وأصول الفقه. عاش في أصفهان وبغداد وحلب. له مع فقهاء حلب مناظرات جعلتهم يحنقون عليه لدى صلاح الدين الأيوبي الذي أمر ابنه سلطان حلب بقتل السهروردي فقتل في قلعة حلب.

٨٩- ابن عربي: هو أبو بكر محمد بن علي (١١٦٥-١٢٦٠م) ولقب بالشيخ الأكبر. ولد بمرسيه ودرس الفقه والحديث بأشبيلية، وارتحل إلى المشرق فدخل مصر والحجاز وما بين النهرين وآسيا الصغرى والشام وأقام بدمشق وتوفي فيها. كان في العبادات والمعاملات ظاهرياً. وفي العقائد باطنياً. تبلغ مصنفاته المائتين أهمها «الفتوحات المكية» و «فصوص الحكم» وفيهما يعبر عن مذهبه الصوفي في وحدة الوجود ووحدة الأديان والحقيقة المحمدية، تعبيراً يمزج فيه النظر الفلسفي بالذوق الصوفي. وديوان «ترجمان الأشواق» يصور فيه تصويراً رمزياً أذواقه وأشواقه في الحب الإلهي.

والضلال وانهم باستعمال الرمز ستراً لما ينافي الدين والخلق من قبل ابن تيمية وابن خلدون وابن حجر العسقلاني وغيرهم...

ثانياً: تعارضات اجتماعية ذات طابع ديني:

وتجلت تصورات الحسن ومعاييره على شكل تعارضات اجتماعية دينية بين العقل والنقل

وإذا وصفت الشيء متبعاً ... لم تخلُ من زللٍ ومن وهم[٩٠]

بين العفو السموح والقصاص الزاجر.

تكثّر ما استطعت من الخطايا ... فإنك قاصدٌ ربّاً رحوما

سيُفضي ذاك منك إلى نعيم ... وتلقى ماجداً صمداً شكورا[٩١]

بين التسامح الديني الذي هو أساس كل نظرة إنسانية سمحاء، وأنياب التعصب والتمذهب الأعمى الذي هو أساس لكل نظرة أحادية السمت لا إنسانية.

قال متخذاً الظُرف والدعابة ستاراً[٩٢]:

متخرسنٍ، دينُ النصارى دينُه ... ذي قرطقٍ لم يتصل ببنائقِ[٩٣]

لبقٍ، بديع الحسن، لو كلّمتَهُ ... لنبذت دينك كُلّه من حالقِ[٩٤]

واللّه لولا أنني متخوفٌ ... أن أبتلى بإمام جورٍ فاسقِ[٩٥]

لتبعته في دينه ودخلته ... ببصيرة فيه دخول الوامقِ[٩٦]

إني لأعلم أن ربي لم يكن ... ليخصه إلّا بدينٍ صادقِ

٩٠- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٤٧٤

٩١- المصدر السابق، ص٧٣٠

٩٢- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٢٢٠

٩٣- متخرسن: لابس ملابس خراسانية. البنائق: جمع بنيقه وهي المعروفة بالياقة.

٩٤- الحالق: الجبل المرتفع.

٩٥- ابتلى أُرزأ. الجور: الظلم.

٩٦- الوامق: المحب.

وقال أيضاً[٩٧]:

مزجتُ ديني بدين الروم فامتزجا ... كالماء يُمزج بالصِّرف الرساطون[٩٨]

فلستُ أبغي بها يا عاذلي بدلاً ... إذ صار لي بهمُ دينان في دين

بين الأمثولة الرامزة والتكاليف الحدية المغلقة، حيث طرح وبشكل رامز وخارج عن المألوف، وتحت ستار من الظُّرف والدعابة ما يناقض المعاني والمقاصد لمفهوم أبعاد العبادات وما آلت إليه على أيدي الطقسيين الذين حولوا أبعادها ومقاصدها إلى سلوكية طقسية وحركات جسدية.

قال الحسن[٩٩]:

قل للعذول بحانة الخمّارِ ... والشُّربُ عند فصاحة الأوتار

إني قصدتُ إلى فقيه عالمٍ ... متنسك حبرٍ من الأحبار

متعمقٍ في دينه متفقه ... مُتبصر في العلم والأخبار

قلتُ: النبيذ تُحلّه؟ فأجاب: لا ... إلّا غُفاراً ترتمي بشرارِ

قلتُ: الصلاة؟ فقال: فرض واجب ... صَلِّ الصلاة، ربت حليف عقارِ

اجمع عليك صلاة حولٍ كاملٍ ... من فرضِ ليلٍ فاقضِه بنهارِ

قلتُ: الصيام؟ فقال لي: لا تنوهِ ... واشدد عرى الإفطار بالإفطار

قلتُ: التصدُّقُ والزكاةُ؟ فقال لي ... شيء بُعدٌ لآلةِ الشُّطّارِ

قلتُ: المناسك إن حججتُ؟ فقال لي: ... هذا الفضولُ، وغايةُ الإدبارِ

لا تأتينَّ بلاد مكة مُحرِماً ... ولو أنَّ مكة عند باب الدارِ

بين مسلمات الماضي على كافة المستويات في الفن والاعتقاد التي أصبحت أطلالاً صامتة لا تجيب، والنظرة الرافضة لكل ما يكبح جماح الإنسان من أحكام نحو الحرية والتحرر من قيود الماضي سواء أكانت هذه الأحكام اجتماعية أم دينية، بهدف صياغة

٩٧- المصدر السابق، ص٣٠٥

٩٨- الرساطون: الخمر معربة عن اليونانية.

٩٩- المصدر السابق، ص٢٠٠ وما بعدها.

معايير وقيم تنسجم والزمن الذي يعيش فيه واقعاً ومستقبلاً لا الزمن الذي عاش فيه السلف وتخطته الحياة. معايير وقيم تتلاءم مع تحرر الحسن الفكري ونظرته إلى الحياة التي كان مخلصاً لها ومؤمناً بقيمها. الحياة التي كان يطمح إلى أن يعيشها ويتمتع بها ويعبر عنها كما يراها وكما يريدها.

قال الحسن(١٠٠):

لا يصْرِفَنَّكَ عن قصفٍ وإصباءٍ	مجموعُ رأيٍ، ولا تشتيتُ أهواءِ(١٠١)
واشرب سلافاً كعين الديك صافيةً	من كفِّ ساقيةٍ كالريم حوراءِ(١٠٢)
تغدو وترجعُ ليلاً عن مساربها	إلى ملوك ذوي عزٍ وأحْباءِ(١٠٣)
كُلٌّ بمقلِه يُمضي حكومته	في جزبه بجميل القول والراءِ(١٠٤)
فاشرب - هُديت - وغنِّ القوم مبتدئاً	على مساعدةِ العيدان والناءِ

وقال أيضاً(١٠٥):

واغدُ إلى الخمر بإبانها	لا تمتنع عنها لتحريمِ(١٠٦)
فمن عدا الخمر إلى غيرها	عاش طليحاً عينَ محرومِ(١٠٧)

ثالثاً: تعارضاته حول مفهوم العدم والموت:

ومنها تعارضات تدور حول الزمن النواسي ونظرة الحسن إلى العدم والموت. وماذا يعني بالنسبة إليه – من خلال هذه النظرة – مفهوم الجنة والنار والجبر والقدر؟!.

١٠٠- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٢٠٠ وما بعدها.

١٠١- لا يصرفنك: لا يردنك. قصفٌ: لهو. إصباء: من صبى إليها حنَّ ومال.

١٠٢- الريم: الظبي الخالص البياض. حوراء: صفة من الحور وهو أن يشتد بياض العين وسوادها.

١٠٣- أحباء: جمع حباء، وهو النديم أو جليس الملك وخاصته.

١٠٤- الراء: مصدر رأيته رؤية وراءة: النظر بالعين والقلب. وقيل الرأى وهو المقصود.

١٠٥- المصدر السابق: ص١٥٥

١٠٦- بإبانها: في وقتها وأوانها.

١٠٧- الطليح: الهزيل. يقول من تجاوز الخمرة إلى غيرها من اللذات أو إلى ما هو حلال للناس عاش محروماً هزيلاً.

قال الحسن[١٠٨]:

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ لا قدرٌ صَحَّ ولا جبرُ
ما صحَّ عندي من جميع الذي يُذكرُ إلّا الموتُ والقبرُ

وبتسليم الحسن بحقيقة مؤكدة هي أن الزمن يتوالى بتقلب الأيام ودنو لحظة النهاية المتمثلة بفجيعة الموت، الحقيقة المطلقة الثابتة والمؤكدة التي لا بغدَ تفيدها.

قال[١٠٩]:

باحَ لساني بمُضمر السّر وذاك أني أقول بالدهر
وليس بعد الممات مرتجعٌ وإنما الموتُ بيضةُ العُقر[١١٠]

لقد أدرك الحسن أن لا سبيل للإنسان في التغلب على محنة القبر التي هي نهاية كل إنسان، إلا بقهر الزمن الأرضي وتغيير وظيفته، إلا بتحويله إلى قيمة تلتصق بالحياة حتى الانصهار، لأن الحياة معناه وهو قيمتها، إلا بتحويله إلى مشكاة تشع بديمومة الحاضر اليقيني الغني المليء الذي له وحده فضيلة مهمة تقييم الماضي واستشراف المستقبل. الحاضر الذي هو وحده يحول كمية الوجود إلى نوعية.

إلا بالتغلب على وطأة الإحساس بالموت وهاجس الفناء. من خلال مواجهة الحياة بإيجابية وتفاؤل، واقتناص اللذة واغتنام اللحظة وإغناء الراهن من الواقع بالفرح والأمان، بالرغد والرخاء بالأخوة والمساواة، بالأمل المشوق المرتجى الذي يسقي الحلم ويمنح الأشياء حضورها وقوتها وعمقها. لأن تحمل الإنسان لمسؤولية وجوده، وتأكيده على حرية إرادته باقتناص غبطة الفرح وتشرب لحظات السعادة بالبحث عن كل ما هو لذيذ، عن كل ما هو جديد والعيش بامتلاء هو السبيل المفضي إلى تدجين الزمن وتفريغه من رهبة الوعيد والسقوط، ومثوبة الثواب والعقاب.

قال[١١١]:

ما جاءنا أحدٌ يُخبّرُ أنّهُ في جنةٍ من مات أو في النارِ

١٠٨- أخبار أبي نواس: لابن منظور، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول: ص٢٢٨

١٠٩- مختار الأغاني: جمال الدين بن منظور المصري الافريقي: المجلد الرابع، ص١٨١

١١٠- بيضة العقر: بيضة يبيضها الديك مرة واحدة ثم لا يعود. ويعني بذلك أن لا حياة ثانية بعد الموت.

١١١- ضحى الإسلام: أحمد أمين، المجلد الأول، ص١٤٨

رابعاً: تعارضات سياسية اجتماعية:

وكان بعض هذه التعارضات على شكل تعارضات سياسية واجتماعية ارتبطت بصراع المجموعات الحاكمة والمحكومة، وموقف الحسن من هذا الصراع، باعتباره من جهة أحد بطانة الخليفة، مقرباً من السلطة يعيش في أحضانها أنيساً للخليفة وسميراً له. وباعتباره من جهة ثانية قطباً من أقطاب الشيعة الباطنية وبالتالي محسوباً من المعارضة السياسية في مستوى المعتقد الروحي واليقيني والسياسي. هذه الازدواجية المتناقضة في الموقف دفعت به إلى إخفاء وجهه الحقيقي، ووراء برقع التقية. وتغليف قناعاته وتمرده الاجتماعي بستار مخادع من المجون المتهتك والمراوغة الخادعة والظُرف السياسي الساخر وكتابة شعر واحد في اللفظ شتى في المعنى إلى حدٍّ يمكن أن يقال فيه: إن العديد من الألفاظ التي وردت في شعر الحسن قد انطوت على باطن يخالف معناه في صورته الظاهرية.

وقد تؤول هذه الألفاظ أو تشير إذا حُسبت على حساب الجُمّل منهج الدلالات الرقمية للأحرف إلى معاني رامزة ودلالات محددة محكومة بكثير من القواعد والضوابط المراتبية الصارمة التي تحكم حركة الفرق الباطنية(١١٢)، وتوجه تواصل أعضائها فيما بينهم ومع تلامذتهم في نقل اليقينيات الكونية التي يحملونها سراً محجوباً.

لقد نجح الحسن - والحقُّ يقال - في تناول بعض هذه الألفاظ مثل: الصِّرف، المزاج، الاهتداء، الجلال، الأغن، البديع، المطل، الحجاب، الروح، التوالد والضياء وغيرها... تناولاً مجازياً رامزاً، استطاع من خلاله أن يكشف المعاني الدقيقة فيها ويحمّلها من الطاقات الروحية الرامزة ما يقصر عنه كل إبداع. بحيث وصل في رمزيتها وإشراقاتها واستشرافاتها درجة الإبداع المعجز.

فكان الأول والمرشد والرائد والمثال والمنهل لمن جاء بعده من المتصوفة الذين عملوا على توظيف هذه الرموز أكثر، وعلى سيرورة استخدامها وكشف وتطوير مدلولاتها.

١١٢- يمكن الرجوع إلى كتب تتحدث عن الإسماعيلية والدروز وغيرهم من الفرق الباطنية والانتباه إلى المراتبية الصارمة والتنظيم الدقيق الذي يحكم حركة هذه الفرق وتواصلها وطرق انتقال اليقينيات من الأسلاف إلى الأخلاف.

وإذا ما تعدى الأمر دائرة ربما وكما نتوقع، وهو أمر ترجّحه وتشير إليه معظم الدراسات الحديثة والمنصفة. فإننا نستطيع أن نقرر باطمئنان ورضىً تامين أن غزل الحسن بالخمرة والساقي والساقية، وكذلك غزل المتصوفة، لم يكن إلّا تصويراً لحياة حقيقية حولهم، هذا أولاً. وثانياً: أن هذه الحياة ليست بعيدة عن الروح الدينية الإسلامية التي يحلمون بها في الجنة التي وعدت المتقين بجنات فيها أنهر من خمر وعسل لذة للشاربين. ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾[١١٣]. يطوف عليهم فيها: ﴿ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾[١١٤] و ﴿حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾[١١٥]. فصوروا أحلامهم وسعادتهم وطموحاتهم بالخمر والساقي والساقية وغير ذلك من النعم التي يهبها الله لعباده الصالحين.

قال الحسن[١١٦]:

أدر كأس المدامة يا نديمي	ولا تسمع مقال العاذلينا
ألم تسمع مقال الله فيها	تعالى: لذةً للشاربينا
فلو كانت حراماً لم تكن في	جنان الخلد شرب المتقينا
يطوف عليهم الولدان فيها	بكاسات المدام مخلدينا

خاصة إذا علمنا أن الموقف من الخمر كان ولايزال مدار نقاش وخلاف لأن النهي الذي جاء فيها لا يعني التحريم، بل هو أدنى مرتبةً وحكماً. وأن بعض الفرق كان لها رأي بمقولة الناسخ والمنسوخ وكانت تقول: «لا يمكن أن يأمر الله بشيء ثم ينسخه».

١١٣- سورة محمد: الآية رقم: ١٥

١١٤- سورة الإنسان: الآية رقم: ١٩

١١٥- سورة الواقعة: الآيتان رقم: ٢٢-٢٣

١١٦- لم ترد هذه المقطوعة في ديوان الحسن تحقيق أحمد الغزالي، علماً أنها رويت له في أكثر من مصدر. البعض نسبها إلى شاعر متصوف عباسي يدعى البازياري عاش في عصر سيف الدولة. غير أن جميع المصادر التي تناولت كل من سمي أو لقب بهذا الاسم «البازياري» لم تذكر أن أحداً منهم كان شاعراً. وليس المهم هنا لمن تُنسب هذه الأبيات؟ المهم فكرتها وما يدور فيها من حوار عقلي منطقي ينفي مفهوم التحريم.

كما أن شيخ الإسلام فخر الدين الرازي كان يقول[117]: «لا ينبغي إبطال كلام الله». لأن القول بإبطال آية قرآنية معينة من قبل آية أخرى يفترض وجود تناقض في الأصل الذي تشكله كل آية بصفتها كلام الله.

ولكن على الرغم من لجوء الحسن إلى التقية واللفظ الملتبس الرامز وتنكبه أسلوب المجانة والظرف وإحراقه لجزء كبير من أشعاره بهدف عدم إظهار معتقده وموقفه المعارض للسياسة السائدة في عصره كما تقول الروايات.

كتب ابن منظور يقول[118]:

«..قال محمد بن منصور الصيرفي الذي مات أبو نُواس في منزله وهو الذي قال فيه.

وذاك محمد تفديه نفسي　　　　وحقٌ له وقلَّ له الفداء[119]

قال: نزل عليّ أبو نواس قبل موته بخمسة أيام أو ستة من الغرفة التي مات فيها وبين يديَّ كانون فيه فحم. فأمر بزيادة الفحم عليه، فلما اشتعل وقويت نارهُ، أخرج كتباً كانت في أحد كميه فوضعها على النار، فلما احترقت أخرج من كمه الآخر كتباً أخرى فأحرقها أيضاً، فسألته عن ذلك.

فقال: هذه أشعار كنتُ أضَنُّ بها أن يسمعها الناس، وكرهت أن تبقى بعدي فينتحلوها فأحرقتها».

١١٧– الرازي: هو فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي البكري. ولد في الري عام ١١٤٩ ميلادية، وتوفي في هراة عام ١٢٠٩ للميلاد. متكلم وفيلسوف ومفسر للقرآن ومن كبار المؤلفين الكلاسيكيين. كان شافعياً أشعرياً ناظر المعتزلة، واشتغل بالتدريس في الحيرة. عرف في زمانه بشيخ الإسلام، كما عرف بسعة معرفته بعلوم المعقول والمنقول. ترجع شهرته ومكانته في تاريخ الفكر الإسلامي إلى تفسيره للقرآن المسمى «مفاتيح الغيب» المشهور بالتفسير الكبير. إذ جمع فيه بين المباحث الكلامية والفلسفية الدينية وضمنه محاولته في التوفيق بين الفلسفة والدين. له عشرات المؤلفات في العربية والفارسية، وله شعر بديع. من مؤلفاته: «المحصول في الفقه» و «فضائل الصحابة» و «المباحث المشرقية» و «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» وغيرها... وله أيضاً شرح «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا، وشرح «ديوان سقط الزند» لأبي العلاء المعري.

١١٨– مختار الأغاني: جمال الدين بن منظور المصري الأفريقي، المجلد الرابع، ص٢٢٧

١١٩– علماً أن المقطوعة التي من ضمنها هذا البيت كان قد ذكر ابن منظور أنها قيلت في الخليفة محمد الأمين. عن مختار الأغاني لابن منظور المجلد الرابع، ص٧٤ وما بعدها.

أقول على الرغم من كل ذلك، فقد شمع أكثر من قائل يتهمه بالشعوبية[١٢٠] ويرميه بالكفر والزندقة وينال من إيمانه. والزندقة سمة لازمت معظم الشعراء الذين عرفوا بالمجون في تلك الحقبة من الزمن فوصموا بها. كما أنه دخل السجن أكثر من مرة ثم خرج ليعاني من براثن السجن الداخلي، سجن دار الغربة في عالم الأحياء الموتى أو الموتى الأحياء. السجن الحقيقي الذي يحول بين الخيار الذي اختاره الإنسان في مجال الفكر والفن.. وبين الفعل الذي يخدم تحقيق هذا الخيار.

ولولا لغة الرمز وتنكب المجون الساخر والظُرف، وطبيعة الظرف السياسي الذي عاش فيه لواجه مصيراً فاجعاً ربما مثل المصير الذي انتهى إليه صالح عبد القدوس وبشار ابن برد وغيرهما على يديّ صاحب ديوان الزنادقة بأمر من الخليفة المهدي كما مرَّ معنا.

خامساً: تعارضات فنية:

ومنها ما هو فني يتعلق بمذهب الحسن الجديد في الشعر وثورته على منهج القصيدة العام وبنائها الفني، والبحث عن أشكال جديدة للصايغة تعتمد رشاقة الأوزان ولباقة التعابير، وهسهسة التقطيعات والتقسيمات المتناغمة الخاضعة لتنسيق منظم.

قال الحسن[١٢١]

شُلافٌ دَنٍّ كشمس دَجْنٍ	كدمع جفنٍ كخمر عَدْنٍ
طبيخُ شمسٍ، كلونِ ورسٍ	ربيبُ فرس حليف سَجْنٍ
فاحت بريح كريح شيحٍ	بيَوْمِ صبوحٍ وغيم دَجْنٍ
يسقيك ساقٍ على اشتياقٍ	إلى تلاقٍ بماء مُزْنٍ
يُديرُ طرفاً يُميزُ حتفاً	إذا تكفى من التثني

١٢٠- الشعوبية: لفظ مراوغ، لكنه يرتبط بتصورات اجتماعية تخالف ما تعارفت عليه الجماعة العربية، وتعبر عن صراع اجتماعي بين العناصر العربية وغير العربية كرد فعل تملى في الكفاح من أجل المساواة ووقف القمع والتمييز القومي بين شعوب الإمبراطورية الإسلامية بعد أن فشلت السلطة السياسية في تحقيق المساواة حسب تعاليم الإسلام. غير أنها تحولت فيما بعد من موقف الدعوة إلى المساواة وتأكيد مبدأ العدل الذي ينفي ضمناً أو صراحة كل تمييز اجتماعي سياسي ينبع من العرق أو الوراثة أو الثروة إلى مواقف التعصب القومي. ومع ذلك فإنها ساعدت على تقليص التعصب القومي العربي والاستعلاء العنصري وخلقت مناخاً لنمو حركات ثورية تقدمية في حينها.

١٢١- ديوان أبي نُواس: طبعة اسكندر آصاف، المطبعة العمومية بمصر، ص٣٢٣

وقال أيضاً[١٢٢]:

اسقنيها بسوادِ | تبل تغريد المنادي
من كميتٍ بلغت في الدّنِ أقصى مستزادِ
بين أفياء عريشٍ | عقدوه بعمادِ

لقد عمد الحسن إلى البحث عن استخدام جديد للكلمات ينمي من خلاله لغة معجمه ويصوغ الواقع صياغة جديدة كما يراه هو ويتمناه. وبذلك تخطى العلاقات المألوفة بين الأشياء، ونسج علاقات مبتكرة تتعدى التعبير المباشر في تشكيل الصورة وتجنح بها إلى عوالم أرحب مليئة بالرمز والإيحاء والحركة.

قال الحسن[١٢٣]:

وذاتِ خدٍّ مُوَرَّدْ | فتانة المُتجَرَّدْ
تأمّل الناس فيها | محاسناً ليس تنفدْ
الحسن في كلِّ جزءٍ | منها معادٌ مردَّدْ
فبعضه في انتهاءٍ | وبعضُهُ يتولَّدْ
وكُلَّما لحدتَ فيه | يكون بالعود أحمدْ

وقال أيضاً[١٢٤]:

يزيدُك وجهه حسناً | إذا ما زدته نظرا

وجعل محاسن الحبيب وفتنته المتجددة تمور بجمال الحركة الخفية التي تحرك كل ما هو غير قابل للحركة. وأكد أن حُسن حبيبه يتوالد بعضه من بعض ويتجلى في صورة جديدة مبتكرة لا تكرر سابقتها بل تتفوق عليها كلما أعدت النظر إليه وأعدت.

وفي مجال دفاع الحسن عن مذهبه الجديد في الثورة على منهج القصيدة وبنائها الفني بشكل عام.

١٢٢- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٦٤

١٢٣- المصدر السابق: ص٢٣٢

١٢٤- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٥٥٩

قال يصف قصيدته في زيها الحديث[١٢٥]:

وما ضرها أنها لا تُعَدُّ لجرولٍ ولا المزني كعبٍ ولا لزيادِ[١٢٦]

لقد توافق هذا الزيُّ بأشكاله الصياغية الجديدة مع إيقاع واقع مختلف في علاقاته الجدلية المترقية بين الشكل المتغير والوعي المتغير للشاعر عن الكون والإنسان. بعد أن أدرك الحسن أن الماضي لا يتكرر مطلقاً بالمعالم نفسها لأنه أصبح أطلالاً صامتة لا تجيب. وأن تكراره جمود وتقليد متحجر ورمز للبداوة والتخلف عن مسايرة روح الحضارة الجديدة.

قال[١٢٧]:

صفةُ الطلول بلاغةُ الفَدْمِ فاجعل صفاتك لابنة الكرم[١٢٨]

فعلام تذهل عن مشعشعةٍ وتهيمُ في طللٍ وفي رسمِ

تصفُ الطلولَ على السماع بها أفذو العيانِ كأنت في العلمِ

وإذا وصفتَ الشيء متبعاً لم تخلُ من زللٍ ومن وهمِ

يقرر الحسن في هذه المقطوعة أن الشاعر لا يمكن أن يكون نسخة من غيره. وأن الشعر لا يمكن أن يكتب بالسماع والتقليد بل هو لون من الخلق المتجدد لا يتم إلا بإدراك مجدد. فصفة الطلول بلاغة الفدم، والفدامة ضعف على الفهم وخلل في الإدراك ينتج عن سيطرة السماع والتقليد على المعاينة والمعاناة اللتين هما عنوان الحداثة ومنبعا الإلهام والإبداع اللذين يساعدان على افتراع القصيدة من معطيات عالم الشاعر المتفرد قرين علاقة متميزة بينه وبين معاناته مع عالمه وما تنطوي عليه الحياة من جدٍ وهزلٍ ونُبلٍ وسُخفٍ وأشجان وطرب.

إن نفي التقليد يعني نفي النقل، ونفي النقل لا يتم إلاّ بتأكيد العقل. وعندما نؤكد على العقل ونعترف لسيادته يبزغ الشك.

١٢٥- المصدر السابق، ص٤٧٣

١٢٦- المقصود بجرول: هو الحطيئة الشاعر. وكعب: هو الشاعر كعب بن زهير، وهؤلاء كانوا من مدرسة عبيد الشعر. والمقصود بزياد: هو النابغة الذبياني.

١٢٧- المصدر السابق: ص٥٧

١٢٨- الفدم: العيي عن الكلام في رخاوة وضعف على الفهم وخلل في الإدراك.

كتب النَظّام المعتزلي[١٢٩] يقول:

«..لم يكن يقين قط حتى صار فيه شك. ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك»[١٣٠]

وعندما نبدأ بتعلم الشك يُطرح الثبات المستمر للقديم على المناقشة ويعاد النظر في صحته باعتباره الأصل الذي يُقاس عليه كل إبداع. بل عندما يبدأ الشك يبدأ تأكيد العقل الذي يقود إلى الاختيار وبالتالي القبول أو الرفض. وهذا يعني القدرة على تجديد الحياة وتطويرها من خلال الفعل الذي يُحوّل الشعر إلى لون فريد من الغواية تُبشر بشعائر نوع مغاير من الاختلاف تنطوي على التمرد. تنطوي على بواده تحول من نظام من التصورات إلى نظام آخر لا تقتصر الغواية فيه على الجانب الأخلاقي بمعناه الضيق، وإنما تمتد لتشمل الشك في كل مستويات نظام التصورات القديم.

قال الحسن[١٣١]:

أحسنُ من منزلٍ بذي قارِ	منزلُ خمّارةٍ بالأنبارِ[١٣٢]
وشمُّ ريحانةٍ ونرجسةٍ	أحسنُ من أينقٍ بأكوارِ[١٣٣]
وعشرةٌ للقيان في دَعَةٍ	مع رشأٍ عاقدٍ لزنارِ
ألذُّ من مهمهٍ أكِدُّ به	ومن سراب أجوبُ غرّارِ[١٣٤]

١٢٩- النظّام: هو إبراهيم بن سيار النظّام، تلميذ أبي الهذيل العلاف ومعلم الجاحظ. متكلم معتزلي وشاعر، نشأ في البصرة وأقام في بغداد حيث توفي فيها سنة ٢٣١ للهجرة/٨٤٥ ميلادية. عارض آراء الفقهاء وانتقد الجبرية والمرجئة وإليه تُنسب النظامية من فرق المعتزلة. شيد النظّام للفكر المعتزلي نسقاً منظماً من الآراء الفلسفية في مختلف القضايا التي كانت مثار الجدل الفكري في عصره وترك أثراً في تاريخ الفكر الإسلامي. وقد وضعه مؤرخو الفرق الإسلامية القدماء في قمة مفكري المعتزلة، حيث أعلى في مباحثه سلطان العقل إعلاءً بعيداً.

١٣٠- كتاب الحيوان للجاحظ: طبعة الساسي، المجلد السادس، ص١١

١٣١- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص١٦٠

١٣٢- ذوقار: ماء لبكر قريب من الكوفة، وفيه حدثت أول موقعة انتصف العرب فيها من الفرس. الأنبار: واد بالعراق.

١٣٣- الأكوار: مفردها الكُور وهو الرحل.

١٣٤- المهمه: القفر. أكِدُّ به: أشقى وأتعب. السراب: ما يراه المسافر في الصحراء عند الظهيرة كأنه ماء وليس بماء. غرّار: خداع.

وَنَـقْـرُ عـودٍ إذا تُـرْجِـعـهُ بـنانُ رَوْدِ الشباب معطارِ[135]

أحسنُ عندي من أمّ ناجيةٍ وأمِّ عـمـرو، وأمِّ عـمّـارِ

●الحسن بصفته ممهداً لعصر الأنسنة العربية:

إن مجمل هذه الأسباب والتعارضات أدت إلى يرقعة الوجه الحقيقي لعلم من أعلام الشعر والأدب و «أحد رجال الثقافة المرموقين في عصره»[136]، وفنان مجدد مبدع، وشاعر كبير ملهم، ساحر الصورة عميق الحكمة، بارع النكتة نزعت روحه نحو التمرد والحرية.

قال[137]:

شربتُ الخمر في رمضان حتى رأيتُ البدر للشعرى شريكا

فقال أخي: الديوك مناديات فقلتُ له: وما يُدري الديوكا

شاعر تميزت طباعه بالصدق والصراحة وحسن المعاشرة، وتفردت شخصيته بالمعرفة والأدب والسحر والظُرف، وتفجرت موهبته الشعرية بكل ما هو واقعي وجديد ورائع. بلغة طيعة وأوزان سلسلة متنوعة، وهسهسة موسيقية ساحرة وصور مترفة رامزة.

قال[138]:

لأقطعنَّ نياطَ الهمِّ بالكاسِ فليس للهمِّ مثلُ الكاس من آسِ[139]

فسقِّنيها شُلافاً سلسلا حُجبتْ في دنِّها حِقباً في ركن ديماسِ[140]

شاعر لم يطرح تصوراته وتعارضاته، ولم يعقد موازناته إلا ليقدم مبررات مذهبه الجديد في طرح كافة مستويات نظام التصورات القديم وفي نبذ التقاليد الشعرية القديمة

---

١٣٥ - رود الشباب: لينه. معطار: طيبة الرائحة عطرة.

١٣٦- أبو نُواس بين التخطي والالتزام: الدكتور علي شلق، ص٤٧١

١٣٧- المصدر السابق: ص٤٩٧

١٣٨- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص١٥٩

١٣٩- نياط الهم: النياط شريان دموي يخرج من البطين الأيسر للقلب يدعى الأبهر. آس: طبيب ومداو

١٤٠- السلسل: البارد العذب وهو رمز باطني له دلالات محددة عند بعض الفرق الباطنية حول تحسب حروفه على حساب الجمّل.

وترجيح كفة المواطن الجهة القريبة من نفسه. وهذا ما جعل من النواسي مجدداً ثائراً، ورائداً متفرداً بين رواد كوكبة الحداثة عندما فتح أبواب القصيدة المحدثة للشك في التصورات الاجتماعية والمقولات الفكرية والدينية المتعارف عليها على نحو لم يُسبق إليه. مما جعل له مكانة متميزة في تاريخ الشعر العربي كمثقف سبق عصره، وشاعر توافرت في شخصه أشياء وأشياء جعلته الأكثر تعبيراً عن قمة وعي زمانه. وبشكل خاص موقفه من الحروب.

قال[١٤١]:

سقياً لحربٍ أنا أحبيها   في جنةٍ قد جرتْ سواقيها

سيوفنا وردُها ونرجسُها   وشتمنا اللفظُ من مُغنيها

ومنجنيقاتُنا المعازف والعيدان إذ سوّيت ملاويها

أحجارنا نخبةٌ بباطيةٍ   يديرها ما يخُلُّ ساقيها[١٤٢]

قائدنا قينةٌ مخنثةٌ   بياسمينٍ غضٍ نُحبيها

لقد عبر الحسن عن كرهه اللامحدود للحروب، لأنها في شريعته تبيحة لأنها شرٌ توقظ الجانب الوحشي في الإنسان، بل تحوله إلى وحش دموي مدمر للحضارة. لأنها تفقد الإنسان إنسانيته، وتصرفه عن تذوق متع الحياة التي ابتدعها الفكر والجهد البشري الخلاق، وأرسى أسسها خلال قرون وقرون من الجهد والإبداع.

وعندما يندد بالحرب، لا يندد على طريقة المصلحين الاجتماعيين والوعاظ بنصائحهم النظرية. بل على طريقته الخاصة. طريقة الفن النواسي الذي ينطلق من واقع الحياة الرائع المعيش، فيقارن ويفاضل، وعلى الواعين أن يختاروا. أن يقرروا أي النهجين يسود. تدمير الحضارة الإنسانية، أم تذوق متع الحياة بألوانها المختلفة من خلال صيانة إنسانية الإنسان، من خلال تمجيد الحب والسلام.

قال يصف مجلس خمر وغزل ويندد بالحرب[١٤٣]:

١٤١- الفكاهة والائتناس في مجون أبي نواس: ص٩١

١٤٢- النخبة: الشربة العظيمة من الخمر. الباطية: إناء من زجاج يُملأ بالشراب ويوضع بين الشاربين للاغتراف منه.

١٤٣- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص١٩٨

إذا عـبّـأ أبـو الـهـيـجـا	ء لـلـهـيـجـاء فـرسـانـا
وســـارت رايـــةُ الموتِ	أمـام الـشـيـخ إعـلانـا
جـعـلـنـا الـقـوس أيـديـنـا	ونُبـل الـقـوس شـوسـانـا
فـعـادت حـربـنـا أُنـسـاً	وعـدنـا نـحـن خـلّانـا
إذا مـا ضـربـوا الـطـبـل	ضـربـنـا نـحـن عـيـدانـا
وأنـشـأنـا كـراديـــساً	مـــن الخـيـريّ ألـوانـا
وأحـــجـارُ المجـانـيـــق	لـنـا تـفـاح لـبـنـانـا
فـهـذي الحربُ لا حـربٌ	تـغـمُّ الـنـاس عـدوانـا

وسخر بأسلوبه الماجن الظريف من الحرب في أكثر من قصيدة. معبراً عن كراهية شديدة ومريرة للهمجية والتخلف والعدوان. وعن عشق لا محدود للحرية. واضعاً قبالة الدم والهلاك، السلام والحب وأخوة أبناء الأرض.

قال(١٤٤)

وأشـهـى مـن مـعـانـقـةٍ لـقـرنٍ	معانقةُ الصديقةُ للصديقِ(١٤٥)
وأيـسـر مـن مـبـاكـرةِ الأعـادي	مباكرةُ الحبيبِ لدى الشروقِ
وأهـونُ خـطّـةٍ مـن رتـقِ فـتـقٍ	صبوحُ الكأس من بعد الغبوقِ(١٤٦)
وأشجى نغمةٍ من صوتِ طبلٍ	حـنـينُ الزيـرِ مـع وتـرِ نـطـوقِ
وأطـيـبُ مـن مـنـازلـةِ لحربٍ	مُـنـازلـةُ الـدنـان مـن الـرحـيـقِ
ومشيُ رصيفةٍ تسعى بكأسٍ	مضمخة السوالفِ بالخَلوقِ(١٤٧)
ألـذُّ مـن الـتـجـالـدِ بـالـعـوالـي	ومن مشي الفريق إلى الفريقِ(١٤٨)
فـهـــذا الـــرأيُ لا رأيٌّ سـواهُ	فشـدَّ يـديـك بـالـرأي الـوثـيـق

والحب عن أبي نُواس بوابة الحياة وسرها السرمدي، يُمارس من خلاله إنسانيته

١٤٤- الفكاهة والإئتناس في مجون أبي نُواس: ص٨٧ وما بعدها.

١٤٥- القرن: القرين.

١٤٦- الصّبوح: شرب الخمر صباحاً. الغبوق: شربها بالعشي.

١٤٧- الخَلوق: نوع من الطيب.

١٤٨- التجالد: المضاربة مع بعض. العوالي: الرماح.

الخيرة، وحريته الحقة، ورؤيته المتفائلة.

قال الحسن[١٤٩]:

فالحب فوقي سحابٌ	والحبُ تحتي سيولُ
وللصبابة حولي	مدينة وقبيلُ
وللحنين بقلبي	محلة ومقيلُ
وليس حولي إلاّ	رياحُ حُبٍ تجولُ

ولأجل أن نكون منصفين لشاعر عصر الرشيد عصر الشك والبحث عن اليقين، لأمير المستهترين، الحكيم الظريف أبي نُواس، وأقرب إلى الحقيقة والمعقول. يتحتم علينا أن ندرك طبيعة العصر الذي عاش فيه، والمجتمع الذي تعامل مع أفراده، والحياة الاجتماعية التي أفاءت عليه بظلّها حيناً، ولفحته بهجير أوضاعها العامة في أغلب الأحيان، وإلى أي مدى تأثر بهذه الأوضاع وأثر فيها. كقطب من أقطاب المعارضة الباطنية، له موقفه الخاص المعارض على مستوى المعتقد الروحي واليقيني والسياسي.

يتحتم علينا أن نتعمق في كل ما كتب وكتب عنه. وأن لا نؤخذ بظاهر النص فقط. يتحتم علينا أن نتريث في قراءة حياته، ونتمعن فهم أبعادها ونستجلي موقف معاصريه منه وموقفه منهم.

يتحتم علينا أن نتعرف على منبته الطبقي وما ترك من أثر على تطلعاته الاجتماعية وعلى كل ما يتعلق بظروف نشأته وبيئته، وأثر ذلك على تكوينه الشعري والفكري والثقافي والنفسي. وعلى موقفه من الموروث التراثي. وعلى مدى رؤيته للحياة والوجود الإنسانيين، وماذا يعنيان بالنسبة إليه. وعلى الآمال والتطلعات التي صبا إليها وتاق إلى تحقيق ما طمح وتمنى أن يكونه من خلالها.

يتحتم علينا أن نتحفظ على بعض ما قيل فيه، وما روي عنه من عبث ومجون واستهتار. وعلى أغلب ما نُسب إليه من أقاصيص ومداعبات، وما حُمل عليه من ممارسات وسلوك شاذ.

يتحتم علينا أن نعيد بحذر قراءة الحسن، قراءة شعره، قراءة ما قيل حوله وما كتب

١٤٩- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٣٨٦

عنه في القديم والحديث. وأن نتأكد من صحة ما نُسب إليه من أشعار وأقوال ربما لم يقلها؟!.. ومن مواقف وأحداث ربما لم يعشها؟!... ومن أفعال وممارسات ربما لم يرتكبها؟!...

ولأجل أن يتم لنا ذلك لا بُدَّ من رحلة نقوم بها معاً. نجوب خلالها رحاب الحكمة والظُرف والإلهام، ونرد مناهل فنه الأصيل وعبقريته المتفتحة، ونتجول في مساكب سحره وحدائق روحانيات إلهامه، وتجليات يقينياته، ونتنسم أريج أفواف فنه المعطار من كل صنف ولون.

لا بُدَّ أن نلج عالم شاعر دعا إلى اعتلاء الزمن ومقابلة الوجود والناس بالصدق، بالبشاشة، بالإنسانية، بالتعالي عن التستر والخداع والظلم، واعتناق أفق الحرية الأعلى من أوسع مشارفه. فكان صريحاً وصادقاً، وكان حراً وجريئاً وواقعياً في كل ما قال وفي كل ما فعل. لم يكذب، ولم يراءِ، لم يمارِ ولم يتصنّع. ولو أدى به ذلك إلى ما قد يُساء فهمه من قبل الآخرين، أو ما قد يُسيء إلى سمعته. لأن ظاهرة الصدق الفني تبوأت لديه مركز الصدارة، وغدت جزءاً من شخصيته. وبمقدار ما تكون هذه الظاهرة غالبة ومعبرة عن عمق الصلة بين سلوك الفنان وتجربته الفنية بمقدار ما يكون فنه إلى الحقيقة والواقع أقرب، بمقدار ما يكون فنه أدق تعبيراً وأصدق سجية وأبعد عن الافتعال والسطحية.

قال[١٥٠]:

إذا مضى من رمضان النّصفُ	تشوّق القصف لنا والعزفُ
وأُصلحَ النايُ ورُمَّ الدُّفُّ	واختلفت بين الزناة الصُّحُفُ[١٥١]
لوعد يومٍ ليس فيه خُلفُ	حتى إذا ما اجتمعوا واصطفوا
تكشفوا واعتنقوا والتفّوا	فبعضهمْ أرضٌ وبعضٌ سقفُ

من يقرأُ هذه الأبيات يشعر أن الحسن لم يقصد منها تصوير سلوكه وسلوك ندامائه وأصحابه. بل أنه يحاول من خلال شخصه الذي لا ينزهه ابتهاراً عن مثل هذا السلوك

١٥٠- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٢٠٧

١٥١- رُمّ: أُصلح. اختلفت: سارت وترددت. الصحف: الرسائل.

– ربما لضرورات تتعلق بسلامته وأمن حياته – إلى تعرية وفضح وإدانة شرائح اجتماعية واسعة ومتعددة تسلك مثل هذا السلوك وتنتشر من قمة الهرم الاجتماعي إلى قاعدته، من قصور الخلفاء والأمراء والقواد والأعيان إلى أماكن التبطل والتنزه والقصف والشراب في الأديرة والحانات، وخمارات الشطار والعيارين(١٥٢) والكادحين.

ومهما قيل في أبي نواس وفي شعره، ومهما كان الرأي متجنياً حول شخصيته وفنه وحياته وممارساته أو قريباً من الصواب والإنصاف النسبي، فإن الحسن يبقى كما كان دائماً شاعراً كبيراً، شاعراً خطيراً. يبقى رائداً متقدماً على الذين تصدروا كوكبة رواد الجديد في عصره. فكان الترجمان الصادق الذي ترجم ما يدور في خواطر طبقات

---

١٥٢ – الشُطار والعيارون: الشاطر لغوياً هو المتصف بالدهاء والحيلة والذكاء. والعيار لغوياً هو الكثير التجول والطواف بلا عمل. ويشير هذان المفهومان بشكل عام إلى فئات اجتماعية معدمة من الفقراء والجياع والعاطلين عن العمل، ممن طحنهم الفقر وأعجزتهم البطالة بسبب التمايز الطبقي والتفاوت الاجتماعي. أو كما يقول المقريزي: «بسبب سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن مصالح العباد وانهماكهم في الملذات».

ولأنهم يحيرون من الفئات المنبوذة طبقياً واجتماعياً من قبل الفئات الاجتماعية الأعلى، فهم يعيشون على هامش المجتمع الذي يقيهم في حالة صراع معه، على الرغم من عدم تكافؤ الصراع وشراسته. لقد رفض الشطار والعيارون واقعهم المرير وتمردوا على مجتمعهم. وحاولوا القيام بالثورة عليه لتحقيق العدل ورفع الظلم وإقامة الشرع. فأعلنوا تمردهم لينالوا بأسلوب غير شرعي ما يتصورون أنه حقٌ شرعي لهم، من خلال استعادة مال الله من الصدقات والزكاة من الفجرة والغُدُر والتجار وإعادة توزيعها على مستحقيها الشرعيين كما قال أحد زعمائهم عثمان الخياط.

وأسرق مال اللّه من كل فاجر وذي بطنة للطيبات أكول

ليس محض صدفة أن يرتقي بعض الشطار في تراثنا الشعبي مرتبة البطولة شبه الملحمية، وأن يحفروا أسماءهم ليس في ذاكرة التاريخ وحسب، بل وفي ذاكرة العامة أيضاً، مثل ابن حمدي بطل بغداد الشريف الظريف وفتاها الشهير. وعلي الزيبق صاحب أكبر سيرة شعبية في قصص الشطار وغيرهم...

ولأنهم عملوا على إمكانية تحقيق لقاء الحلم مع الواقع المأسوي على طريقتهم الخاصة، نالوا إعجاب العامة وعطفهم، وأشاد العامة بأفعالهم وتستروا عليهم. حيث قيل كما ذكر الراغب الأصبهاني في محاضرات الأدباء: «اللص أحسن حالاً من الحاكم المرتشي والقاضي الذي يأكل أموال اليتامى».

وأفرد الجاحظ والكثيرون غيره كتباً قائمة بذاتها. مثل: «كتاب اللصوص أو دستور الشطار والعيارين» في هؤلاء اللصوص من الشطار والعيارين وأصنافهم وطوائفهم وحيلهم وأساليبهم وآدابهم الاجتماعية وتقاليدهم المهنية وتراثهم الفني من أشعار وحكايات ونوادر وأخبار وأقوال مأثورة. فيما عُرف في الدراسات الأدبية والفولكلورية باسم أدب اللصوص أو حكايات الشُطّار باعتباره وسيلة من وسائل التعبير الفني الذي تمحور حول رفض الواقع الاجتماعي والسياسي.

الناس المختلفة، ولسانها المعبر ومرآتها الصافية. وكان المعبر عما يضطرب في نفوسها من شهوات[١٥٣] وعواطف، فأحبه الناس وكلفوا به على الرغم من كل ما قيل عن سوء سلوكه وتهتكه.

وسيبقى الحسن أيضاً واحداً من أخطر مثقفي عصره، على المفاهيم القيمية السائدة والعقلية الجبرية المنغلقة والمقلدة في بعض ما كتب من شعر، وفي بعض ما مارس من فعل، وفي كل ما نُمي عنه من لمسق لفظي وتقية متهكمة مراوغة وموقف معتقدي معارض، حتى تخطى عتبات عصره وأصبح مشكاةً لكل عصر.

لذلك يتوجب علينا عندما نقرأ شعره أو نستقرئ حياته وفنه أن لا يكون رائدنا إصدار حكم عليه وحسب كما قال الدكتور طه حسين عنه بأنه: «شاعر خطير يمكن أن يُقرأ ليحكم عليه لا لأن يُتأثر به أو يُقلد»[١٥٤]. بهدف تبرئته أو بهدف إدانته. فالفن الأصيل لا يحاكم، والفن الخالد المجدد المبدع لا يدان. ولا لنحكم على عصره الذي كان «عصر شك ومجون وكان عصر رياء ونفاق»[١٥٥].

بل لنُقيِّم عصره الذي كان عصر شك في كل شيء وعبث بكل شيء بحثاً عن اليقين في إهاب المجون. وكما قلنا: متى يبزغ الشك (الفكر النقدي) يتوقف النقل ويتجلى العقل، وتتفاعل عمليات الحداثة في الفكر، فيرتقي الوعي ويتعزز اليقين. ويكفي الحسن فضيلة ومكانة أنه صور عصره أدق تصوير وجسّده ومثله أروع تمثيل في واقعه وبعض استشرافاته، فكان الابن البار لعصر الشك، عصر الفكر النقدي والبحث عن اليقين.

وكان الأكثر تعبيراً بعمق وجرأة عن سمات هذا العصر وظواهره الاجتماعية والفكرية والفنية. عن عملية المخاض الكبرى التي عصفت به ومهدت لبزوغ عصر الأنسنة العربية الذي تميز بمواقف فكرية وإبداعية ذات حداثة لا تناقش ولا تدحض في القرنين الثالث والرابع الهجريين، التاسع والعاشر الميلاديين.

كما كان عليه بالمقابل أن يتحمل مع كوكبة الشعراء والكتاب المحدثين والفكر

١٥٣- الشهوات: هي رغبات واعية ذات منشأ معرفي واجتماعي وتخص الإنسان فقط. وكلما زادت معرفة الإنسان وارتقت وسائل معيشته وتنوعت، تشعبت شهواته.

١٥٤- المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين. المجلد الثاني، ص٤٤٩

١٥٥- المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، المجلد الثاني. ص٣٥٦

المعتزلي بشكل خاص تبعة المخالفة للماضي، وإساءة الفهم وغموض المقصد وتشويه السمعة. كان عليه أن يتحمل رهق عملية المخاض وما حملته من معانات ولذّات يشوبها الألم.

وسأحاول في قراءاتي التالية عن هذا الشاعر أن أؤكد - قدر استطاعتي - الأساس الفكري والاجتماعي والثقافي الخصب الذي استند إليه الحسن وانطلق منه، على الرغم من تشابه المراجع على تعددها، ومن تعامل نهجها في أغلب الأحيان. علّني أستطيع أن أنير بعض الجوانب من حياته التي كثر الأخذ والرد حولها، وأزيل بعض اللبس عن شخصيته المقنعة المتعددة الجوانب، الغنية السمات وضمن إطارها المجتمعي والتاريخي.

2 حياة الحسن

● مولد الحسن وطفولته:

وصف أبو عبد الله الجمّاز[1] الحسن بن هانئ قال:

«كان أظرفهم منطقاً، وأغزرهم أدباً وأقدرهم على الكلام، وأسرعهم جواباً، وأكثرهم حياءً. وكان أبيض اللون جميل الوجه مليح النغمة والإشارة مُلتفّ الأعضاء بين الطويل والقصير، مسنون الوجه قائم الأنف حسن العينين والمضحك، حلو الصورة لطيف الكفّ والأطراف. وكان فصيح اللسان جيد البيان عذب الألفاظ، حلو الشمائل كثير النوادر، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب، راوية للأشعار، راوية للأخبار...»[2]

ولد الحسن بن هانئ الحكمي عام خمسة وأربعين ومائة للهجرة. وذكر الرواة أكثر من تاريخ لميلاده. وقد لا نبتعد عن الصواب إذا شئنا ونزلنا بهذا التاريخ إلى عام ستة وثلاثين ومائة، أو صعدنا به قليلاً إلى عام تسعة وأربعين ومائة. وفتح عينيه على الدنيا العريضة في الأهواز إحدى قرى خوزستان، وقيل في مدينة البصرة[3]. ولئن اختلف

١- أبو عبد الله الجماز: هو محمد بن عمرو... بن عطاء بن ياسر. ويقال إن أصلهم من حمير وأصابهم سباء في خلافة أبي بكر وهم مواليه. وكان الجمّاز شاعراً ظريفاً ومن أحلى الناس حكاية وأكثرهم نادرة. وهو ابن أخت أبي العتاهية الشاعر المعروف بزهده وبخله. ومما قاله في حرص خاله على الدينار وبخله بالمال مع تزهيده الآخرين بذلك، قوله:

ما أقبح التزهيد من واعظ يُزهّدُ الناسَ ولا يزهدُ

٢- زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم الحصري القيرواني، تحقيق زكي مبارك، الجزء الأول، ص١٧٣

٣- البصرة: مدينة في العراق تقع على الضفة اليمنى من شط العرب. خططت حوالي سنة ستة عشرة للهجرة معسكراً للجيوش المقاتلة في الشرق. أقام على بنائها عتبة بن غزوان في زمن عمر بن الخطاب. ويقال إن العرب اعتنوا في تخطيطها، فجعلوا شارعها الأعظم ستين ذراعاً، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع، وجعلوا وسط كل خط ميداناً فسيحاً لمرابط خيولهم وقبور موتاهم. وقد اشتهرت بالنخيل الكثير المتعدد الأنواع، وبالتجارة الواسعة بين الهند والصين والمغرب والحبشة. كما اشتهرت بمكانتها العلمية فكان لها مذهبٌ في النحو فقيل المدرسة البصرية. وكان لها رأيٌ في الاعتزال فنشأت فيها حلقة الحسن البصري...

الرواة على المكان والسنة التي ولد فيها، فإن الأمر المؤكد الذي لا خلاف حوله، أن قدمي الحسن الصغير درجتا على أرض الله الواسعة في مدينة البصرة وله من العمر عامان أو ستة أعوام. وفي هذه المدينة أمضى سنيّ الطفولة والشباب.

كانت مدينة البصرة في ذلك العهد قبلة القصاد من جميع البلاد وملتقى رواد العلم من كل حاضرة وكل نحلة. ومألفاً لطلاب الشراب والتبطل والتنزه والملذّات، ومركزاً تتجمع فيه فئات واسعة من الحرفيين والمستخدمين في الصناعات الحرفية، وزمر من الذين دفعتهم ظروفهم الاجتماعية إلى التشرد والبطالة والانحراف. وجموع غفيرة من الفقراء الوافدين من عدة أمصار طلباً للعمل أو هرباً من اضطهاد مالكي الأرض. ومن العبيد وشغيلة الأرض المعدمين الذين كانوا يكدحون طوال ساعات النهار ويقومون بمعظم الأعمال اليدوية في المزارع والبيوت ولا يكسب الواحد منهم «ما يكفي لابتياع خرقة تستر حقويه أو إقامة كوخ يعيش فيه، أو الحصول على طعام يكاد لا يقيم أوده»[٤]. في حين كانت تنمو أملاك المئات من كبار الملاّك الزراعيين والتجار والأغنياء على حساب تلك الفئات المستضعفة.

وهذا ما جعل من مدينة البصرة حاضرة تتجمع فيها محاسن الحضارة ومساوئ ومفرزات طبقة إقطاعية حربية مستبدة، تسيطر على السلطة السياسية في بغداد وتتحكم باسم الدين في العباد والبلاد. ومسرحاً تتحرك على أرضه قوى المعارضة المناوئة لسلطة الدولة من مختلف القوى والأحزاب السياسية والتيارات الفكرية، مما جعل منها مركزاً سياسياً وثقافياً واجتماعياً كثير التناقض.

فبينما كانت ترتفع فيها منائر العلم والمعرفة، كانت تزدهر حولها مغاني ومرابع طالبي اللّهو والغواية وتجار الملذات والمتع المتعددة الأنواع. فيستمتع بملذات هذه المرائع وقطوفها الدانية من أراد، وينهل من علوم ومعارف منائرها الذي يريد وبالطريقة التي يرغب ويختار.

وكان من عادة العرب أن يتخذ كل فرد منهم إسماً وكنية ولقباً، وربما تساهل أحدهم في اللقب، أما في الكنية فلا. ويقال إن الحسن كان يُكنى بأبي عليّ وأنه اختار لنفسه كنية فتكنى بأبي نواس. قال: «أنا كنيت نفسي بذلك لأني من قوم لا يشتهر

٤- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني، المجلد الرابع، ص١١٣

فيهم إلا من كان اسمه فرداً، وكانت كنيته بينعة[5]. فقد كنيت نفسي بأبي نُواس»[6]

وعندما سُئل عن هذه الكنية وماذا أراد منها؟!.. وهل هي نُواس أو نَوَّاس؟!. قال: «نُواس، وجدن، وكلال، وكلاع أسماء جبال الملوك حمير»[7]

كتب ابن منظور[8] يقول:

«.. كانت كنيته الأصلية أبا عليّ، وإنما هو كان يشتهي أن يلقب بأبي نُواس لشهرته وأنه من أسماء ملوك اليمن. ومن أسمائهم أيضاً ذو نُواس»[9]

وقيل أيضاً أن سبب تكنيته بأبي نُواس: «أن خلف الأحمر[10] استدعاه يوماً وكان يودّه وقال له: أنت من اليمن فتكَنَّ بأسماء الذوين. وذكر له بعض الكنى مثل ذي جدن، وذي يزن، وذي كلاع، وذي نُواس فاختار الأخيرة وكُنِّي منذ ذلك الحين بأبي نُواس وغلبت على كنيته الأولى أبي عليّ، وقيل كُنيَ بأبي نُواس لأنه كانت له ضفيرتان[11]، كانتا تنوسان على عاتقه وهو صغير يلعب مع الصبيان أو ضفيرة واحدة»[12].

٥- بينعة: جميلة حسنة.

٦- مختار الأغاني: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري، المجلد الرابع، ص٣

٧- المصدر السابق، ص٢

٨- ابن منظور: هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن مكرم الأنصاري المعروف بابن منظور المصري، لغوي مؤرخ وأديب ولد بمصر سنة ٦٣٠ للهجرة/١٢٣٢ ميلادية وتوفي فيها سنة ٧١١ للهجرة/١٣١١ ميلادية. تولى القضاء في طرابلس وكفَّ بصره في آخر حياته. له «لسان العرب» وهو معجم لغوي. ورسائل وشعر. اختصر كثيراً من الكتب المطولة في الأدب والتاريخ كالأغاني، والذخيرة وتاريخ دمشق..

٩- المصدر السابق: ص٣

١٠- خلف الأحمر: أو خلف بن حيان: هو الإمام اللغوي أبو محرز الشهير بالأحمر، راوية وعالم بالأدب والشعر، من أهل البصرة، أصله من فرغانة العجم. من رواة الشعر ونقاده وأحد الشعراء المحسنين. بلغ في حذقه واقتداره على الشعر أن يُشبه شعره بشعر القدامى فينحلهم قصائداً من نظمه. قيل إنه نظم لامية العرب ونسبها إلى الشنفري. وقيل إنه معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة. توفي سنة ١٨٠ للهجرة/٧٩٦ ميلادية.

١١- أبو نواس الحسن بن هاني: خليل مردم، ص١٢

١٢- أخبار أبي نُواس: ابن منظور المصري شرح وضبط محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٣

وهانئ الحكمي هو والد الحسن. وقيل إنه من أصل يمني ومن قبيلة الحكم بن سعد العشيرة. وأن جداً له كان من رجال الأمير الجراح فقال الناس إنه مولى لهذا الرجل. فهل كان هذا الولاء إذا صدقت الرواية من النوع الذي يتقرب فيه العرب بعضهم من بعض بالجوار أو الحلف أو الإحسان..؟. ربما كان الأمر كذلك.

وقيل إن اسمه هنيٌّ ليس هانئ وهو من الموالي وليس عربياً. وإنه عمل حائكاً وراعياً للغنم وإن جداً له كان يعمل كاتباً لمسعود المادرائي على ديوان الخراج. غير أن الأمر المرجح عند جامعي أخبار أبي نواس ومدوني سيرته هو أن والده هني كان من سكان دمشق وأنه عمل جندياً في جيش مروان بن الحكم الملقب بمروان الحمار آخر خلفاء بني أمية. وذهب إلى الأهواز للرباط فيها. وهناك تزوج من امرأة فارسية اسمها جُلَّبان (وردة في بستان أو على الأذن)، وأنجب منها عدداً من الأولاد من بينهم الحسن. علماً أن الحسن أشار في شعره إلى أنه كان وحيد أبويه عندما قال موجهاً الخطاب إلى جنان. قال[١٣]:

لا تُفجعي أمي بواحدها　　　لن تُخلفي مثلي على أمي

وأن ما ذكر عن وجود أخوين وأخت له، فربما كان أخوة له من طرف الأم فقط - إذا كان الخبر صحيحاً - أو انهم ماتوا قبله في حياة والدته.

ومن الأمور التي اختلف الرواة وكتاب سيرته عليها عروبة الحسن وبالتالي عروبة أبيه هنيء. فهل كان هانئ عربياً أم من أصل زنجي؟!.

لقد حرصت الدكتورة أحلام الزعيم في مؤلفها «أبو نُواس بين العبث والاغتراب والتمرد» على تأكيد عروبة هانئ والد أبي نواس.

كتبت الدكتورة أحلام الزعيم تقول[١٤]:

«.. وإذا ما علمنا بأن دولة بني أمية كانت عربية أعرابية كما وصفها الجاحظ، وكان الجيش إبّان الدولة الأموية عربياً غير مخترق من الأعاجم كما كان الحال في الدولة العباسية فإن من البدهي أن يكون أبوه «هانئ» عربياً أصلاً وصليبةً[١٥]»

١٣- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٣٠٢

١٤- أبو نُواس بين العبث والاغتراب والتمرد: الدكتورة أحلام الزعيم، ص٢٥

١٥- صليبةً: الصليبة: خالص النسب.

مما لا شك فيه أن الدولة الأموية اعتمدت على العصبية العربية في تثبيت سلطتها، فكانت عربية أعرابية في سماتها وتوجهاتها التي قامت على الاستعلاء القومي والأنفة تجاه الموالي الذين كانوا كالغرباء لا شأن لهم ولا دخل في أساليب الحكم. واعتمدت على العنصر العربي في تكوين جيش الدولة للدفاع عن أول إمبراطورية عربية تدين بالإسلام. غير أن ذلك لا يعني أبداً أن الجيش الأموي لم يُخترق من قبل الموالي، وإلا كيف يمكن أن نفسر سطوع نجم طارق بن زياد المولى المغربي لموسى بن نصير والقائد البربري العسكري في الجيش الأموي بالمغرب.

فهل وجود مثل هذا القائد البربري يدعم مقولة أن الجيش الأموي لم يخترق من غير العرب؟، وبالتالي هل يجوز اعتماداً على تلك المقولة أن نؤكد عروبة والد الحسن الصريحة؟!.

على كل حال الخلاف على عروبة هني الصريحة واقع شاخص لم يحسم. البعض ألحقه بالعرب الخُلّص، واعتبروه يمانياً عربياً صريحاً وساقوا نسبه إلى قحطان. والبعض الآخر زعموا أن جده عبد الأول بن الصباح كان مولى للجراح بن عبد الله الحكمي والي خراسان. بينما يرجح آخرون أن هني لامن سلالة زنجية تنتمي إلى مولى من اليمن. وكان أسود شديد السواد قال فيه أبان اللاحقي[16]:

هـــانـــئ الجون أبـــوه زاده الـــلّـــه هـــوانـــا[17]

من كل ما تقدم يبدو أن الأمر الثابت والواضح هو: أن الحسن فارسيّ النسب من

١٦- أبان اللاحقي: هو أبان بن عبد الحميد من موالي البصرة وبها منشؤه ومرباه شاعر أديب ظريف من شعراء العصر العباسي الأول الموهوبين. اتصل بالبرامكة وكان شاعرهم المقدم نقل لهم كتاب كليلة ودمنة بالشعر المزدوج وبلغ عدد أبياته أربعة عشر ألفاً. كان من الشعراء المادحين لآل البيت ومن المدافعين عن العباسيين وأحقيتهم في الحكم. قال:

نشدتُ بحقِّ الله من كان مسلماً أعمّ بما قد قلتُهُ العجم والعربْ
أعـم رسـول الـلّـه أقـرب زلـفـةً لديه أم ابن العم في رتبة النسبْ
وأيـهـمـا أولـى بـه وبـعـهـده ومن ذا له حقّ التراث بما وجبْ؟
فـأبـنـاء عـبـاس هـم يـرثـونـه كما العمُّ لابن العم في الإرث قد حجبْ

ويقال لم يكد يفرغ من إنشاد هذه القصيدة بين يدي الرشيد حتى أمر له بعشرين ألف درهم وكانت السبب في اتصال مدحه للرشيد. عن العصر العباسي الأول: الدكتور شوقي ضيف، ص٣٣٢

١٧- أبو نُواس الحسن بن هانئ دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي: عباس محمود العقاد، ص٩٧

جهة الأم على الأقل، و «أننا لا نعرف في عمود نسبه أحداً أبعد من والده ووالدته»[١٨]. وأميل إلى الرأي الذي يقول: «الصحيح أنه كان مولى فارسياً من موالي الجراح بن عبد الله الحكمي والي خراسان لعهد عمر بن عبد العزيز»[١٩].

وجُلَّبان أم الحسن امرأة خوزية من الأهواز فارسية الأصل لا خلاف على عجمتها وإن اختلفوا على اسمها. فأبو الفرج يذكر أن اسمها «جُلَّنار»[٢٠] ومعناه زهر الرمان. وابن منظور ذكر اسمها «شحمة»[٢١]. واختلف الرواة على صنعتها فمنهم من قال: إنها تعمل في تصنيع الخيزران، وبعضهم قال: «تعمل في غسيل الصوف ونسج الجوارب والأخراج. وهذا كله يُشير إلى أنها كانت امرأة عاملة صناع اليد.

وعرف عن جُلَّبان أنها كانت جميلة رائعة الحسن، وقعت في نفس هانئ موقعاً خاصاً عندما رآها على شط نهر من أنهار قرى الأهواز وهي تغسل الصوف فأعجب بها وأحبها وتزوجها. بعد وفاة زوجها هانئ حامت حولها الشبهات فقيل إنها جعلت من بيتها وكراً للملذات، وملتقى لرواد المتعة وطلاب اللذة. يجتمعون فيشربون ويقضون مآربهم وشهواتهم بموافقتها وتحت سمعها وبصرها، وربما تحت سمع وبصر ابنها الناشئ الحسن الصغير؟!. وتذكر بعض الروايات أنها أحبت شخصاً يدعى «العباس» وتزوجته قطعاً للألسنة. وأنها أهملت شأن ابنها فعاش محروماً من الرعاية الرشيدة والتوجيه السليم.

قد يكون ما نُسب إلى أم الحسن من استهتار وطيش له علاقة بحملة الإشاعات المغرضة التي شنّها زوجها ضده وضد أسرته لفيف من الشعراء المعادين له بهدف التعريض به والغضّ من شأنه ومكانته والنيل من سمعته. لقد كان لهؤلاء الشعراء موقفٌ ملتزمٌ وصريحٌ في تأييد الحكم العباسي والدفاع عنه. موقفٌ يتعارض وموقف أبي نواس الثابت في الدفاع عن آل البيت والمؤيد لهم. وكان أول من عمل على نشر هذه الإشاعات أبان اللاحقي شاعر البرامكة.

١٨- أبو نواس شاعر هرون الرشيد ومحمد الأمين: الدكتور عمر فروخ، ص٩

١٩- العصر العباسي الأول: الدكتور شوقي ضيف، ص٢٢١

٢٠- كتاب الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، المجلد الثاني، ص٧٣

٢١- أخبار أبي نواس: ابن منظور المصري، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٥

قال أبان يهجو الحسن ويغمز في نسبه[٢٢]:

أبــو نــواس بــن هــانــي وأمـــه جـــل بـــمـــانِ
والــنــاس أفــطــن شــيء إلــى دقــيــق المعــانــي
إن زدت حــرفــاً عــلــى ذا يــا صــاح فــاقــطــع لــســانــي

وفي قصيدة ثانية يغمز أبان بشرف أم الحسن وأبيه من خلال الشخص المدعو «عباس» الذي تزوجته أمه بعد وفاة هانئ.

قال أبان[٢٣]:

هـــانـــئ الجون أبـــوه زاده الـــلـــه هـــوانـــا
ســائــل الــعــبّــاس واســمــع فــيــه مــن أمــك شــانــا

وغمزت عِنان[٢٤] بنسبه أيضاً عندما دست إلى بعض سفهاء الكرخ وعدد من الشطار والعيارين بعض الأبيات وأمرتهم إذا مرّ الحسن بهم أن يصيحوا ويعطعطوا[٢٥] عليه بها.

قالت عِنان[٢٦]:

أبــو نُــواس الــيــمــانــي وأمُّـــه جُـــلّ بـــانِ[٢٧]
والــثــفــل أفــطــن شــيء إلــى حــروف المعــانــي[٢٨]

٢٢- مختار الأغاني: جمال الدين ابن منظور المصري، المجلد الرابع، ص١٩

٢٣- أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله: ابن منظور المصري؛ تحقيق عمر أبو النصر، ص٣٦

٢٤- عِنان - بكسر العين: ابنة عبد الله: جارية صفراء مولدة مغناج. ولدت في اليمامة وبها نشأت. اشتراها النطافي فرباها وعلمها وثقفها وأدبها. اشتهرت عنان بقول الشعر فكانت من أحسن شعراء دهرها بديهة، وأسبقهم بادرة وأعذبهم حديثاً في رقة وجمال. كتب عنها جلال الدين السيوطي يقول: «لم يكن فيها شيء يعاب فطلبوا لها عيباً فلا تصيبها العين فأرقموا بخنصر رجلها في ظفره بياضاً». المستظرف في أخبار الجواري للسيوطي، ص٥٤

٢٥- يعطعطوا: العطعطة حكاية صوت المجّان إذا قالوا: عيط عيط، وذلك إذا غلبوا غيرهم.

٢٦- أخبار أبي نُواس: لابن منظور المصري تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٣٢

٢٧- جُلّ بان: يقال إنه اسم لامرأة موسرة في البصرة كانت تجمع أولاد الزنا والمشردين وتربيهم.

٢٨- الثفل: تقصد به أبا نُواس: وهو ابن الحصان والأتان، والمقصود ولد الزانية لفساد نسبه.

قيل إن الأبيات التي نظمها أبان، والأبيات التي دستها عنان في الطعن بنسب أبي نُواس والغمز بسلوك أمه قد شاعت بين الناس «وسارت في الدنيا»[٢٩] كما قال ابن المعتز، ورددها الشطار والعيارون بحيث لم يبقَ أحدٌ إلاّ وسمع بها.

فإذا كان قول ابن المعتز صحيحاً؟!، ويبدو أن الأمر كذلك. فهذا يعني أن طرفاً ما - سياسياً وفكرياً - كان يقف وراء سيرورة أبيات الهجاء بحق الحسن والغمز بنسبه. وأن هذا الطرف يهمه أمر انتشارها بهذا الشكل الواسع للتشهير به والنيل منه.

هذا الواقع يُفسر لنا أسباب تماجن الحسن وعبثه في دعاويه بشأن نسبه «وكان أبو نواس في دعاويه يتماجن ويعبث ويخفي نسبه»[٣٠]. لأنه أدرك أهداف هذه الحملة المنظمة ضده وفهم أبعادها.

ويفسر لنا أيضاً لماذا كان يتظاهر بأنه لا يهتم لهذا الأمر كثيراً، بينما الواقع يؤكد عكس ذلك، يؤكد أن الحسن كان يعمد إلى إخفاء اسم أمه وكل ما يمت إلى أسرته لئلا يهجى، حيث كان يخشى هذا الهجاء ولا يرتاح إلى نتائجه.

أعتقد أن غاية ما يمكن أن يُقال عن جُلّبان والدة الحسن، أنها كانت امرأة عاملة تعمل إلى جانب زوجها هانئ بعد أن أضاع رزقه في الجيش الأموي، فسكنا مدينة البصرة وعملا على تحسين احوالهما الاجتماعية والسكنية.

كتب محمد بهجة الأثري عن والديْ الحسن يقول[٣١]:

«... فسكن في بيت من قصب في درب من سككك «المربد»، وأقبل في وطنه الجديد على الحياكة. يصنع الجوارب والأخراج. وتغشى جُلّبان لبيعها البيوت. فما لبثت أزمة الأسرة الفقيرة العاملة أن انفرجت فانتقلت إلى دار في المدينة من الأجُرّ والجِصّ».

استمرت جُلّبان - بعد وفاة زوجها - تعمل لتكسب قوتها وقوت ابنها الذي دفعت به إلى العمل «بعد أن تعدى دور الطفولة فوضعته أجيراً عند عطار في أسواق البصرة»[٣٢] ليكسب ويساعدها.

٢٩- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص٢٤١

٣٠- أخبار أبي نواس: ابن منظور المصري، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٤٧

٣١- مقدمة أرجوزة أبي نواس: تفسير ابن جني، تحقيق محمد بهجة الأثري، ص٥٦

٣٢- أبو نُواس: عبد الحليم عباس، سلسلة اقرأ العدد رقم: ٢١٠ ص٢٢

قد تكون جُلَّبان أماً مهملة، أهملت رعاية ابنها بعد أن تزوجت من العباس وتفرغت له. شأنها في ذلك شأن غالبية النساء اللواتي يتزوجن زوجاً ثانياً. علماً أن العيش في بيت زوج الأم قد لا يوفر في غالبية الحالات لأطفال الأم من زوجها الأول المناخ الطبيعي المريح للنمو النفسي والتوجيه التربوي السليم.

أجل لقد أرسلت جُلَّبان ابنها إلى أسواق البصرة يعمل بَرّاءً يبري أعواد البخور. فعمل عند العطار بدر الجهني الذي قال عنه أخوه أبو سعيد الجهني أنه: «كان صاحب غلمان ثم أقلع وتاب وتزوج وكان أبو نُواس من جملة غلمانه»[٣٣]

ونذكر بعض الروايات أن الحسن اليافع بدأ لا يأوي إلى البيت إلاّ لماماً. وأنه «كان جميلاً وسوق الجمال رائجة وخصوصاً في ذلك العصر»[٣٤]. وقيل أيضاً إنه كان حسن الوجه «رقيق اللون أبيض الجسم ناعمه، منسدل الذوائب معتدل القامة، حسن العينين والسن، فصيحاً، منطقياً، مليحاً ألثغ بالراء يجعلها غيناً وفيه حلاوة شمائل»[٣٥]. وكان نحيفاً في حلقه بحة لا تفارقه مع مراح هازئٍ مستهتر وبديهة حاضرة وثابة و «أنوثة كامنة في طبعه... أورثه إياها اليتم ونشأته في حجر امه»[٣٦]. وربما اكتسبها لدى اختلاطه بالأحداث والمراهقين والمتهتكين والمستهترين من ناشئة الأدب والمتعلمين الذين كانوا يترددون معه على حلقات الدرس في المسجد الجامع. وقد يكونون أسلموا إلى شيطانه أنفسهم وأسلم إلى شيطانهم نفسه، وتبادلوا المتعة والنشوة بروح جائعة وقلوب ظامئة ونفوس منحرفة؟!.

ونرى أن ما وصف به الحسن من أنوثة أو تخنث أو ما قيل عن انحرافه وشذوذه بشكل مرضي مضخم لم يكن إلاّ وهماً خلقته مخيلة أولئك الذين هدفوا انطلاقاً من العامل الباتولوجي[٣٧]، والعامل النفساني الخاص المستند إلى مداخن «العقل الباطن» و

٣٣- أبو نُواس بين التخطي والالتزام: الدكتور علي شلق، ص٣٨

٣٤- الرؤوس: هارون عبود، ص١٢٢

٣٥- شعراء المجون: صالح جودت، سلسلة كتاب الهلال، العدد رقم: ٢٦٤، ص٥٨

٣٦- الرؤوس: مصدر سابق ص١٢٣

٣٧- الباتولوجي: المرضي، الباتولوجيا: علم الأمراض أسبابها وأعراضها.

«عقدة الأم»[٣٨] و«النرجسية»[٣٩] إلى تشويه ما امتازت به شخصية الحسن من نعومة ولطف وظُرف ودماثة خلق وحلاوة معشر، كما جاء في وصف الجمّاز له. وأكدوا أن انحرافه بدأ منذ طفولته المبكرة ونعومة أظفاره، ثم نما وأربى واستشرى في شبابه واستمر طيلة سنوات حياته.

إن مرحلة الطفولة واليفاع في حياة كل فرد مهما كانت سمات هذه المرحلة، ومهما كان الرأي فيها، هي وليدة ظروف تكونت بشكل خارج عن إرادة الفرد ورغباته. ونتيجة لتضافر وتفاعل عوامل اجتماعية - بيئية وأسرية - متشابكة ومتعددة أحاطت بتلك الظروف وأثرت وتأثرت بها. لذلك ليس من الإنصاف أن يُسأل الفرد عنها ويحاسب على أساسها، كما لا يجوز أن يتحمل جريرة مثالبها. لأن الفرد في تلك المرحلة غير قادر على اختيار تلك الظروف أو التأثير فيها وتغييرها سلباً أو إيجاباً، حاله معها كحاله مع اسمه الذي لم يختره لنفسه، سواءاً أأعجب به فيما بعد أم تمنى أن يكون له اسمٌ غيره.

وكم من شخصية مرموقة في تاريخ الإنسانية لم يضِرها على الرغم من أنها تسنمت مراكز اجتماعية أو سياسية هامة، أو لعبت دوراً فكرياً أو علمياً أو دينياً كبيراً ومؤثراً، أو أن يقلل من شأنها أو من شأن وقيمة دورها في الحياة والمجتمع. لأنها ربما كانت قد عانت من جوانب سلبية وقاتمة أو مشينة في مراحل طفولتها ويفاعها.

٣٨- عقدة الأم: وهي تعني اتجاه الطاقة الجنسية عند الابن نحو الأم، والعقدة بمفهوم منهج التحليل النفسي، هي مجموعة من الانفعالات والأفكار المكبوتة الناجمة عن خبرات واعية ذات شحنة وجدانية كبيرة. وعلى الرغم من أن العقدة لاشعورية لكنها تؤثر في التفكير، وتطبع السلوك بطابع الانحراف والشذوذ كعقدة أوديب أو عقدة الأم. ويقول فرويد مؤسس منهج التحليل النفسي لدراسة أعماق الحياة النفسية وعلاج اضطراباتها: تتجه الطاقة الجنسية في الموقف الأوديبي لدى الطفل نحو شخصٍ من الجنس الآخر. الأم لدى الابن والأب لدى البنت. وفي حالة التثبيت داخل الموقف الأوديبي وعدم تجاوزه وتصفيته باتجاه تقمص الابن لشخصية أبيه والبنت لشخصية أمها يؤدي إلى تكوين عقدة أوديب وعند الذكور عقدة الأم.

٣٩- النرجسية: حالة الشخص المستغرق في حب ذاته والإعجاب بها. هذا المعنى مأخوذ من أسطورة نارسيسوس الفتى اليوناني الجميل الذي رفض أن يستجيب لحب إلهة المياه إيكو، فعاقبته إلهة العدالة نيميزيس بإيقاعه في حب صورته المنعكسة على صفحة الماء. وبعدما أغرق نفسه حولته الآلهة إلى زهرة النرجس. والنرجسية لا تعني دائماً عشق الذات الشبقي، فقد يظل عشق الذات عند مستوى الحب الأفلاطوني.

لذلك لا يمكن اعتبار مرحلة الطفولة واليفاع من حياة الحسن - صدق كلام الذين تحدثوا عنها وصوروها أو تقولوا عليها وتزيدوا وتخرصوا - ميسماً يصم مسرى حياته كلها بخيرها وشرها، بصالحها وطالحها، وشرطاً لازماً، ومقياساً تقاس عليه سمعته وشرفه ومكانته الاجتماعية فيما تلا هذه المرحلة من حياته.

وكما لا يجوز - كما هو معروف - أن يدوم تأثير مرحلة عابرة منفعلة لا واعية في حياة كائن ما يتفاعل مع الحياة والجماعة، ويتأثر ويؤثر بها، كذلك لا وجود لمحطات ثابتة مطلقة في حياة الفرد لا يمكن أن يتجاوز حدودها خلال رحلة حياته التي يتوضح فيها ويتكامل أفقه الفكري ووعيه الطبقي، ويتطور ويغتني من خلالها وجدانه الاجتماعي وحسّه وذوقه الفني والجمالي وبالتالي دوره في الحياة والمجتمع.

● لقاء الحسن مع والبة:

ويتردد عن لقاء الحسن مع الشاعر والبة بن الحباب[٤٠] المعروف بشاعريته وفحشه ومجونه وشذوذه أكثر من سؤال، وترتفع أكثر من إشارة استفهام بعضها يقول: هل حدث هذا اللقاء؟!.. وإذا جرى كيف ومتى؟!.. وما هي سن الحسن عندما تمّ هذا اللقاء؟!. هل كان في سن اليفاع والصبا؟!.. أم في عمر هو فوق هذه السن؟!. وهل تمّ هذا اللقاء مصادفة؟!. أم إن الحسن كان يسعى إليه؟!..

لقد تعارضت الروايات وتباينت الآراء حول هذا الموضوع على الرغم من أنها أجمعت على أن اللقاء قد تمّ بين الاثنين فعلاً. من بين هذه الروايات رواية تقول: إن والبة التقى الحسن عند عطار في البصرة وهو صبي طري العود كالأملود فاستله من أمه وأخرجه معه إلى الكوفة ليؤدبه ويخرجه في الشعر. وهناك دفعه إلى الإثم وأدخله منزل رجل يجتمع فيه من طلاب اللذة والقيان على الأنس والشراب... وشرب فيه الكأس الأول فتفتحت نفسه لأهواء الشباب ولذّات الشراب»[٤١].

---

٤٠ - والبة بن الحباب: ويكنى بأبي أسامة. أسديّ صليبة، كوفي الوطن وشاعر من شعراء الدولة العباسية. كان والبة شاعراً ظريفاً وماجناً طبعاً، وغزلاً وصافاً للخمرة والغلمان المرد. خفيف الروح خبيث الدين، ومن أشدّ الشعراء الماجنين صراحة في القول وإسرافاً في الفحش، وأستاذاً من أساتذة القول والعمل في العشق والمجون. توفي حوالي سنة ٧٨٦ للميلاد. راجع كتاب الأغاني للأصفهاني المجلد الثامن عشر، ص١٠٠ وما بعدها.

٤١ - تفسير أرجوزة أبي نُواس: لابن جني، تحقيق محمد بهجة الأثري، المقدمة، ص٥٩

وتذكر رواية ثانية - أكثر سيرورة من غيرها - أن الحسن تعرف على والبة عند أبي بُجير الأسدي عامل الخليفة على الأهواز عندما كان برفقة معلمه العطار الذي ذهب إلى هناك، أو استجلب لأبي بجير من أجل أن يعرض بضاعته عليه. وكان والبة في زيارة لقريبه أبي بجير «فما إن رأى الغلام الحسن حتى تعلقه قلبه وكان بينهما حديث عاجل شدَّ كلاً منهما إلى صاحبه. فلما آن لوالبة أن يعود إلى الكوفة حيث يقيم، أخذ معه الحسن وتعاشرا عشرة سيئة مع صحبة سوء من خلعاء الكوفة وماجنيها كلهم منهم في خلقه ودينه»[٤٢]. وكان له من العمر خمسة عشر عاماً.

يروي ابن منظور عن والبة قوله[٤٣]:

«... كنت نائماً ذات ليلة والحسن إلى جانبي نائم إذ هتف بي هاتف يقول: أتدري من هذا النائم إلى جانبك؟..

قلت: لا،

قال: هذا أشعر منك وأشعر من الجن والأنس، والله لأفتنن بشعره الثقلين، ولأغوين به أهل المشرق والمغرب.

قلت وقد علمت أنه ابليس: ما عندك؟

قال: عصيتُ ربي في سجدة فأهلكني، ولو أمرني أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت».

وهناك رواية ثالثة، ربما تكون أكثر منطقية من الروايات السابقة وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع بعض المعالم الواضحة في حياة الحسن. تقول هذه الرواية: إن الحسن سار يسأل عن والبة بعد أن سمع باسمه وبشاعريته «لأن والبة كان شاعراً معروفاً في الكوفة لا مثيل له في البصرة. ولأن الذين نبغوا في هذه المدينة يُعَدُّ كانوا لدات النواسي في السن»[٤٤]. فلا غرابة من أن تستهوي الحسن شاعرية والبة ويخرج ساعياً إليه.

٤٢- شعراء المجون: صالح جودت: سلسلة كتاب الهلال العدد رقم ٢٦٤، ص٥٨

٤٣- أخبار أبي نُواس: لابن منظور المصري، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٩

٤٤- أبو نواس: عبد الحليم عباس، سلسلة اقرأ العدد رقم: ٢١٠، ص٣٧ وما بعدها.

وعندما التقى به طلب منه أن يساعده ويرسله إلى قومه بني أسد في البادية لأخذ العربية والغريب، فكان والبة عند حسن ظن الحسن فيه، وأرسله مع وفد من قومه. فأقام الحسن في بادية بني أسد عاماً كاملاً «يتعلم العربية والغريب عن الأعراب عن طريق الاختلاط والمشافهة»[٤٥]، فكان يسمع فيه ويشاهد ويتأمل حتى تفتحت روحه واستقام لسانه. ثم عاد ممتلئ العقل والروح من أخبار البادية وشعرها وقصصها. ولما عاد سار مع والبة إلى بغداد، فلم يقر والبة على الصمود لرجال الشعر فيها، فعاد إلى الكوفة وأقام الحسن في بغداد.

هذه الرواية احتمال من جملة احتمالات وإذا لم تكن أقواها فليست بأضعفها. والذي يزيد في منطقيتها وقربها من الممكن هو أن النواسي نظم الشعر في الكوفة وأنه لم يستعجل النظم. وأن شعره لم يذع - كما عرف عنه - إلا بعد أن شبَّ عن الطوق وتمكن من اللغة وأكثر من رواية الأشعار. فقد روي عنه أنه قال: «ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهنَّ الخنساء[٤٦] وليلى الأخيلية[٤٧] فما ظنك بالرجال؟ وإني لأروي سبعمائة أرجوزة ما تُعرف»[٤٨].

٤٥- مختار الأغاني: لابن منظور المصري، المجلد الرابع، ص١٧

٤٦- الخنساء: تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد. والخنساء لقب غلب عليها. لم تعرف سنة ميلادها، ويقال إنها توفيت سنة ٦٤٥ للميلاد. أشهر شاعرات العرب وأشعر أهل نجد. عاشت أكثر عمرها في الجاهلية. قتل أخواها معاوية وصخر لرثتهما محرضة قومها على الأخذ بالثأر. أدركت الإسلام وأسلمت مع قومها بني سليم. اشترك أولادها الأربعة في وقعة القادسية واستشهدوا فيها، فقالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم». لها ديوان مطبوع أكثره في الرثاء. شرحه ابن السكيت وابن الأعرابي والثعالبي. ويقال إن دريد بن الصمة خطبها وكان متقدماً بالسن فردته. كتب صاحب الأغاني: «قال أبو عبيدة ومحمد بن سلام: لما خطبها دريد بعث خادماً لها وقالت انظري إليه إذا بال، فإن كان بوله يخرق الأرض ويخدُّ فيها فقيه بقية، وإن كان بوله يسيح على وجهها فلا بقية فيه. فرجعت إليها وأخبرتها، فقالت: لا بقية في هذا فأرسلت إليه: ما كنت لأدع بني عمي وهم مثل عوالي الرماح وأتزوج شيخاً». عن الأغاني، المجلد الخامس عشر، ص٧٦

٤٧- ليلى الأخيلية: هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال... بن معاوية. لم تعرف سنة لولادتها. وقيل إن وفاتها كانت في عام ٧٠٠ أو ٧٠٤ للميلاد، شاعرة عربية عقيلية فصيحة جميلة من النساء المتقدمات في الشعر. وقد شُهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير، الذي كان يهواها ويقول فيها الشعر. وكان توبة خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياها وزوجها في بني الأدلع. ولما قتل توبة رثته بمراث كثيرة اشتهرت بها. ولها شعر في الهجاء، وقد تهاجت مع النابغة الجعدي. كتب عنها صاحب الأغاني يقول: «بلغني أن ليلى الأخيلية دخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنت وعجزت، فقال لها: ما رأى توبة فيك حين هويك؟ قالت: ما رآه الناس فيك حين ولوك، فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها». عن الأغاني، المجلد الحادي عشر، ص٢٤٠

٤٨- أبو نُواس في تاريخه وشعره ومباذله: لابن منظور المصري، تحقيق عمر أبو النصر، ص٥٠

أما ارتحال النواسي إلى البادية فهو أمر مؤكد لا شك فيه. وهي عادة معروفة وشائعة يطلبها كبار اللغويين، ويلجأ إليها كل من يريد أن يتمكن من اللغة وغريبها ويسعى إلى صفائها.

كتب عبد الحليم عباس يقول[٤٩]:

«وقد اعتاد شباب العرب الذين يرغبون في التمكن من الغريب والقول الصحيح أن يُلموا بهذه البادية في سن مبكرة. ولكن النواسي لم يرسله أبوه إليها ولم يكن في وفرة من الغنى ليذهب إليها متى أراد. فالأقرب إلى المنطق أنه لم يذهب إليها إلاّ بعد أن عزم على الخروج إلى بغداد، ولقاء رجال البيان فيها. فأراد التحوّط للأمر والتمكن من اللغة لينفي عن نفسه كل شك في قدرتها على الوقوف على صعيد واحد مع أعلام الشعر في مدينة الرشيد».

وهذا ما يُدعِّم فكرة ارتحال الحسن إلى والبة والبحث عنه لمساعدته، وأن عملية الارتحال هذه كانت على الأغلب في سن تخطى فيها الحسن عقده الثاني وشارف على العقد الثالث من عمره.

أما لماذا اختار أبو نواس الذهاب إلى بادية بني أسد؟!. فإن تقدير أمر هذا الاختيار ربما قد يعود إلى أسباب مذهبية كما قدرتها السيدة الدكتورة أحلام الزعيم.

كتبت الدكتورة أحلام الزعيم تقول[٥٠]:

«... وإننا إذ نتكلم عن تشيع أبي نُواس لا بُدَّ من التأكيد على أن ذهابه لقبيلة بني أسد له - برأينا - علاقة كبيرة بتشيعه الذي كان يلتقي فيه مع هذه القبيلة».

أعتقد أن تشيع هذه القبيلة سبب من الأسباب المقبولة التي تكمن وراء اختيار الحسن لها. وهذا يعني أنه طلب من البادية بادية بني أسد لموقع هذه القبيلة الديني والفكري وليس محض صدفة. يضاف إلى ذلك أن الفترة ما بين عودة أبي نواس من البادية وذهابه إلى بغداد كانت قصيرة نسبياً وأن قدومه إلى بغداد كان في حدود الثلاثين من عمره أو يزيد قليلاً.

٤٩- أبو نواس: عبد الحليم عباس، سلسلة اقرأ، العدد رقم: ٢١، ص٣٧ وما بعدها.

٥٠- أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد: الدكتورة أحلام الزعيم، ص٨٢

كل هذه الوقائع ترجّح أن الحسن هو الذي بحث عن والبة على اعتبار أنه الشخص الذي يمكن أن يعتمد عليه في مثل هذه المهمة؟. ومثل هذا البحث لا يمكن أن يتم في سن مبكرة من قبل فتى صغير يتيم فقير، بل على الأرجح في سن متقدمة ومن قبل شاب ناضج يعرف ماذا يريد وفي سبيل أي هدف يسعى. مما يؤكد أن اللقاء قد تمّ بينهما والحسن قد شارف على العقد الثالث من حياته. وهي سن لا تساعد على نشوء علاقة جنسية مريبة بينهما، لا من الناحية النفسية ولا من الناحية الجمالية «فما سن الثلاثين بالسن التي تساعد عليها»[٥١]. وخاصة في زمن يكاد يضج من وفرة الغلمان المرد والمخنثين.

● حياة الحسن الأسرية:

وحول حياة أبي نواس الأسرية فإن أكثر الآراء تلاقت، ومعظم التكهنات توافقت. لأن الذين صوروا سيرته وحياته المسرفة في المجون والاستهتار والانحراف الغريزي استبعدوا أن يكون الحسن قد تزوج وأنجب، ونفوا أن تكون له أسرة يسكن إليها وترتاح إليه.

كتب الدكتور طه حسين يقول[٥٢]:

«... لم يكن أبو نُواس يُحب النساء وكان ينفر منهنّ نفوراً شديداً. حتى لم يُفلح الذين أرادوا على أن يتزوج على رغم إلحاحهم عليه وتوسلهم إليه لم يفلحوا، لأن أبا نواس لم يكن يتصور حياة الزوجية، ولم يستطع أن يعيش عيشة متصلة مع امرأة».

ومرّ المصنفون والدارسون وكتاب سيرته بهذا الجانب من حياته بشكل سريع دون تدقيق. لأنهم أيقنوا منذ البداية وكما قدر طه حسين أن من يعيش مثل هذه الحياة العابثة لا يحتمل عيش الأسرة. حتى أن ابن منظور المصري الذي كتب أن أهل الحسن أجبروه على الزواج من جارية جميلة من أهل بيته علّه يُقصر عن بعض ما فيه.

كتب ابن منظور يقول[٥٣]:

«... فلما أُدخل عليها أعرض عنها وخرج إلى غلمان كانوا يأتونه فجمعهم وألبسهم الأزر المعصفرة، وخلا بهم يومه فلما أمسى طلقها وقال في ذلك:

٥١– أبو نُواس: عبد الحليم عباس، سلسلة اقرأ، العدد رقم ٢١، ص٣٧ وما بعدها.

٥٢– المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين: المجلد الثاني، ص٤٣٠

٥٣– أخبار أبي نواس: ابن منظور المصري، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص١٠٦

صاحبة القرقر لا تشغبي ... تحملي طالقةً واذهبي[٥٤]

مُرّي فكم مثلك من حُرّةٍ ... رائعةٍ لم تكُ من مطلبي

لا أبتغي بالطمث مطمومةً ... ولا أبيعُ الظبي بالأرنب[٥٥]

لا أشتهي الحيض ولا أهله ... غيرُك أشهى منك في المركب

أولا فإن كنتِ غلاميةً ... من شرط مثلي فردي مشربي

عاد ابن منظور واستدرك نافياً كل إمكانية لزواجه عندما قال: «وروي أنه لم يتزوجها»[٥٦]. وبذلك ألغى فكرة قيام أية حياة أسرية للحسن، وأضعف من قيمة فرص روايته اليتيمة السابقة.

ولكن إذا استقرأنا ديوان الحسن وتتبعنا شعره نجد عدداً من الأبيات تشير إلى ارتباطه بزوجة وبيت.

قال الحسن[٥٧]:

تقول التي عن بيتها خفّ مركبي ... يَعِزُّ علينا أن نراك تسير[٥٨]

وتطالعنا أبياتٌ أخرى تؤكد أن للحسن أولاداً قد عزَّ عليه أن يفارقهم. وفيها إشارة إلى أن له ابنتين إحداهنّ اسمها «برّة» والثانية تدعى «لُباب».

يقول عن الأولى[٥٩]:

ألا إن بنتي بنتُ من لم ير ابنةً ... ولا ابناً سواها قد تبرُّ وتُؤنسُ[٦٠]

فيا برَّ برّيني حياتي وإن أمُتْ ... فلا تذخريني دمعةً حين أُرمسُ[٦١]

٥٤- القرقر: لباس النساء خاصة. تشغبي: من الشغب تهيج الشر.

٥٥- مطمومة: مقصوصة الشعر، وهي صفة لشعر الجواري الغلاميات اللواتي تزيّن بزيّ الذكر.

٥٦- أخبار أبي نُواس: لابن منظور، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص١٠٧

٥٧- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٤٨١

٥٨- عن بيتها خفّ مركبي: يعني سافر أو سار.

٥٩- أبو نُواس شاعر هرون الرشيد ومحمد الأمين: الدكتور عمر فروخ، ص١٩

٦٠- برّ فلان أباه يبرّه: أحسن إليه وأطاعه.

٦١- لا تذخري: لا تخبئي عني.

تُحِبُّ أباها حُبَّ من لا أبا له ونذكره في الصدر وحشى نتأنس[٦٢]

ويقول عن الثانية[٦٣]:

لُبابُ تكبري فوق الجواري فإن أباك أعتبهُ الزمانُ[٦٤]

متى أجمع أبا نصرٍ ومصرا فما للدهر بينكما مكانُ

وقال عندما مدح الخصيب[٦٥] والي مصر[٦٦]:

يا ابنتي أبشري بميرة مصرٍ وتمني وأسرفي في الأماني[٦٧]

أعتقد أن لُباب التي يقصدها في هذه القصيدة هي ابنته. وأن مجلس الخصيب لا يفرض «على النواسي أن يكذب أو يختلق ويدعي أن له ابنة»[٦٨]. بينما الحقيقة هي غير ذلك. حيث لا يوجد سببٌ يستدعي مثل هذا الأمر.

ونجد في ديوان الحسن بيتين من الشعر يرثي فيهما ابناً ذكراً له.

قال الحسن[٦٩]:

لعمرك ما أبقى لنا الموت باقياً نقرُّ به عيناً غداة نؤوبُ

كأني رثرتُ الموت بابن أفاده على حين حانت كبرةٌ ومشيبُ

وعندما خرج من السجن بعد أن شفع له الفضل بن الربيع لدى الخليفة الأمين. قال[٧٠]:

٦٢- اليتم يشتد ألمه حين يرى للآخرين آباء ولا يرى له أباً.

٦٣- ديوان أبي نواس: الغزالي، ص٤٨٣

٦٤- لبابة: اسم. أعتب فلان فلاناً: أرضاه.

٦٥- الخصيب: هو الخصيب بن عبد الحميد العجمي، أمير مصر على الخراج أيام الرشيد. قصده الشاعر فأكرم وفادته وأجزل عطاءه، فمدحه بقصائد مشهورة.

٦٦- ديوان أبي نواس: الغزالي، ص٤٧٧

٦٧- ميرة مصر: الميرة طعام يمتاره الإنسان. يقصد هنا خيرات مصر.

٦٨- أبو نواس: عبد الحليم عباس، سلسلة اقرأ العدد رقم: ٢١، ص٢٩

٦٩- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٥٧٩

٧٠- المصدر السابق: ص٤٦١

إنـي أتيـتـكـم مـن الـقـبـر والـنـاس مـجـتـمـعـون لـلـحـشـر

لـولا أبـو الـعـبـاس مـا نـظـرت عـيـني إلـى ولـد و لا وفـرِ

وقال أيضاً[71]:

لـو أن دون الموت واقـيـة لـفـديـتـهـا بـالمال والـولـدِ

لـولا أبو العبـاس مـا نـظـرت عـيـني إلـى ولـدٍ ولا رِفـدِ

فهل رُزق أبو نواس ولداً ذكراً توفي وهو صغير في أواخر حياة أبيه؟!. ربما. وهل كان للحسن إبنة أو إبنتان؟!..

أعتقد أن للحسن بيتاً وأولاداً، وأعتقد أن له ابنة واحدة قال إنها الإبنة التي لم ير أبوها غيرها. بل ربما كان له ابنتان وولدٌ ذكرٌ. غير أننا «لا نعرف عن هؤلاء جميعاً شيئاً ذا قيمة تاريخية»[72]. وأن من يزعم أن هذه الأبيات قد تكون من الأبيات الدخيلة على شعره، فإن مثل هذا الزعم غير وارد ويتناقض مع الخط الذي فرضه المصنفون والكتاب على مجرى حياته التي لم تعرف أسرة ولا بيتاً كما زعموا، ولأن ما يمكن أن يكون دخيلاً على شعر الحسن هو ما قيل في مجال المجون والخمر والغزل في المذكر. ولا يمكن أن يكون في هذا القبيل من الشعر.

مجمل هذه الأمور يقود إلى القول بأن للحسن أسرة على الرغم من أن هذا الزعم لا سبيل إلى إثباته وتأكيده من الناحية التاريخية. خاصة، إذا عرفنا أن الحسن كان يخشى من هجاء الشعراء له والتشهير به من قبل أعدائه. لذلك كان شديد الحرص على إخفاء كل ما يمت بصلة إلى أسرته وزوجه، وضنيناً بذكر كل ما يتعلق بهم في شعره إلا إذا اضطر إلى ذلك. لأنه كان يعرف حق المعرفة أن أسرته ليست من الأسر التي يمكن التحدث عنها والاعتزاز بها أو المباهاة بخصالها ومكانتها، لا من حيث النسب ولا من حيث الجاه والمركز الاجتماعي. مما يفسر لنا عدم وجود ذكر لأمه وأبيه، وكذلك يفسر ندرة الشواهد وشحتها من ناحية أسرته وأولاده في ديوانه الذي أجمع النقاد على أنه لم يُجمع كاملاً، ولا يضم كل شعره. ولو وجد شعره كاملاً لتغيرت صورة الحسن لدى الكثيرين من نقاده.

71- أبو نواس: عبد الحليم عباس، ص٣٠

72- أبو نواس شاعر هرون الرشيد ومحمد الأمين: الدكتور عمر فروخ، ص١٩

إن ضياع جزء هام من شعره وطمس البعض الآخر فوت على الدارسين معرفة الكثير عن حياته ومواقفه الفكرية والسياسية والدينية. وساعد الحسنُ نفسه على هذا الضياع عندما احتفظ بالعديد من القصائد التي آثر أن تبقى طيّ الكتمان وتعمد عدم إشاعتها أو نشرها بين الناس ثم أحرقها كما ذكرنا سابقاً نقلاً عن ابن منظور. ويرجّح أن غالبية هذه الأشعار لها علاقة بتشيعه وبموقفه السياسي والديني.

يضاف إلى ذلك أن الرواة والمصنفين ودارسي شعر الحسن الذين تزيدوا عليه انطلاقاً من أسباب متعددة الأهواء سياسية ومذهبية واجتماعية وشخصية وفنية وجدوا بعد أن نسبوا إليه قصصاً وأحداثاً ربما لم يعشها ونحلوه أشعاراً في المجون ربما لم يقلها. أن هذه القصص وهذه الأشعار لا يمكن أن «يستقيم أمرها إلا إذا لم يتزوج. فلم يزوجوه وضنوا عليه ببيت أو ولد»[٧٣].

● هجرة الحسن إلى بغداد:

لما تخطى الحسن الثلاثين جذبته بغداد فيمن جذبت من شعراء البصرة حيث المال والجمال والحياة الرغيدة السعيدة. فقطع كل علاقة له بموطنه البصرة إلى لا إياب. وفارق رفاق الصبا عامداً غير آسف بمن كان قد عرف فيها وودّ.

قال الحسن[٧٤]:

أيا من كنتُ بالبصرة ... أُصفي لهمُ الوُدَّا
ومن كانوا مواليَّ ... ومن كنت لهم عبداً
شربنا ماء بغداد ... فأنساناكم جدًّا
فلا ترعوا لنا عهداً ... فما نرعى لكم عهدا
ولا تشكو لنا فقداً ... فما نشكو لكم فقدا
كلانا واجدٌ في النا ... س ممن ملّهُ نِدا
قطعنا حبلكم عمداً ... كما أعرضتموا عمدا

٧٣- أبو نواس: عبد الحليم عباس، مصدر سابق، ص٢١

٧٤- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٥٤٧

لم تحدد الروايات تاريخ نزوحه إلى بغداد بالضبط. لكنها اتفقت على أنه كان في مطلع النصف الأول من خلافة هرون الرشيد التي امتدت من عام سبعين ومائة إلى عام ثلاثة وتسعين ومائة. ولكن إذا رجعنا إلى القصيدة التي كتبها الحسن في السجن عام خمسة وتسعين ومائة، ووجهها إلى الفضل بن الربيع يمدحه ويستعطفه بسبب سجن الأمين له، والتي يقول فيها[٧٥]:

ولا تجحدوا بي وُدَّ عشرين حِجَّةً ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضلِ

نرى أنه يعود بتاريخ اتصاله مع بيت آل الربيع إلى حوالي عام خمسة وسبعين ومائة للهجرة. ولعلَّ هذا التاريخ هو الزمن الأقرب إلى التاريخ المرجَّح لقدومه إلى بغداد مع صديقه والبة الذي قدمه إلى البرامكة الذين تقرب منهم ومدحهم وأطال في مدحهم. ولما لم تنفق سوقه عندهم كما يشتهي ويحب – كان يطمع لأن يكون شاعرهم – ابتعد عنهم وهجاهم، وتهاجى مع شعرائهم، إبان اللاحقي، والرقاشي، وأشجع السلمي، وسلم الخاسر، الذين كانوا على خلاف معه بالنسبة لموقفه المؤيد لآل البيت. وانصرف إلى بيت ينافس البرامكة سلطتهم فتقرب من بيت آل الربيع، ومن عميدهم الفضل الذي كان له بعض الحظوة آنذاك لدى الخليفة هرون الرشيد، والذي سرعان ما حلَّ محل البرامكة بعد نكبتهم في تولي الوزارة.

نزح النواسي إلى بغداد ونفسه الطموح تحفل بعريض الآمال وأحلى وأندى الرغبات ولسان حاله يقول[٧٦]:

سأبغي الغنى إمّا جليسُ خليفةٍ يقومُ سواءً أو مُخيفَ سبيلِ

فهل كانت حياة الحسن في بغداد كما تصوَّر وأراد؟.، وهل تيسر له فمدح الخليفة هرون الرشيد وتقرب منه وأخذ من نائله الغمر؟!. وهي أمنية يهفو إليها قلب كل شاعر يرد عاصمة الخلافة بغداد. وهل تحققت أحلام الحسن وطموحاته ووصل إلى ما يبتغي ويريد من آمال وأمنيات؟!.

٧٥- المصدر السابق، ص٤٦٦

٧٦- أبو نواس الحسن بن هانئ: دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي: عباس محمود العقاد، ص١٠٥

● علاقته مع الرشيد:

كتب ابن منظور المصري عن علاقة أبي نواس بهرون الرشيد نقلاً عن بعض الذين يحيطون علماً بأحوال الحسن ما يلي:

قال ابن منظور[٧٧]:

«... وإن أبا نُواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه، وإنما دخل على محمد الأمين، وما ملك النواسي عشرين ألف نواة فكيف بعشرين ألف درهم».

هذا القول يعني: أن كل ما قيل عن علاقة الحسن بهرون الرشيد وعلى أنه كان شاعره ونديه وسميره مختلق وموضوع، باستثناء بعض قصائد في المديح نظمها شاعر يطمح إلى لقاء الخليفة وإلى التقرب منه، ولكن هذا اللقاء لم يتحقق.

غير أن الأمر المرجح والمعقول يُشير إلى غير ذلك. يُشير إلى أن النواسي وصل إلى هرون الرشيد، ولا شيء كان يمنعه عن ذلك، وهذا ما أكّده ابن منظور نفسه في مكان آخر من كتابه، وعلى لسان أبي نواس الذي وصف بنفسه أول اتصال له مع الرشيد.

كتب ابن منظور يقول[٧٨]:

«... قال أبو نواس: أول اتصالي بالخلفاء أن الرشيد قال ذات ليلة لهرثمة بن أعين: اطلب لي رجلاً يصلح للحديث والسمر.

فخرج هرثمة فسأل، فدُلَّ عليَّ، فأدخلني عليه. فسألني الرشيد عن اسمي واسم أبي فأخبرته.

ثم قال لي: يا حسن أرقت في هذه الليلة فخطر ببالي هذان البيتان وهما:

وقـهـوةٍ كـالـعـقـيـق صـافـيـةٍ ... يـطيرُ من حُسنها لها شَررُ

زوجـتُـهـا الماء كـي تَـذِلَّ لـه ... فـامـتـنـعـت حـين مـسّـهـا ذَكَـرُ

قال فقلتُ بديهاً:

٧٧- أخبار أبي نواس: لابن منظور المصري، محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٢١٧

٧٨- المصدر السابق، ص٢١٤ وما بعدها.

كذلك البكرُ عند خلوتها يظهرُ منها الحياء والخَفَرُ
حتى إذا ساسها مُمَلِّكُها فما لها فيه ثمَّ مُزدجرُ
عادت له ثيِّباً تُفاكِهُه قد غاب عنها بالرقة الأثرُ
تُرضعه تارة وتَتْبعه صريع كرم بعينه خَوَرُ

قال: أحسنت. وأمر لي بمالٍ وكان سبب اتصالي به».

وكتب الدكتور شوقي ضيف يقول[79]:

«... ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فمدحه ونال جوائزه».

إن معظم المصادر التاريخية والدراسات الجدية تؤكد أن الرشيد كان يحفظ بعض شعر الحسن وأن الحسن دخل عليه كسواه من الشعراء ومدحه في أكثر من قصيدة ومناسبة.

كتب أبو هلال العسكري[80] يقول[81]:

«... كان الرشيد جيد المعرفة، ثاقب الفطنة، قال لأبي نواس:

لِمَ وثب بك أهل مصر؟

قال: لقولي:

فإن يكُ باقي إفك فرعون فيكُمُ فإن عصا موسى بكفِّ خصيبِ

قال: فوثبوا بي وأرادوا قتلي، وقالوا جعلت معجزة موسى لخصيب.

٧٩- العصر العباسي الأول: الدكتور شوقي ضيف، ص٢٢٤

٨٠- أبو هلال العسكري: هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن يحى بن مهران اللغوي العسكري.

كان موصوفاً بالعلم والفقه، ويغلب عليه الأدب والشعر له ديوان شعر ومن مؤلفاته الكثيرة: «كتاب الصناعتين في صناعة الشعر والنثر وديوان المعاني، وجمهرة الأمثال».

ومن شعره قوله:

جلوسي في سوقٍ أبيع وأشتري دليل على أن الأنام قرودُ
ولا خير في قوم تُذَلّ كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسودُ
وتهجوهمُ عني رثاثة كسوتي هجاءً قبيحاً ما عليه مزيدُ

٨١- ديوان المعاني: الحسن بن عبد الله المعروف بالعسكري، المجلد الأول، ص٣٦

فقال له الرشيد: ألا قلت:

فإن كان باقي إفك فرعون فيكُمُ فباقي عصا موسى بكفِّ خصيبِ

فيكون شعرك أحسن، ويكون سالماً من التهمة.

فقال: والله يا أمير المؤمنين إنك لأشعر مني وإنما لم أفطن لذلك».

وكتب عبد الحليم عباس يقول[82]:

«... وكان الرشيد يسمع شعر النواسي ويتذوق ويعجب بعضه، وما كان ليصح غير ذلك من خليفة كهرون له ذوقه الرفيع في الشعر وتقدير شعراء عصره الذين كاد النواسي يتغلب عليهم».

وتؤكد مصادر أخرى أن الحسن كان يُسمع الرشيد قصائد تتحدث عن حوادث تدور داخل قصر الخليفة، ومع جواريه ينشدها له بديهة «في ساعات سروره أو عذله، فيروح عنه أو يزيده سروراً»[83] وبشكل يوحي بأن الحسن كان حاضراً أو شاهداً على تلك الأحداث.

ويعلل ابن منظور أسباب المكانة التي حصل عليها الحسن عند الرشيد بشكل يتناقض وقوله السابق: بأنه ما دخل على الرشيد قط، فيقول: «وإنما حصل على مكانته عند الرشيد بأنه كان إذا بكر إليه سأل خواص أهل بيته عما يكون في نفسه أو يكون جرى له في ذلك الوقت. ثم يُنشده أشعاراً لطيفة في مطابقة ذلك فيطيب بها نفساً»[84]

كتب العلامة الشيخ داوود الإنطاكي يقول[85]:

«... وأرق الرشيد ليلة فقام يمشي في المقاصير فرأى جارية لطيفة الشكل بديعة المنظر فأيقظها.

٨٢- أبو نُواس: عبد الحليم عباس، مصدر سابق، ص٥٥

٨٣- أبو نُواس شاعر هرون الرشيد ومحمد الأمين: مصدر سابق، ص١٧

٨٤- أخبار أبي نُواس: لابن منظور مصدر سابق، ص٢١٦

٨٥- تزيين الأسواق في تفصيل أشواق العشاق: داوود الإنطاكي، ص٢٤٥ وما بعدها.

فقالت وقد علمت به: يا أمين اللّه ما هذا الخبر.

فقال:

هو ضيف طارقٌ حبُّكم — يرتجي المأوى إلى وقت السحر

فقالت:

بسرور سيدي أخدمه — إن رضي بي وبسمعي والبصر

فلما أصبح أحضر أبا نُواس وقال له أجز: «يا أمين اللّه ما هذا الخبر».

فأنشد:

طال ليلي حين وافاني السهر — فتفكرتُ فأحسنتُ الفكر

قمت أمشي في مكاني ساعة — ثم أخرى في مقاصير الحجر

وإذا وجه جميل حسنٌ — زانه الرحمن من بين البشر

فلمستُ الرجل منها موقظاً — فرنت نحوي ومدت لي البصر

وأشارت وهي لي قائلة — يا أمين اللّه ما هذا الخبر

قلتُ ضيفٌ طارقٌ حبُّكُمُ — يرتجي المأوى إلى وقت السحر

فأجابت بسرور سيدي — أخدم الضيف بسمعي والبصر

فقال له: أكنت معنا؟

قال: لا ولكن ألجأني الشعر إلى ذلك. فأحسن صلته.

وكتب ابن منظور يقول[٨٦]:

«... قال أبو نواس... ولقد علمت من بعض خدمه (يقصد الرشيد) أنه دخل مقصورة جارية على غفلة منها فوجدها تغتسل وقت الظهر، فلما رأته تجللت بشعرها فأعجبه ذلك منها.

فلما دخل عليه أبو نواس أنشده:

نضَت عنها القميص لصبِّ ماءٍ — فورَّدَ وجهَها فرطُ الحياءِ

٨٦- أخبار أبي نُواس: لابن منظور، مصدر سابق، ص٢١٦ وما بعدها.

وقابلت الهواء وقد تعرّتْ | بمعتدلٍ أرقُّ من الهواءِ
ومدّتْ راحةً كالماء فيها | إلى ماءٍ معدٍّ في إناءِ
فلما أن قضت وطراً وهَمَّتْ | على عجلٍ إلى أخذ الرداءِ
رأت شخص الرقيب على التداني | فأسبلت الظلام على الضياءِ
وغاب الصبحُ منها تحت ليلٍ | وظلُّ الماء يقطر فوق ماءِ
فسبحان الإله وقد براها | كأحسن ما تكون من النساءِ

وهذه الأبيات هي من جيد الشعر، وهي كما تراها أرقُّ من الهواء وأصفى من الماء كما يقول في وصف هذه الجارية الحسناء.

فقال الرشيد على سبيل الاستغراب: سيفاً ونطعاً يا غلام

فقال أبو نُواس: ولِمَ يا أمير المؤمنين؟

قال أمعنا كنت؟

قال: لا وإنما شيء خطر لي بالبال فقلته.

فضحك الرشيد، ثم أمر له بجائزة وصرفه».

لقد أشارت معظم المصادر إلى أن الحسن لم يكن في يوم من الأيام مقرباً من الرشيد أو أثيراً لديه. ولم يتبوأ موقع شاعر الخليفة ونديمه وسميره. وأن الرشيد لم يكن راضياً عن كل ما كان يقوله الحسن ويفعله على الرغم من «أنه عهد إليه بتعليم ابنه الأمين، يرويه الشعر النادر ويحدثه عن الغريب»[٨٧].

أجل لم تكن علاقة الحسن مع الرشيد بالعلاقة التي تمناها وسعى إليها بدليل أن ما أخذه النواسي من الرشيد كان «دون قدره في عالم الشعر، ودون حظ رفاقه من الشعراء ومن يعلو عليهم درجات»[٨٨]. فقصد رِفْدَ والٍ من ولاته بمصر – الخصيب – على الرغم من أن الحسن مدح الرشيد في ثلاث قصائد، وربما أكثر، لكنها ضاعت، وبدليل أن الرشيد حبس الحسن أكثر من مرة وأطال حبسه.

٨٧– أبو نُواس بين التخطي والالتزام: الدكتور علي شلق، ص٤٨ نقلاً عن ابن منظور.

٨٨– أبو نواس: عبد الحليم عباس، مصدر سابق، ص٧٣

وهنا لا بد لنا أن نتساءل: هل يعود غضب الرشيد على الحسن وعدم رضائه عنه إلى سوء سيرته ومجونه، أو إلى هجائه للعدنانيين وافتخاره بقحطان وموالية اليمنيين كما أشيع وقيل من قبل بعض الباحثين والرواة؟!.

أعتقد أن وراء علاقته المتأرجحة مع الرشيد، وما تخللها من جفاء وغضب وسجن وتقتير في الأعطيات، يكمن سببٌ أكبر من هجائه لعدنان، وأخطر مما أُشيع عن مجون الحسن وتهتكه وسوء سيرته. فما الرشيد في حياته الخاصة إلاّ ماجنٌ ترفٌ لكنه متستر يغرق في اللذة واللّهو وراء الستر والحجب وجدران القصور. ولا بدع إذا ما لها ولعب وهو ابن أبيه المهدي الذي كان يلهو بالشراب والسماع قبله.

ولا عجب إذا ما عاش حياتين متناقضتين، حياة علنية جادة ناظمها العفة والطهارة والرزانة، وشعارها حاج غازٍ لأنه حجَّ تسع حجج وغزا ثماني غزوات في خلافته، كما حاول أن يصورها لنا الطبري وابن خلدون وأبو يوسف في الخراج وغيرهم...

وحياة خاصة متسترة لا يطلع عليها إلا خواص جواريه وندمانه والمقربين منه، صورها لنا كتاب الأغاني وأعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس، وأقاصيص ألف ليلة وليلة وغيرها من الكتب والتصانيف، شعارها الأُنس والشراب والعزف والقصف فإذا ما «جاء وقت اللّهو أسرف فيه إسرافاً لم يعرفه خليفة قبله»[89].

وكُتب في معرض تبرير سلوكه في حياته الخاصة المسرفة في الشراب واللّهو والسماع ما يتضمن معنى التأكيد على هذه الحياة، والإقرار بمثل هذا السلوك.

فقالوا: «وقد منحه اللّه عاطفة قوية ينسى بها نفسه متى وجدت دواعي الأُنس»[90]. وخاصة عندما «تثور عاطفته الدنيوية... فيسمع الغناء ويشرب الشراب ويقول الشعر[91]:

ومن أشعاره المعروفة عنه قوله:[92]

٨٩- هرون الرشيد: أحمد أمين، سلسلة كتاب الهلال العدد رقم/ ٣ ص١٨٧

٩٠- المصدر السابق: ص١٨٦

٩١- المصدر السابق: ص١٨٧

٩٢- العقد الفريد: أحمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلد السابع، ص٤٢

ملك الثلاث الآنسات عناني   وحللن من قلبي بكُلّ مكانِ

مالي تطاوعني البرية كلُّها   وأطيعهنَّ وهنَّ في عصياني

ما ذاك إلاّ أن سلطان الهوى   وبه قوين أعزُّ من سلطاني

أجل هذا هو أبو جعفر الرشيد، الإنسان، الشاعر، السلطان في حياته الأسطورة، وشخصه المتقلب، القريب البعيد، الحميم النفور، الرحيم الغشوم، متربعاً عرش السلطة جباراً ظلوماً، وإنساناً عاشقاً للحياة متقلباً في أحضان اللذة شغوفاً بها منهوما. وليس ذلك بالأمر الغريب العجيب، لأنه لايمكن لابن هذه الأرض، لإنسان ذلك العصر وكل عصر، والرشيد إنسان ذلك العصر وابن هذه الأرض أن يكون منزهاً طهورا- حتى ولو كان سلطانا - يماثل في نزاهته وطهره القيم والنواميس المطلقة، والجدليات الخالصة المتلبسة لبوس مقولات العلم والدين عبر كل العصور.

هذا هو هارون الإنسان المشبع بإنسانيته المتعطشة للمتع المنعمة الطروب التي أشرقت من أجوائها أنوار ليالي شهرزاد الأسطورة ، قمة المجد العباسي وفخر كل حضارة.

وذاك هو هارون السلطان الحاكم العظيم المتسلط بجبروت سلطته الغشوم كالسيف على رقاب الناس والعباد حتى غدت تخافه وتخشاه النطف التي لم تُخلق بعد في ظهور الرجال؟!

قال الحسن:[٩٣]

وأخفت أهل الشرك حتى إنه   لتخافك النطفُ التي لم تُخلقِ

وكذلك الأجنة التي مازالت في ظلمة الرحم ، لم تهبط بعد إلى فسحة الحياة وتستمتع بفضيلة الوجود.

قال:[٩٤]

حتى الذي في الرحم لم يكُ صورةً   لفؤاده من خوفه خفقانُ

كل ذلك يجعلني أُرجح أن مجون الحسن وهجاءه للعدنانيين ربما كانا من

٩٣- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٤٠١

٩٤- المصدر السابق، ص٤٠٦

الأسباب المباشرة المعلنة رسمياً لتفسير موقف الرشيد المتقلب منه. وما تخلل علاقة الحسن بالرشيد من جفاء وغضب وتقتير وسجن. أما السبب الأساسي والرئيسي الذي يكمن وراء هذه العلاقة المتأرجحة فهو برأينا التزام الحسن موقفاً صريحاً واضحاً ومؤيداً لآل البيت، وعدم تنازله أمام رغبة أحد مهما علا شأنه حتى ولو كان الخليفة في الهجوم عليهم والتعرض لهم.

علماً أن سبّ آل البيت والتعرض لهم كان وسيلة فعّالة وهامة ومتعارفاً عليها يتقرب بموجبها الشعراء من الخليفة العباسي ويحتفظون بمنزلتهم لديه. وهي دنيةٌ لم يُنم أن الحسن أقدم عليها أو اقترفها.

● رحيل الحسن إلى مصر:

في زمن خلافة الرشيد سافر الحسن إلى مصر بدعوة وربما بدون دعوة من أميرها الخصيب بن عبد الحميد، طلباً للتكسب والارتزاق. وكان الطريق شاقاً وصعباً، ولولا الأمل بعطايا أميرها لما ترك بغداد بملاذها وملاهيها وحاناتها، وتجشم المشاق وقطع آلاف الأميال وهو يمني نفسه بأثمن الجوائز وأجلّ الهبات.

قال يخاطب الخصيب[٩٥]:

أنت الخصيب وهذه مصر	فتدفقا فكلاكما بحرُ
لا تقعدا بي عن مدى أملي	شيئاً فما لكما به عُذرُ

ثم يخاطب ابنته مبشراً لها باليسر القريب، وتحقيق كل ما تصبو إليه من أمنيات طالباً منها أن تتمنى وأن تسرف في أمانيها العذاب.

قال الحسن[٩٦]:

يا ابنتي أبشري بميرة مصرٍ	وتمني وأسرفي في الأماني
أنا في ذمة الخصيب مقيمٌ	حيث لا تعتدي صروف الزمانِ
كيف أخشى عليَّ غول الليالي	ومكاني من الخصيب مكاني

٩٥- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي، ص٤٧٩

٩٦- المصدر السابق: ص٤٧٧

وعندما مرّ الحسن بالشام في طريقه إلى مصر زار مدينة حمص واجتمع بشاعرها ديك الجن[٩٧] الذي كانت شهرته قد وصلت إلى بغداد وفتنت خمرياته البغداديين. ويقال إن الحسن قال له: فتنت أهل العراق بقولك[٩٨]:

مورَّدةٌ من كف ظبيٍ كأنّما تناولها من خده فأدارها[٩٩]

من الواضح أن الخصيب رحّبَ بقدوم أبي نُواس إلى مصر لزيارته، فأكرم وفادته واستطاب مدحه.

٩٧- ديك الجن: هو عبد السلام بن رغبان، أصله من السلمية وهي بلدة تبعد عن حمص إلى الشمال الشرقي قرابة خمسين كيلومتراً. ولد سنة ١٦١ هجرية/٧٧٨ ميلادية، وعاش في حمص متنقلاً بينها وبين السلمية. وكان أكثر وقته يقضيه في بساتين حمص كالميماس وغيره من متنزهات البلد ويعيش حياة صاخبة بين كأس وطاس ملأى بالمخالفة والشذوذ والتفرد.

من شعراء الشيعة الملتزمين رثى أحمد وجعفر الهاشميين. ويقول صاحب الأغاني أن له مرثية مشهورة لدى الخاص والعام في رثاء الحسين بن علي بعد مقتله في كربلاء، وكان يُناح بها في مجالس أحزان الشيعة وهي قصيدة طويلة لم يحفظ التاريخ لنا منها، سوى هذا المطلع:

يا عينُ لا للغضا ولا الكُتُبِ بُكا الرزايا سوى بُكا الطرب

عن كتاب الأغاني، المجلد الرابع عشر، ص٥١ وما بعدها.

شعره متقن متوسط الجودة لا بالرفيع ولا بالسيء المرذول أكثره في التغني بالخمر. اشتهر بمراثيه لجاريته وحبيبته ومحظيته «ورد» التي قتلها بوشاية من ابن عمه، وكذلك في رثائه لغلامه «بكر» الذي قتله أيضاً كما تروي القصص وكتب التاريخ. عن ديوان ديك الجن، تحقيق محي الدين درويش وعبد المعين الملوحي، ص٧٤

أعتقد أن حادثة قتل محبوبته وغلامه المؤلمة والجارحة ساعدت أكثر من شعره على تضخيم شهرته ونقل سمعته بعيداً خارج حمص وعلى مرّ الأجيال. توفي سنة ٢٣٥ للهجرة/٨٥٠ ميلادية.

٩٨- أبو نواس الحسن بن هانئ: خليل مردم، ص١٤

٩٩- يُشير الحسن إلى خمرية لديك الجن وصلت إلى بغداد وردّدها المثقفون وتناقلها الأدباء يقول فيها:

بها غيرَ معذولٍ فداوِ خُمارها وصِلْ بعشيّات الغَبوق ابتكارها
ونل من عظيم الردف كلَّ عظيمة إذا ذُكرت خاف الحفيظانُ نارها
وقم أنت فاحثث كأسها غير صاغرٍ ولا تسقِ إلاّ خمرها وعُقارها
فقام تكادُ الكأس تحرق كفَّه من الشمس أو من وجنتيه استعارها
ظللنا بأيدينا نتعتعُ رُوحها فتأخذ من أقدامنا الراحُ ثارها
مورّدةٌ من كفّ ظبيٍ كأنّما تناولها من خده فأدارها

عن ديوان ديك الجن الحمصي، تحقيق وشرح محي الدين درويش وعبد المعين ملوحي، ص٩٥

قال الحسن[١٠٠]:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ... فأيَّ فتىً بعد الخصيب تزورُ

فتى يشتري حُسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائراتِ تدور[١٠١]

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونه ... ولكن يصيرُ الجود حيث يصيرُ

وربما استطاب الخصيب مجلس الحسن ومنادمته بدليل أن هذه الزيارة طالت بعض الشيء، سنة وبعض السنة حتى حنَّ الحسن إلى بغداد.

قال[١٠٢]:

ذكر الكرخ نازح الأوطان ... فصبا صبوةً ولات أوانِ[١٠٣]

ليس لي مسعدٌ بمصر على الشو ... ق إلى أوجه هناك حِسانِ[١٠٤]

إذ لباب الأمير صدرُ نهاري ... ورواحي إلى بيوت القيانِ

ولما ملَّ الإقامة وضاق صدره قفل راجعاً إلى بغداد في أوائل عام ١٩١ للهجرة والرشيد مازال متربعاً على عرشها. ويُقال إنه استنفد جميع ما كان معه من مال قبل أن يصل بغداد.

● علاقة الحسن بالأمين:

وعن علاقة الحسن بالخليفة محمد الأمين، فهناك أكثر من سؤال، لكن السؤال الأكثر إلحاحاً والذي كان يتردد دائماً في أقلام الكتاب والباحثين هو: هل كانت علاقة الحسن بالخليفة الأمين أكثر قرباً وأمتن وشائجاً من علاقته مع أبيه هرون الرشيد؟!. وإلى أي مرتبة وصلت هذه العلاقة؟!.

إن بعض ما قيل ونشر عن هذه العلاقة يُعتبر من منظور الأحداث والوقائع المتوفرة

١٠٠- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٤٨١

١٠١- الدائرات تدور: أمور الدهر لا تبقي على حالة واحدة.

١٠٢- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٤٧٦

١٠٣- الكرخ: من ضواحي بغداد. نازح: بعيد. صبا: حنَّ

١٠٤- مسعد: معين.

آنذاك معقولاً ومقبولاً ويشير إلى أن الحسن «كان ينادم الأمين ويرى فيه خليلاً على الشراب، وصديقاً على اللذة»[105]. علماً أنه قام بأمر من الرشيد بدور المعلم للأمين عندما كان الأمين ولياً للعهد. وأن الأمين كان أشد ميلاً وأكثر علانية عن بعض من سبقه من الخلفاء أمويين وعباسيين إلى اللّهو والمجون حيث «حول قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص»[106]. لذلك لا أرى عائقاً يمنعه كي يُصبح شاعر الأمين ونديمه وسميره المقرب بعد أن تربع على عرش الخلافة في بغداد.

كتب عبد الحليم عباس يقول[107]:

«... ولما جاء الشاعر ليقابل الخليفة قال إبن جرير الطبري: «وقال له الأمين كن من ندماني». بلغ أمله وأدرك أمانيه ووصل إلى المنزلة التي تتطاول إليها الأعناق، وتتقطع دونها قلوب الشعراء. شاعر الخليفة ونديمه»

ووجد الحسن عند الأمين - بعد أن حصل على منزلة شاعر الخليفة ونديمه – ما لم يجده عند والده الرشيد. فغلبته مشاعره الفياضة، ولم يستطع أن يتمالكها فأنشد قائلاً[108]:

رضينا بالأمين عن الزمان	فأضحى الملكُ معمورَ المغاني
تمنينا على الأيام شيئاً	فقد بلّغتنا تلك الأماني
فمن يجحد بك النعمى فإني	بشكري الدهر مرتهنُ اللسانِ

ولشدة غبطته وسروره بهذه المنزلة التي اتخذت طريقها المطمئن الموفي إلى الغاية المبتغاة التي كان يسعى إليها ويتمناها.

قال[109]:

تغطيتُ من دهري بظلِّ جناحه	فعيني ترى دهري وليس يراني

١٠٥- المؤلفات الكاملة: الدكتور طه حسين، المجلد الثاني، ص٤١٩

١٠٦- العصر العباسي الأول: الدكتور شوقي ضيف، ص٢٢٥

١٠٧- أبو نُواس: عبد الحليم عباس، مصدر سابق، ص٦٤

١٠٨- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٤١٦

١٠٩- المصدر السابق: ص٤٦٩

وأكثر من مدح الأمين، فوصف شتى حالاته «من حلّ وترحال من حركة وشكل، من حديث واستماع، وسفر وترحال»[110]

قال الحسن[111]:

سخّرَ اللّه للأمين مطايا	لم تُسخَّر لصاحب المحرابِ
فإذا ما ركابه سِرْنَ براً	سار في الماء راكباً ليث غابِ
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العُقاب[112]

وأفرط الحسن في مديح الأمين وبالغ، حيث وضعه في بعض مبالغاته الشعرية في مصاف الإله مما فتح الباب أمام البعض أن ينسبوا الكفر إليه.

قال الحسن[113]:

فأنت نسيجُ وحدك لا شبيهٌ	نحاشيه عليك ولا خدينُ
خُلقت بلا مشاكلة لشيءٍ	فأنت الفوق والثقلان دونُ

إن هذه الأبيات وإن كانت تتضمن بعض معاني وصفات الذات الإلهية، لكنها لا يمكن أن تُحمل إلا على أنها من المبالغات الشعرية المجنحة التي تتجاوز في معانيها وصفاتها إنسانية الإنسان وحدوده. وأمام سموّ الفكر المبدع وإشراقات الفن الأصيل وتجلياته، لا قيمة لنقيق وهرطقة المتفقهين.

ومن القصص الطريفة العجيبة التي زُعم أنها حدثت له مع الخليفة الأمين، قصة ذكرها صاحب العقد الفريد، وهي قصة قد تكون موضوعة ومركبة شأن مثيلات لها قالوا أنها حدثت له مع الرشيد. وربما كان لا حظ لها من الحقيقة أكثر من كونها تصورات تسنمت صهوة مخيلة واضعيها، لكنها مع ذلك تشير بشكل عام إلى المكانة الأثيرة والمتفوقة التي تصدرها الحسن في تلك الفترة بين شعراء قصر الخليفة.

١١٠- أبو نواس بين التخطي والالتزام: الدكتور علي شلق، ص٣٣٠

١١١- ديوان أبي نواس: الغزالي، ص٤١٤

١١٢- يشير بذلك إلى أسماء مطايا الأمين البحرية التي منها: الدلفين، الأسد، العقاب، الكوثرية...

١١٣ - المصدر السابق: ص٤١٩

كتب صاحب العقد الفريد يقول[114]:

«... حدَّثَ أبو جعفر قال: بينا محمد بن زبيدة الأمين يطوف في قصر له إذ مرّ بجارية له سكرى وعليها كساء خزٍ تسحب أذياله، فراودها عن نفسها.

فقالت: يا أمير المؤمنين أنا على ما ترى، ولكن إذا كان في غدٍ إن شاء اللّه.

فلما كان من الغد مضى إليها فقال لها: الوعد.

فقالت: يا أمير المؤمنين أما علمت أن كلام الليل يمحوه النهار؟.

فضحك وخرج إلى مجلسه.

فقال من بالباب من شعراء الكوفة؟

فقيل له: مصعب والرقاشي وأبو نُواس.

فأمر بهم فأدخلوا عليه، فلما جلسوا بين يديه.

قال: ليقل كل واحد منكم شعراً يكون آخره «كلام الليل يمحوه النهار».

فأنشأ الرقاشي[115]:

متى تصحو وقلبك مستطارٌ	وقد مُنع القرارُ فلا قرارُ
وقد تركتك صبّاً مستهاماً	فتاةٌ لا تزورُ ولا تُزارُ
إذا استنجزت منها الوعد قالت	كلام الليل يمحوه النهارُ

وقال مصعب الشاعر:

١١٤- العقد الفريد: أحمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلد الثامن، ص١٠٤ وما بعدها.

١١٥- الرقاشي: هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش وهو من ربيعة. شاعر مطبوع سهل الشعر نقي الكلام. وكان مع تقدمه في الشعر ماجناً خليعاً متهاوناً بالفروض الدينية. مدح الرشيد فأجازه إلا أنه انقطع إلى آل برمك فأغنوه عن سواهم فكانوا يصولون به على الشعراء ويروون أولادهم أشعاره تعصباً له وحفظاً لخدمته. وللرقاشي قصيدة يوصي فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة بين الناس الخاصة والعامة، مطلعها:

أوصى الرقاشي إلى إخوانه	وصية المحمود في ندمانه

عن كتاب الأغاني: المجلد السادس عشر، ص٢٤٥ وما بعدها.

أتعذلني وقلبك مستطارٌ كئيبٌ لا يقرُّ له قرارُ
بحب مليحةٍ صادت فؤادي بألحاظ يخالطها احورارُ
ولما أن مددت يدي إليها لألمسها بدا منها نفارُ
فقلت لها عديني منك وعداً فقالت في غدٍ منك المزارُ
فلما جئتُ مقتضياً أجابت كلام الليل يمحوه النهارُ

وقال أبو نُواس:

وخودٍ أقبلت في القصر سكرى ولكن زيَّن السُكرَ الوقارُ
وهزَّ المشيُ أردافاً ثقالاً وغصناً فيه رمانٌ صغارُ
وقد سقط الردا عن منكبيها من التخميش وانحلَّ الإزارُ
هممت بها وكان الليلُ ستراً فقام لها على المعنى اعتزارُ
وقالت في غدٍ فمضيتُ حتى أتى الوقتُ الذي فيه المزارُ
فقلتُ الوعد سيدتي فقالت كلام الليل يمحوه النهارُ

فقال له: أخزاك الله... أكنت معنا ومطلعاً علينا؟!.

فقال يا أمير المؤمنين عرفتُ ما في نفسك فأعربت عما في ضميرك».

فأمر له بأربعة آلاف درهم ولصاحبيه بمثلها».

ومع أن الأمين كان ماجناً، فإن علاقة الحسن به لم تستمر كما كان يتمنى أبو نواس ويرغب أكثر من سنتين فقط. فبعد أن اشتعلت نار الفتنة بين الأخوين وسيرت الجيوش لتقطيع الأرحام «جعل رجال حزب المأمون في خراسان يقرؤون شعر أبي نواس في الخمر والمجون على المنابر ثم يقولون للناس هذا شعر شاعر الخليفة في بغداد، ويحاولون بذلك أن يُنفروا الناس من الأمين ويدعوهم إلى خلعه»[١١٦]

أجل لقد بدأ الأمين يشتط في معاملة الحسن بعد أن اشتعلت نار الفتنة، ثم عمد إلى حبسه أكثر من مرة «كان آخرها طويلاً حتى ظن أبو نواس أن لانجاة له منها فقال مقطوعة في آخرها:

١١٦- أبو نواس شاعر هرون الرشيد ومحمد الأمين، الدكتور عمر فروخ، ص٢٢

أما الأمين فلست أرجو دفعه   عني فمن لي اليوم بالمأمون[117]

لقد أقصى الأمين أبا النواس في أواخر عهده، وقرب إليه الحسين الخليع «الذي أخلص له وتفانى في حبه حتى موته، وأكثر من هجاء المأمون حتى أشفق عليه أبو العتاهية منها»[118]

عمد عدد من الرواة وكتاب سيرة الحسن، مثل ابن منظور المصري وغيره، وكذلك بعض الدارسين والكتاب في العصر الحديث ممن نقلوا عن ابن منظور وغيره، إلى وصم العلاقة بين الأمين والحسن بميسم الانحراف، وأثاروا حولها الشبهات . فاتهموا الحسن بأنه ربما كان كلفاً بالأمين، بل ربما يكون قد اشتهاه. وأن غزل الحسن بكوثر صبي الأمين هو في الحقيقة تغزل بالأمين نفسه.

قال ابن منظور:[119]

«..قالوا أن أبا نواس كان يشرب يوماً مع الأمين... فنشط للسباحة فلبس ثياب ملاح، ولبس كوثر مثل ذلك ووقعا في البركة

فنظر أبو نواس إلى بدن محمد فرأى مالم ير مثله فلما كان من غد جاء الحسين بن المنذر مسلماً عليه.

قال الحسين: فسألته عن خبره مع محمد؟

فقال: ويلك رأيت الفتنة، ثم حدثني بخبره، وأنشد:[120]

أصبحت صباً ولاأقول بمن   من خوف من لايخاف من أحد

إن أنا فكرت في هواي له   حسست رأسي قد طار عن جسدي

إني على ما ذكرت من فرقي   لا آمل أن أناله بيدي

١١٧- المصدر السابق: ص٢١

١١٨- أبو نُواس: عبد الحليم عباس، مصدر سابق، ص٦٩ وما بعدها.

١١٩- أخبار أبي نُواس: لابن منظور المصري، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٢٢٠

١٢٠- الأبيات وردت في ديوان أبي نواس تحقيق الغزالي، في الصفحة ٤٢٥ مع بعض التعديل في الكلمات دون أن يختلف معناها العام.

قال الحسين: فقلت له ويحك اتق الله في رأسك، فإنه إن بلغه ذلك قتلك. فأمسك أبو نواس بعد ذلك».

ويروي ابن منظور أيضاً قصة احتيال الحسن لتقبيل الأمين بمعونه الكسائي(١٢١) الذي كان يعلم الأمين النحو، كما يروي أبياتاً لأبي نواس قالها في الأمين أباح دمه عليها وهي:

يا قاتل الرجل البريء وغاصباً عز الملوك
كيف السبيل لِلَثم سالفتيك أو تقبيل فيك؟
الله يعلم أنني أهوى هواك واشتهيك
وأصد عنك حذار أن تقع الظنون عليَّ فيك
إني أهابك أن أبوح بما أجن وأتقيك(١٢٢)

وفي محاولة لتأكيد ما أشيع من شبهات عن علاقة الحسن بالأمين بهدف وصم هذه العلاقة والإساءة إليهما

كتب الدكتور على شلق يقول:(١٢٣)

«... إننا نلاحظ في مدائحه التي قالها في الأمين تكريراً للفظ البدر، الشمس، الوجه، وكل ماينتسب إلى الجمال الحسي. ولست أدري بأي دافع باطني يقصد هذا. فهل أن هنالك بينهما من الصلات ما يتبادر إلى الذهن...؟ أو أنه لم يجد فيه ما يقول غير ذلك»

١٢١- الكسائي: هو أبو الحسن علي بن حمزة توفي نحو ٨٠٥ للميلاد. نحوي مقرئ ولد نحو سنة ٧٣٧ للميلاد بباحمشا بالعراق. انتقل إلى الكوفة غلاماً فدرس القرآن على حمزة الزيات وغيره. ثم تحول إلى دراسة النحو - بعد كبره - على الهراء والرواسي الكوفيين وأبي عمر بن العلاء ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر والخليل بالبصرة. درس العربية على القبائل في البادية التي تجول فيها، ثم أقام ببغداد. عهد إليه الرشيد بتأديب ولديه الأمين والمأمون. صار إمام الكوفيين في النحو ومؤسس مدرستهم، وصاحب قراءة من القراءات السبع المشهورة. ألف «معاني القرآن» و «الحروف» و«القرآات» و«النوادر» و «العدد» و «مقطوع القرآن وموصوله» وله رسالة «في ما يلحن فيه العامة» ومناظرة مشهورة مع سيبويه. دفن بجوار الري في العراق.

١٢٢ أخبار أبي نواس: لابن منظور المصري، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول. ص٢٢٠ وما بعدها، وص٢٣٢ وما بعدها.

١٢٣- أبو نواس بين التخطي والالتزام، الدكتور علي شلق، ص٥١ وما بعدها.

أعتقد أن الحسن لم يجد في الأمين من خصال أو صفات يمكن أن يبرزها إلاّ صفاته الجسدية، فتغنى بمحاسن خلقته الشكلية على الرغم من أنه حاول في بعض الأحيان المبالغة في وصف صفاته العقلية جرياً على أسلوب المداحين الذين كثيراً ما رددوا مثل هذه المعاني في أشعارهم.

قال الحسن:[١٢٤]

ملك إذا اعتسر الأمور مضى به رأي يَفُلُّ السيف وهو حسام[١٢٥]

غير أن الدكتور علي شلق لايلبث أن ينحاز بوضوح كامل إلى مواقف تؤكد الشبهة، وتوجه سهام الاتهام عندما أردف معلقاً على قول الحسن في قصيدة يخاطب بها الأمين عندما حبسه.

قال الحسن[١٢٦]:

قــد كــنــتُ آمــل غــيــر ذا لو كنت تنصفُ في القياس

ويقول الدكتور شلق[١٢٧]:

«... تأمل قوله: «لو كنت تنصف في القياس» فهو قول عشير وصديق رفع الكلفة بينه وبين الخليفة».

إن تفسير الأمور ضمن هذا المنحى فيه تجنٍّ كبير وكبير جداً على العلاقة التي قامت بين الخليفة الأمين وشاعره أبي نواس، ونرى أن معظم هذه الروايات وتلك القصص والأخبار مبالغ بها. وربما كانت موضوعة عن سابق إصرار وتصميم، ومخرجة بشكل يهدف إلى تشويه سمعة الاثنين معاً. بهدف وصمهما بالانحلال والتخنث، وهي صفات دون لا يمكن أن يتقبلها المجتمع على الرغم من أنه تقبل ظاهرة المجون وإدمان الراح والتهتك. ولا يمكن أن يغفر لأصحابها خاصة إذا كان الموصوم بالانحلال والتخنث خليفةً أو شخصاً بمنزلة شاعر كأبي نواس، وتلحق من يوصم بها وبسمعته

١٢٤- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٤٠٩

١٢٥- اعتسر الأمور: استولى عليها ووجهها الوجهة التي يريد. يَفُلُّ السيف: يكسره.

١٢٦- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزوالي، ص٤٢٤

١٢٧- أبو نُواس بين التخطي والالتزام: الدكتور علي شلق، ص٥٢

أذىً كبيراً. ونميل إلى أنها تندرج في سياق الحملة التي شنها المأمون ضد أخيه محمد الأمين وشاعره الحسن. ويتطلب منا هذا الأمر يقظة وحذراً شديدين، لأن التاريخ يُكتب دائماً كما يريد المنتصر، والناس غالباً تتملق الغالب وتذم المغلوب وتلحق به المثالب.

●علاقة الحسن مع رجال السلطة وبعض عظماء عصره:

أما عن علاقة الحسن بالخلفاء والوزراء وعظماء عصره بشكل عام، فقد عُرف عن الحسن، وأجمعت على ذلك جميع المصادر التي تناولت حياته وفنه وشعره أنه «كان يهرب من الخلفاء والملوك ويلام على ذلك... فيقول والله لكأني على النار إذا دخلت عليهم حتى انصرف إلى إخواني ومن أشاربه، ولأني إذا كنت عندهم فلا أملك من أمري شيئاً»[١٢٨].

هذا الأمر يشير بشكل لا لبس فيه إلى أن موقفاً خاصاً من الخلفاء تميز به الحسن، جعله لا يصبر على لقائهم ومداهنتهم كغيره من الشعراء. ويؤكد هذا الأمر العديد من القصائد التي يسخر فيها من الخلفاء سخرية مبطنة، ويسعى من خلالها إلى فضحهم وتعرية سلوكهم وعلاقاتهم «حتى كأن مجاهرة أبي نواس بشرب الخمرة أمام الخليفة وتغزله بالغلمان كان يقصد من ورائها تعرية الخليفة وكشف صورته الحقيقية أمام الناس»[١٢٩]. ذلك الخليفة الذي أصبح «للدين نوراً يقتبس»؟

كما يقول الحسن[١٣٠]:

نـبّـه نـديـمـك قـد نَـعَـس	يسقيك كأساً في الغَلَس[١٣١]
صِـرفـاً كـأنَّ شـعـاعـهـا	فـي كـفِّ شـاربـهـا قَـبَـسْ
تَـدَعُ الـفـتـى وكـأنّـمـا	بـلـسـانـه مـنـهـا خـرس
يُـدعـى فـيـرفـعُ رأسـه	فإذا استقَلَّ بـه نـكـس[١٣٢]

١٢٨- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص٢٠٢

١٢٩- أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد: الدكتورة أحلام الزعيم، ص٥٤

١٣٠- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٤١٧

١٣١- الغَلَس: ظلمة آخر الليل.

١٣٢- نكس: انقلب. والمعنى أنه ما كاد يرفع رأسه لمن يدعوه حتى ينقلب لغلبة السكر عليه.

يسقيكها ذو قرطق يُلهي ربُعجل من حَبَش[133]

خُنثُ الجفون كأنه ظبي الرياض إذا نَعَس

أضحى الإمامُ محمدٌ للدين نوراً يُقتبس

ورثُ الخلافة خمسةٌ وبخير سادسهم سَدُس[134]

تبكي البدور لضحكه والسيف يضحك إن عبسْ

ويقول في قصيدة أخرى[135]:

وُجيهُ محمدٍ شمس وملكُ محمدٍ عُرسُ

شهيداي على ما قلتُ فيه الجنّ والإنسُ

وهل من تهكم لاذع أكثر من تصغير وجه خليفة لا تغيب عن إمبراطوريته الشمس بشهادة الجن والإنس؟!. أو من نصفُ رأس خليفة يرفع؟ كما صرح بذلك وقال[136]:

إن أنت لم ترفع به رأساً فُديت فنصف رأسي

وهل من اتهام أكبر لشخص الخليفة، ومن أسف يقطر مرارةً وألماً على ما آلت إليه حُرمة سدة الخلافة من أن أمير المؤمنين شارب خمرة وصديق وفيّ لها؟ عندما قال[137]:

أأرفضها والله لم يَرفُضِ اسْمَها وهذا أمير المؤمنين صديقها

هل من غمز ولمز أكثر عندما اعتبر ملك بني العباس وعروشهم من السفاح إلى الأمين لا شيء.

قال الحسن[138]:

كأن الملكَ لم يكُ قبلُ شيئاً إلى أن قام بالمُلك الأمينُ

١٣٣- يلهي: يشغل. بعجل من حبش: بُعجل من منع الكأس فلم يدر بها.

١٣٤- المعروف أن محمد الأمين سادس خليفة عباسي، والخمسة الذين سبقوه هم السفاح، المنصور، الهادي، المهدي، الرشيد.

١٣٥- المصدر السابق، ص٤١٨

١٣٦- المصدر السابق، ص٤٢٤

١٣٧- المصدر السابق، ص٩

١٣٨- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٤١٩

ولكن في سبيل من أُعتبرت هذه العروش لا شيء؟. وهو أمر يجافي الحقيقة ويؤلمها كالمخرز في العين، في سبيل الخليفة محمد الأمين الذي بفضل نور وجهه لبس الإسلام شبابه.

قال[139]:

ملكٌ أغرُّ إذا شربت بوجهه | لم يَعْدُك التبجيلُ والإعظام[140]
فالبهو مشتملٌ ببدر خلافة | لبسَ الشبابَ بنوره الإسلام[141]

أجل في سبيل محمد الأمين الذي قام بأحكام الله والتزم بسنته عندما قال فيه[142]:

تضحك الدنيا إلى ملكٍ | قام بالأحكام والسنن

ولكن أية أحكام تلك التي كان يقوم بها الأمين ويرعاها؟.. أية سنن تلك التي كان يلتزم بها وهو الذي عُرف عنه ما عُرف من استهتار ومجون.

ثم هل من مهانة أكثر عندما يُساوى الخليفة بوزيره؟.. ولا تقوم هذه المساواة على حسن تدبير الخليفة للأمور وسعة علمه، بل لأنه فقط وريث خلافة. ثم يميز وزيره عليه بدرجات.

قال[143]

لعَمركَ ما غاب الأمين محمدٌ | عن الأمر يعنيه إذا شهد الفضلُ
ولولا مواريثُ الخلافة أنها | له دونه ما كان بينهما فضلُ[144]
فإن تكن الأجسام فيها تباينت | فقولهما قولٌ وفعلهما فعلُ
أرى الفضل للدنيا وللدين جامعاً | كما السهم فيه الريش والفوق والنصلُ

139- المصدر السابق، ص408

140- لم يعدك: لم يجاوزك.

141-البهو: البيت المقدم أمام الغرف. ولعله أشبه ما يكون بغرفة استقبال كبيرة.

142- المصدر السابق، ص413

143- المصدر السابق، ص449

144- ما كان بينهما فضل: أي زيادة في الشرف.

وإذا كان الفضل سهماً كامل الأهبة للدنيا والدين، وجاهزاً لكل الملمات، فماذا يبقى لخليفة المسلمين الأمين؟!.. الذي اعتبر فترة خلافته فخر المجد العباسي، بل لا مجد لآل عباس قبلها؟!....

ثم هل يصح أن يتوسل النواسي في قصيدة أخرى إلى مدح الفضل بن الربيع بمدح الخليفة هرون الرشيد رأس مجد الخلافة العباسية ثم يقول بالفضل قولاً كان هرون به أولى.

قال الحسن[145]:

قولا لهارون إمامِ الهُدى	عند احتفال المجلس الحاشدِ[146]
نصيحةُ الفضل وإشفاقُه	أخلى له وجهَك من حاسدِ[147]
أنت على ما بك من قدرةٍ	فلستَ مثلَ الفضل بالواجدِ[148]
أوجده اللّه فما مثله	لطالبٍ ذاك ولا ناشدِ
وليس لله بمستنكرٍ	أن يجمع العالم في واحدِ

علماً أنه جعل من الفضل بن يحيى في ممدوحةٍ أخرى واسطة خير؟!. أو على الأرجح جعل منه قواداً قد يُصلح ما بينه وبين من يهوى.

قال[149]:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالدٍ	هواكِ لعلَّ الفضلَ يجمع بيننا

ناهيك عن ما قاله في العباسة أخت الرشيد وعمّة الأمين من تعريض خفي بالخليفة الأمين، وفضح أساليب البطش والإستبداد التي كان يستخدمها مع خصومه.

قال الحسن[150]:

١٤٥- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٤٥٤

١٤٦- احتفال المجلس الحاشد: اجتماع الحفل الجامع الكبير.

١٤٧- يقول: أن الفضل ناصح للرشيد مشفق عليه، وليس له حاسد لديك تصدقه فيه.

١٤٨- لن تجد مثل الفضل في مدى طاعته لك وإن كنت ذا مقدرة باهرة.

١٤٩- المصدر السابق: ص٤٧٤

١٥٠- المصدر السابق: ص٥٢٠

ألا قُــلْ لأمـــين الــلّـــه ... وابــن الــقـــادة الــسّـــاسَـــة
إذا مــــا نـــاكـــثٌ ســـرّك ... أن تـــفـــقـــده راسَـــــة
فــلا تــقــتــلــه بــالــســيــفِ ... وزوّجـــه بـــعـــبـــاســـه

●ثروة الحسن:

إذا كان هذا هو موقفه من الخلفاء والوزراء، فلماذا كان يسعى جهده إلى التقرب منهم وهو الذي لا يصبر على لقائهم، ويغمز في سلوكهم ويعري علاقاتهم؟ هل من أجل هدف سياسي فقط، أو في سبيل قضية آمن بها وعمل لها سراً لدرجة استطاع أن يمرغ في الوحل السلطة العباسية في شخص خلفائها كما رأينا؟!. أم أن هناك سبباً آخر إلى جانب السبب الأول اعتبره الحسن عوناً على التقى لا بدَّ منه ألا وهو المال؟!.

أجل لم يك تردد النواسي على الخلفاء والوزراء وغيرهم من العظماء من آل برمك وآل الربيع، وسميه لأن يُحسب على بعضهم ويُعتبر شاعراً ونديماً لهم إلاّ لأنهم السبب الذي يجب أن يعينه على العيش وهو الذي قدم بغداد ولا يملك من الأداة التي تعينه على العيش في عاصمة شهرزاد ذات التكاليف الباهظة إلا شعره.

قال[151]:

سأبغي الغنى إما نديمَ خليفةٍ ... يقومُ سواءً، أو مُخيفَ سبيل[152]
ألم تَرَ أن المال عون على التُّقى ... وليس جوادٌ معدِمٌ كبخيل[153].

وفي بغداد حالفه الحظ فمدح خليفة وجالس آخر، وانقطع إلى وزير، وزار محتسباً، ومدح عظيماً.

قال[154]:

الحمد لله ليس لي نشبٌ ... فخفَّ ظهري وقلَّ زوّاري

١٥١- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي، ص١٧

١٥٢- سأبغي: سأطلب. سواءً: عدلاً ووسطاً. مخيف سبيل: قاطع طريق.

١٥٣- عون: معين. معدم: فقير.

١٥٤- المصدر السابق: تحقيق الغزالي، ص٤٣٧

إني انتجعتُ العباس ممتدحاً ... وسيلتي جوده وأشعاري[١٥٥]

إنـي حـريٌّ بـأن يـبـدلـنـي ... جـودُ يـديـه يُـسـراً بـإعـسـارِ

عـن خـبـرةٍ حيثُ لا مخاطـرةٌ ... وبـالـدَّلالات يـهـتـدي الـسـاري

فهل أدرك المال الذي قال عنه: إنه عون على التقى..؟ وهل حصل على هباتٍ ومِنَح واعطيات جعلت منه موسراً غنياً؟..، يملك ثروة كبيرة تقوم بأود حاجاته، حيث يغتدي إلى الحانات يقرعها وقد ترفعت الثريا في مدائن القُفص وقرى الكرخ وهو صريع غزلان وكاسات. هل حصل على ثروة طائلة جعلته يستغني عن الوقوف على الأبواب كما تمنى وترجّى؟!.

كل الروايات أجمعت على أنه مات فقيراً فلم يترك إلا قمطراً، بمعنى «صندوق دفاتر فيه أشعار وشطرنج وعود ونرد وطنبور»[١٥٦]. وأن مجموع قيمة ما خلفه لأمه جُلّبان التي ورثته بلغت مائة دينار[١٥٧]. بينما ترك غيره من الشعراء ممن دون قدره في عالم الشعر ثروات كبيرة. فعلى سبيل المثال كما يقول عبد الحليم عباس[١٥٨]: «ذكرت كتب الأدب أن سلماً الخاسر[١٥٩] خلف ثروة طائلة تقدر

١٥٥- انتجعت العباس: طلبت معروفه. وأصل انتجع: طلب الكلأ في موضعه.

١٥٦- الدكتور علي شلق: أبو نواس بين العخطي والالتزام، ص٢٨

١٥٧- أبو نُواس شاعر هرون الرشيد ومحمد الأمين: الدكتور عمر فروخ، ص٢٣

١٥٨- أبو نُواس: عبد الحليم عباس، ص٧٣

١٥٩- سلم الخاسر: هو مسلم بن عمرو من موالي تيم عشيرة أبي بكر الصديق. ولد بالبصرة وبها نشأ. لقب بالخاسر لأنه اشترى بمصحف ورثه عن أبيه طنبوراً. يقول عنه أبو الفرج: «شاعر مطبوع متصرف في فنون الشعر، من شعراء الدولة العباسية وهو راوية بشار بن برد وتلميذه، وعنه أخذ ومن بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر». عن الأغاني المجلد التاسع عشر، ص٢٦١

تفتحت له أبواب الخلافة منذ عصر المهدي. تخلى عن اللّهو والمجون والتزم جانب الوقار وشعره يؤكد أن المديح لم يترك فيه بقية لفن آخر سواه. كان يتأنق تأنقاً شديداً في ملبسه ومظهره ويحيا حياة مترفة ناعمة. قال أبو الفرج: «كان سلم يأتي باب المهدي على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم، والسرج واللجام المقدوذين (المقدود المزين) ولباسه الخزّ والوشي وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ورائحة المسك والغالية والطيب تفوح منه». عن الأغاني المجلد العاشر ص٧٧ أشعاره مليئة بالرشاقة والعذوبة والنعومة، وحياته مازالت تجري رخاءً حتى توفي سنة ١٨٦ للهجرة.

بخمسين ألف دينار عدا الضياع، ومثله بل يزيد عليه مروان بن أبي حفصة»[١٦٠]

فهل عدم تركه ثروة تذكر يعني أنه لم يُعط شيئاً يستحق الذكر من قبل عظماء عصره الذين مدحهم ونادمهم وحسب عليهم؟!.، وبشكل خاص الرشيد والأمين. لقد قيل إن الرشيد أجازه بعشرين ألف درهم لوصفه الجارية التي رآها تغتسل[١٦١]. وأنه «نال من الرشيد عدة جوائز في مثل هذه وفوقها»[١٦٢]. مثل قصيدته التي مدحه فيها ومطلعها «حيِّ الديار إذ الزمان زمان»[١٦٣].

ناهيك عن أعطيات آل الربيع والخصيب «ذكر ابن منظور في غير موضع واحد أن الخصيب أعطاه بعض الجواري وبعض الغلمان وأكثر من ثلاثة آلاف دينار»[١٦٤].

تفيد هذه الأقوال أنه حصل من الذين مدحهم على ما فيه الكفاية أو دون ذلك بقليل، وإلا كيف كان يستطيع أن يعيش وهو الكريم المسرف المتلاف عيشته اللاهية العابثة المشرقة في حدائق بغداد وضواحيها وما جاورها من مطارح للتنزه والقصف.

١٦٠- مروان بن أبي حفصة: ويكنى أبا السِّمط. شاعر عربي ولد سنة ١٠٥ للهجرة/٧٢٤ ميلادية وتوفي سنة ١٨٢ للهجرة/٧٩٨ ميلادية. كان جده أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم. وقد اختلف في أصل جده فقيل إنه من يهود خراسان. نشأ على حب الأمويين وكره العلويين. تقرب من خلفاء بني العباس بتأييد حقهم بالخلافة، فمدحهم مدائح سياسية اعتمد فيها إلى الدفاع عن حقوق العباسيين في الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقوق. ومن هذه القصائد قوله يخاطب المهدي:

يا بن الذي ورث النبي محمداً	دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم	قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضةً	نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن	لبني البنات وراثة الأعمام

انقطع إلى مدح معن بن زائدة الشيباني ومازال يوالي مديحه له حتى توفي فرثاه رثاءً حاراً شهيراً. «وكان مروان أبخل الناس على يساره وكثرة ما أصابه من الخلفاء». عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني المجلد العاشر، ص٧٧ . لغة مروان الشعرية جميلة محكمة صافية ربما يعود ذلك إلى نشأته في اليمامة.

١٦١- أخبار أبي نواس: لابن منظور المصري تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٢١٥

١٦٢- أبو نُواس بين التخطي والالتزام: الدكتور علي شلق، ص٤٦

١٦٣- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي، ص٤٠٤

١٦٤- أبو نواس بين التخطي والالتزام: الدكتور علي شلق، ص٤٦ نقلاً عن ابن منظور المصري تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٢٤٠

قال الحسن[١٦٥]:

قُطربُلٌ مربعي ولي بقرى الكرخ مصيف وأمي العنبُ
تُرضعني دَرُّها وتلحفُني بظِلِّها والهجيرُ يلتهبُ

كيف يستطيع أن يعيش وينفق؟ وهو زعيم طريقة في الأدب والحياة وله موقف من السلطة والمجتمع، وحوله رفاقه ومريدوه، وصاحب مذهب لذيٍّ يقتضي المتعة ويتطلب الإنفاق.

قال[١٦٦]:

عاجَ الشقيُّ على دارٍ يُسائلُها وعُجتُ أسألُ عن خمارة البلدِ[١٦٧]
لا يُرقِئُ اللّه عينيْ من بكى حجراً ولا شفى وجدَ من يصبو إلى وتدِ[١٦٨]
دعْ ذا عدمتُكَ، واشربها معتقةً صفراءَ تُعنِقُ بين الماءِ والزَّبدِ[١٦٩]
من كفِّ مختصرِ الزُّنارِ معتدلٍ كغُصنِ بانٍ تثنى غير ذي أودِ
لمَّا رآني أبوه قد قعدتُ لهُ حيَّا، وأيقن أني متلف صفدي[١٧٠]
فجاءني بسُلافٍ لا يحقُّ لها ولا يملّكها إلّا يداً بيدِ
اسمعْ وجُدْ بالذي تحوي يداك لها لا تدخرِ اليومَ شيئاً خوفَ فقر غدِ
كم بين من يشتري خمراً يلذُّ بها وبين باكٍ على نؤيٍ ومنتضدِ[١٧١]

إلا أن الذي تمنحه وحصل عليه يؤكد أنه لم يكن بحجم الأعطيات التي حصل

١٦٥- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي، ص٤

١٦٦- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي، ص٤٦

١٦٧- عاج: أقام ووقف ورجع وعطف رأس البعير بالزمام. الشقي يقصد به الذي يقف على الطلول مسائلاً إياها عمن كان بها من السكان، وهو لفظ سخرية واستهزاء.

١٦٨- رقأ الدمع: جف وسكت. وجد: حزن. يصبو: يحن.

١٦٩- تعنق: تسرع وتتحرك. والعنق نوع من سير الإبل. يشير بذلك إلى حركة الخمر في الكأس حين يصب عليها الماء فيكون لها زبد عالق بها فهي تتحرك مشاهدة بين الزبد والماء.

١٧٠- صفدي: عطائي أو ما معي من دراهم ودنانير.

١٧١- نؤي: النؤي الحفير حول الخيمة يمنع عنها السيل. منتضد: اسم مكان من التنضد بالمكان أقام.

عليها مروان بن أبي حفصة وأبان اللاحقي اللّذان تشيعا للبيت العباسي ونافقا لرجاله من خلال الزراية على أهل البيت. بل كانت دون قدره ودون حظ رفاقه من الشعراء ممن يعلو عليهم في عالم الشعر درجات. فكسدت تجارته الشعرية ولم تُرَجْ شعره عند صيارفة السياسة في بغداد.

قال[١٧٢]:

إني لآمل يا خصيبُ على	يَدِكَ اليسارةَ آخر الدهرِ
وكذاك نغم الشوقُ أنت لمن	كسدَت عليه تجارة الشعرِ
فانقع بسيبك غُلّةً نزحتْ	بي عن بلادي وارتهن شكري[١٧٣]

فهل نقع الخصيب غلته؟، وهل قدر أن يرتهن شكره؟.، يقول ابن منظور في مكان آخر: «إن النواسي ذكر له: أن الخصيب لم يهب له سوى مائة دينار والناس يكثرون في ذلك»[١٧٤]

في الواقع كان الحسن كريماً مسرفاً متلافاً. وأن نمط الحياة الذي عاشه مع أصحابه ومريديه لم ولن تنقع غلته مثل هذه الأعطيات والهبات مهما بلغ مقدارها. لذلك كان دائماً ضيق الجيب. فيكاد لا يحصل على مبلغ من المال حتى يجتمع مع أصحابه وينفق ما حصل عليه ولسان حاله يقول[١٧٥]:

أنت للمال إذا أمسكته	فإذا أنفقته فالمال لك

وكيف تقوم بأوده وهو الذي عرف عنه أنه كان يرعى عهد أصحابه ويسعى دائماً إلى مساعدتهم ومواساتهم فلا يقتابهم ولا يتنكر لهم.

قال أبو نُواس[١٧٦]:

١٧٢- المصدر السابق، ص٤٨٥

١٧٣- أنقع: أشفِ- السيب: العطاء. الغلة: العطش. ارتهن شكري: اجعله رهينة بين يديك.

١٧٤- أخبار أبي نُواس: لابن منظور المصري، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، ص٢٤٢

١٧٥- مجمع الحكم والأمثال: أحمد تيش، ص٤٨٨

١٧٦- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٣٦٠

لا أعـــزُ الــدهـــر ســمــعـــي	لــيــعــيــبــوا لـــي حــبــيـــا
لا ولا أذخــــرُ عــــنـــــدي	لـــلأخــــلاء الـــعـــيـــوبـــا
أحــفــظُ الإخـــوان كــيــمـــا	يــحــفــظـــوا مـــنـــي المغــيــبــا

من مواقفه الإنسانية المواساة التي تدل على نبله وكرمه، موقفه من الشاعر ابن مناذر[177] عندما أمر به الرشيد فلطم على وجهه وسُحب من رجله وحرم من أعطياته لأنه مدح البرامكة بعد نكبتهم. فوقف أبو نُواس على رأسه وقال مواسياً: «أعززْ عليَّ واللّه يا كبيرنا بما جرى عليك»، ودفع إليه صرة وقال: «تبلغ بما في هذه». قال ابن مناذر: «فظننتها دراهم فإذا هي مائة دينار قال الصولي في خبره: فإذا هي ثلاثمائة دينار»[178].

ويبدو أن بعضاً من الذين تعودوا على مرافقته إلى حدائق القفص وحانات بغداد وغيرها ما وسعهم يساره كان يجذون حبل وداده إذا ما أفلس وأنفق جميع ما حصل عليه. لذلك كان ينبه إلى مثل هؤلاء البشر ممن لا تصفوا مودتهم. وينصح بعدم التعامل معهم، نصيحة مجرب خبر الناس والأيام.

قال[179]:

اشرب على الورد في نيسان مُصطبحاً	من خمر قُطرُبُّلٍ حمراء كالكاذي[180]
واخلع عذارك لا تأتي بصالحةٍ	مادمت مستوطناً أكناف بغداذِ

١٧٧- ابن مناذر: هو محمد بن مناذر مولى بني صُبير بن يربوع، ويكنى أبا جعفر وقيل كان يكنى بـ أبي عبد اللّه. شاعر فصيح مقدم في العلم باللغة وإمام فيها وفي كلام العرب، وقد أخذ عنه أكابر أهلها. كان في أول أمره يتأله متنسكاً ملازماً للمسجد كثير النوافل، جميل الأمر إلى أن فُتن بعبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي المحدث الجليل. فتهتك بعد ستر وفتك بعد نسك. وعدل بعد موت عبد المجيد إلى الهجاء فهجا الناس وشتم الأعراض وقذف المحصنات وأظهر البذاء حتى نفي عن البصرة إلى الحجاز فمات هناك. وعندما عدل عن نسكه وتهتك وعظته المعتزلة فلم يتعظ، وأوعدته بالمكروه فلم يزدجر. فمنعوه من دخول المسجد، فنابذهم وطعن عليهم وهجاهم.

وكان يأخذ المداد بالليل فيطرحه في مطاهرهم، فإذا توضئوا به سوّد وجوههم وثيابهم» عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، المجلد الثامن عشر، ص١٦٩ وما بعدها.

١٧٨- كتاب الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، المجلد الثامن عشر، ص٢٠٢

١٧٩- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي، ص٦٨٥

١٨٠- الكاذي: شجر له ورد.

نعّمْ شبابك بالخمر العتيق، ولا تشرب كما يشربُ الأغمار من ماذي[١٨١]

صِلْ من صفت لك في الدنيا مودّتُه ولا تصِلْ بإخاءٍ حبلَ جذّاذِ[١٨٢]

يعوذ باللّه إن أصبحتَ ذا عدمٍ وليس منك إذا تُثري بمعتاذِ

وكان إفلاس الحسن المتكرر موضع شكوى منه للناس فلنسمع إليه كيف يشكو ضيق ذات يده.

قال[١٨٣]:

إن دام إفلاسي على ما أرى هجرتُ إخواني وأصحابي

وبعتُ أثوابي وإن بعتها بقيتُ بين الدّار والباب

وقال أيضاً بمرارة وأسى[١٨٤]:

الحمدُ لله ألم ينهني تجربةُ الناس عن الناس

فأمتّع النفس هواها فقد أذلني للناسِ إفلاسي

سكتُ للدهر وأحداثه حتى خرا الدهرُ على راسي

وقال يصف أحواله[١٨٥]:

تقول ليَ الركبان مالك راجلاً وكنت ركُوباً عصر نحن رجالُ[١٨٦]

نقلتُ علاني عن ركُوب وملبسٍ ذوو رَحِمٍ آثرتهم وعيالُ

فمن يكُ بغلاً أو حماراً ركُوبُه فإن ركوبي نعلةٌ وقِبالُ[١٨٧]

١٨١- الأغمار: الذين لم تحركهم التجربة فهم أغرار. الماذي: العسل الأبيض.

١٨٢- الجذّاذ: صيغة مبالغة من جذّ الحبل قطعه.

١٨٣- المصدر السابق: ص٦٠٠

١٨٤- المصدر السابق: ص٦٠١

١٨٥- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي: ص٦٠٧

١٨٦- الركبان: مفردها راكب، والرجال: مفردها راجل الذي يسير على رجليه.

١٨٧- القبال: سير من الجلد يوضع في النعل بين الوسطى والتي تليها.

وربما تعمّد الحسن أن يكون إفلاسه الدائم في بعض الأحيان موضع تندر وتظرف.
كتب ابن منظور يقول[188]:

«... إن جارية للقاسم بن هرون مرت به وفي كفها نرجس. فحاول مداعبتها قائلاً: «ما أقبح الهجر بك يا سيدتي».

فقالت: «أقبح من هجري إفلاسك».

فأنشأ يقول:

قلتُ وقد مرّت بنا ظبيةٌ ... رعبوبةٌ في كفها نرجسُ
ما أقبح الهجر فجودي لنا ... منا بما تحيا به الأنفسُ
فاستضحكت عجباً وقالت لنا ... أقبحُ منه عاشقٌ مفلسُ .

ويضاف إلى أسباب سرف الحسن وإنفاقه سببٌ آخر لا يقل عن غيره اتهاماً للمال وتضييعاً له. ألا وهو خُلق أبي نُواس السمح ورقة حاشية طباعه وكريم سجاياه. حيث يرى وهو الكريم السخيّ في المِكاس ضراعة يأباها وفي مساومة الخمار عاراً يأنفه.
قال[189]:

أعاذلَ ما فرّطتُ في جنب لذة ... ولا قلتُ للخمّار كيف تبيعُ[190]
أسامحه إن المِكاس ضراعةٌ ... ويرحل عرضي عنه وهو جميعُ[191]

وقال أيضاً[192]:

لما تبيّن أني غيرُ ذي بخلٍ ... وليس لي شُغُلٌ عنها وإبطاءُ
أتى بها قهوةً كالمسك صافيةً ... كدمعةٍ منحتها الخدَّ مرهاءُ
مازال تاجرها يسقي وأشربها ... وعندنا كاعبٌ بيضاءُ حسناءُ

١٨٨- أبو نواس في تاريخه ومباذله: مصدر سابق، عمر أبو النصر، ص٢٣٦

١٨٩- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي، ص٧

١٩٠- فرّطتُ: قصّرتُ.

١٩١- المِكاس: الضيِّقة المساومة. ومنها في العامية كلمة الفصال في الثمن.

١٩٢- المصدر السابق: ص٧٠

مجموع هذه الأمور يفسر لنا الحياة التي عاشها الحسن من الناحية المادية وهي حياة أبعد ما تكون عن الغنى والثراء وتتراوح بين اليسار في أغلب الأحيان، والإفلاس في بعضها الآخر. ومات الحسن ولم يخلف - كما مرَّ معنا - من الثروة والمال شيئاً يذكر.



3 عصر أبي نواس

● بناء بغداد:

قال الإمام الشافعي[1] ليونس بن عبد الأعلى:

«... يا يونس أدخلت بغداد؟ قال: لا، قال: ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس».

«عن تاريخ بغداد»[2].

في عام خمسة وأربعين ومائة بعد الهجرة، رغب أبو جعفر المنصور[3] المعروف بالدوانيقي[4] أن ينقل عاصمة الدولة العباسية من الهاشمية[5] إلى موطن يأمن به المحن ويعصمه من عاديات الزمن، ويبعده عن مدينة الكوفة[6] مركز العلويين وما ينشب فيها

١- الإمام الشافعي: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ينتهي نسبه إلى المطلب أخي هاشم جد النبي. ولد يتيماً في غزة سنة ١٥٠ للهجرة/٧٦٧ ميلادية ونشأ في مكة وانتقل إلى المدينة حيث درس على الإمام مالك بن أنس، إمام ومؤسس المذهب المعروف باسمه. في آخر أيامه قصد مصر وتوفي فيها عام ٢٠٤ للهجرة/٨٢٠ ميلادية ودفن في سفح جبل المقطم. مؤسس علم الأصول ويُنسب إليه كتاب الأم.

٢- بغداد مدينة السلام: طه الراوي سلسلة اقرأ العدد رقم ٢٧، ص٢٢ نقلاً عن تاريخ بغداد للبغدادي الجزء الأول.

٣- أبو جعفر المنصور: عبد الله بن محمد. ولد في الحميمة سنة ٩٥ للهجرة/٧١٤ ميلادية وتوفي محرماً بالحج سنة ١٥٨ للهجرة/٧٧٥ ميلادية. ثاني خلفاء بني العباس خلف أخاه السفاح. يُعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية. بنى بغداد ودعاها دار السلام. ترك لابنه المهدي إمبراطورية موطدة خزائنها عامرة بالأموال.

٤- الدوانيقي: لقب عرف به أبو جعفر المنصور لأنه كان شحيحاً على نفسه يرقع ثيابه ويحاسب على الدانق. عن الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر مجلد أول ص٤٢

٥- الهاشمية: مدينة بناها العباسيون قرب مدينة الكوفة التي كانت عاصمة الدولة العباسية، وجعلوا منها عاصمة جديدة لملكهم بعد الكوفة.

٦- الكوفة: مدينة في العراق على ساعد الفرات غرباً وعلى بعد عشرة كم من النجف أسسها سعد بن أبي وقاص بإذن من الخليفة عمر بن الخطاب بعد معركة القادسية قرب الحيرة سنة ١٧ للهجرة/٦٣٨ ميلادية لتكون بمثابة معسكر ومركز للهجرة في الوقت نفسه. وكان أول من ساهم في عمارها المشاركون في القتال ثم استقر فيها أغلب المجاهدين العرب. اتخذها علي بن أبي طالب مقراً له عام ٦٥٧ للميلاد، وقتل في مسجدها الشهير عام ٦٦١ ميلادية. جعلها العباسيون عاصمة لهم عام ٧٤٩ للميلاد وتقلص ظلها بعد تأسيس بغداد. بالقرب منها النجف ومشهد علي. أنجبت علماء ومحدثين ونحويين، وكانت مع البصرة مركزاً للثقافة العربية ومجال تنافس في مدارس الفقه واللغة أيام الأمويين والعباسيين.

من ثورات وفتن، ويعزل جنده عن أهلها حتى لا يفسدوهم، ويوفر بشكل عام لعاصمة دولته التي يبحث عن موقع لها كافة المتطلبات والإمكانات الاقتصادية والعسكرية والبيئية والأمنية معاً.

فذهب يجوس في السهل الممتد بين دجلة والصُراة، يتنسم الأرياح. ويُسائل ساكني البيع[٧] باحثاً ومختبراً حالة الجو والتربة وما يتصل بذلك من العوارض والتبدلات والأنواء. حتى وقع اختياره على موقع وسط بين بلاد العرب والعجم. يقع على أقرب نقطة بين دجلة والفرات وتحيط به مجموعة من الأنهار الأخرى مثل دُجيل وعيسى والصُراة وغيرها. وعلى هذا الموقع قرر المنصور أن يبني عاصمة ملكه الجديدة بغداد.

كتب ويل ديورانت يصف هذا الموقع قال[٨]:

«... وكان في موقع بغداد مدينة بابلية قديمة. وهي لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة. وقد عُثر في عام ١٨٤٨ تحت مجرى نهر دجلة على قطع من الآجر المنقوش عليها اسم نبوخذ نصّر. وازدهرت المدينة القديمة في عهد الملوك الساسانية. ثم أُنشئت فيها بعد الفتح الإسلامي عدة أديرة مسيحية معظمها للنساطرة. ويحدثنا المؤرخون أن الخليفة المنصور عرف من رهبان تلك الأديرة أن هذا الموقع معتدل الجو في الصيف خال من البعوض الذي يكثر في البصرة والكوفة. ولعل الخليفة قد رأى أن من الحكمة أن يبتعد عن هاتين المدينتين المشاكستين اللتين كانتا في ذلك الوقت البعيد غاصتين بالصعاليك الثوريين».

لقد دُرس هذا الموقع بعناية فائقة من الناحية الأمنية والعسكرية. ووضع مخطط بناء المدينة على بقعة تقع بين مجموعة أنهار لا يصل إليها العدو إلا على جسر أو قنطرة. فإذاما نُسفت هذه الجسور ودُمّرت تلك القناطر أحيل بين بغداد وبين مهاجميها من الأعداء.

أما من الناحية الاقتصادية فقد أمّن هذا الموقع لمدينة بغداد اتصالاً مائياً مع جميع

٧- البِيَع: مفردها بيعة بالكسر. وهي كنيسة أو معبد للنصارى، وقيل لليهود أيضاً.

٨- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني المجلد الرابع، ص١٦١

المدن الكبرى القائمة على نهري دجلة والفرات، وكذلك مع جميع ثغور العالم القديم عن طريق الخليج الذي كان يسمى بالخليج الفارسي. مما كان له أهمية اقتصادية فائقة، حيث سهل هذا الطريق حمل طرائف الهند والسند والصين والأهواز والبصرة وواسط، وكذلك نقل ميرة[9] الموصل وديار بكر وربيعة، والجليبات من الجواري والإماء من كل حدب وصوب.

كتب ابن جرير الطبري[10] يقول:

«... وذكر أن المنصور لما عزم على بنائها أحب أن ينظر إليها عياناً فأمر أن يُخط بالرماد... فلمّا فعل ذلك أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ويصبّ عليه النفط. فنظر إليها والنار تشتعل ففهمها وعرف رسمها. وأمر أن يُحفر أساس ذلك الرسم ثم ابتدئ في عملها»[11].

لم تكن خطوط الرماد المشتعل بالنفط إلّا تجسيداً لما ستكون عليه قلعة المنصور الحصينة أو عاصمة ملكه المبتغاة بعد حين بأبوابها وقناطرها وشوارعها وساحاتها وأسواقها ومساجدها وحماماتها ومبانيها ودواوينها وقصورها الرحبة بما فيها قصر الخليفة الذي سُمي قصر الذهب.

لقد بنيت مدارج قصر الخليفة من المرمر، وصُنعت سرره من عاج، وستوره من ديباج، وأبوابه العظيمة الضخمة من ذهب تتدلى منهن مسامير ذهبية تُمّمت رؤوسها بالجوهر النفيس. وانتصبت قبته الشهيرة المعروفة بالقبة الخضراء شامخة فوق إيوان القصر يسمو في أعلاها تمثال فارس بيده رمح طويلة يدور إلى حيث تأتي الريح. وكان بين الأرض وأعلى القبة ثمانون ذراعاً.

٩- الميرة: جمع مِيَرْ: الطعام الذي يدخره الإنسان. المؤنة.

١٠- الطبري: محمد بن جرير أبو جعفر. ولد في طبرستان عام ٢٢٥ للهجرة/٨٣٩ ميلادية، وتوفي في بغداد عام ٣١٠ للهجرة/٩٢٣ ميلادية. مؤرخ موسوعي ومفسر ومحدث ومقرئ. تنقل بين إيران والعراق وسورية ومصر طلباً للعلم، ثم أقام في بغداد. له جامع البيان في تأويل القرآن، وتاريخ الأمم والملوك، وتهذيب الآثار، واختلاف الفقهاء، وآداب القضاة.

١١- تاريخ الأمم والملوك: ابن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المجلد السابع، ص٦١٨

● توافق ميلاد بغداد مع ميلاد هارون والحسن:

ربما كان من الصدف الكريمة أن تكون السنة التي أضاءت فيها خطوط الرماد المشتعل بالنفط معلنة عن ميلاد مدينة بغداد هي نفس السنة التي ولد فيها هرون الرشيد(١٢) بلدة الري(١٣) في طبرستان(١٤). وتشاء الصدف أن يتوافق ميلاد بغداد وميلاد هرون مع ميلاد طفل ولد في نفس العام - كما تذكر بعض الروايات - وفتح عينيه على دنيا الله العريضة في قرية من قرى الأهواز(١٥) لرجل مهاجر من دمشق وفتاة خوزية(١٦) فارسية الأصل أسمياه الحسن.

لما شبّ هذا الطفل وكبر تكنى بأبي نُواس، وبعد أن تمكن من تذليل ربة الشعر هاجر إلى بغداد عاصمة الخلافة وأم البلاد التي كان تربع على عرشها ملك العباد الخليفة

١٢- هارون الرشيد: ولد في الري عام ١٤٥ للهجرة/٧٦٤ ميلادية، وتوفي بسناباذ من قرى طوس (إيران) عام ١٩٣ للهجرة/٨٠٩ ميلادية. جاء إلى العرش بعد اغتيال أخيه الهادي. ابن الخليفة المهدي والخيزران. خامس الخلفاء العباسيين وأوسعهم شهرة. يعتبر حكمه الأوج الذي بلغه سلطان العباسيين. قضى على نفوذ البرامكة وصادر أموالهم بعد أن لعبوا دوراً هاماً في الحكم. حارب البيزنطيين وهو لايزال حاكماً على المقاطعات الغربية وبلغ أبواب القسطنطينية. ثم وجه حملات عدة عليهم بعد خلافته. أقرّ الأمن في المقاطعات الفارسية وبين البربر (شمالي أفريقيا) اتصل بشارلمان ملك فرنسا. اتخذ مدينة الرقة عاصمة صيفية له. وبنى فيها قصر السلام. استحدث منصب قاضي القضاة، وازدهرت في عهده التجارة والأدب والعلوم.

١٣- الريُّ: كورة قريبة من خراسان. مدينتها تدعى الري الحديثة، ليس في المشرق بعد بغداد مدينة أعمر منها إلا نيسابور... نزلها المهدي في خلافة المنصور لما توجه لمحاربة عبد الجبار الأزدي، وولد له بها ابنه الرشيد. عن كتاب الروض المعطار للحميري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، ص٢٧٨

١٤- طَبَرستان: من بلاد خراسان بفتح أوله وثانيه. وسميت بذلك لأن الشجر كان حولها كثيراً فلم يصل إليها جنود كسرى حتى قطعوه بالفأس. والطَبَر بالفارسية: الفأس. وأستان: الشجر... وهي بلد عظيم كثير الحصون والأعمال منيع بالأودية، وأهله أشراف العجم وأبناء ملوكهم. يحدها من الشمال بحر طبرستان المسمى ببحر الخزر. عن الروض المعطار للحميري تحقيق الدكتور إحسان عباس، ص٣٨٣

١٥- الأهواز: إحدى قرى خوزستان في الجنوب الشرقي من فارس على نهر تستر قرب الحدود العراقية. وتعرف اليوم باسم عربستان. ويقال إن سكانها قبائل بني لام العربية.

١٦- خوزية: نسبة إلى خوزستان، إقليم في أرض عبادان جنوب إيران، يتصل بالخليج قاعدته الأهواز. ومن مدنه عبادان، تستر، خرم شهر، (وفي أرض خوزستان الفارسية مياه جارية وأودية غزيرة وأنهار سائلة... ويتكلم أهل خوزستان الفارسية والعربية، وزيهم زيّ أهل العراق وفي ألوانهم صفرة وسمرة) عن الروض المعطار للحميري تحقيق الدكتور إحسان عباس، ص٢٢٥

هارون الرشيد. أجل لقد هاجر الحسن إلى بغداد عندما شارف على الثلاثين من عمره ليجرب حظه ويُمضي بين ربوعها بقية عمره، يتبختر في حدائق ومقاصف وخمارات القُفص[١٧] وقطرَبُلّ[١٨] وطيرناباذ[١٩]، وينهل من خمورها المعتقة ما لذّ له وطاب.

●بغداد أيام الرشيد:

وفي أيام هرون الرشيد بدأت بغداد تستوفي جمالها وغناها وبذخها وترفها حتى تغنى بها الشاعر الأنوري في شعر فارسي معبر.

قال الأنوري[٢٠]:

«... طوبى لك يا بغداد مدينة العلم والفن التي لا يستطيع أن يجد بين مدن العالم كله مدينة أخرى تناظرها، إن أرباضها[٢١] لتنافس في جمالها قبة السماء الزرقاء، وإن مناخها ليضارع نسيم السماء الذي يبعث الحياة في الأجسام، وأحجارها تضارع في تلألئها الماس والياقوت... وإن شواطئ دجلة ومن عليها من الفتيات الحسان لتفوق بَلْخَ[٢٢]

١٧- القُفْص: بالضم فالسكون. قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا، قريبة من بغداد. كانت من مواطن اللّهو ومعاهد التنزه ومجالس الفرح، تُنسب إليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة. عن معجم البلدان: ياقوت الحموي، المجلد الرابع، ص١٥٠

١٨- قُطْرَبُلّ: قرية بين بغداد والمزرفة، يُنسب إليها الخمر. كانت متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين. عن معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد الرابع، ص١٣٢

١٩- طيرناباذ: من أقدم مدن العرب الجاهلية في العراق. تقع بين الكوفة والقادسية على بعد تسعة كيلومترات من شمال شرقي النجف، محطوفة بالنخيل والكروم والشجر والحانات والمعاصر. وكانت إحدى البقاع المقصودة والنزه الموصوفة، ولم يبق من رسومها إلا قباب خراب وحجر على قارعة الطريق وقد أطلقوا على حانات طيرناباذ بعد خرابها قباب أبي نُواس» عن كتاب، أبو نواس بين التخطي والالتزام، الدكتور علي شلق، ص٤٥

٢٠- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني المجلد الرابع، ص١٦٠

٢١- أرباضها: مفردها الرَّبَض والأرباض ما حول المدينة من بيوت ومساكن وكل ما يُؤوى ويُستراح إليه من أهل وقريب ومال وبيت ونحو ذلك.

٢٢- بَلْخ: مدينة خراسان العظمى ولها سبعة أبواب وربضٌ عامر كثير المساكن، وبها أسواق وصناعات ومسجد جامعها في وسط المدينة والأسواق دائرة به... فتحها عبد الله بن سمرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان. عن كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس، ص٩٦

وجناتها المليئة بالحور العين لتعدُل في ذلك كشمير[٢٣] وآلاف القوارب ترقص وتتلألأ فوق الماء تلألؤ أشعة الشمس في الهواء».

وربط الناس بين عظمة بغداد وعظمة عهد هرون الرشيد فسموها «مدينة الرشيد» بينما أطلق عليها الرشيد اسم «مدينة السلام» تيمناً وتشبيهاً لها بدار السلام مستشهداً بالآية القرآنية التي تقول: ﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾[٢٤].

كتب أحمد أمين يقول[٢٥]:

«.... فمما فعله الرشيد أن سمى بغداد مدينة السلام تشبيهاً لها بدار السلام، وسمى قصر الخلافة بالحريم تلميحاً إلى البيت الحرام، وجلب بعضاً من أبناء الأنصار وسماهم بالأنصار. وجعل باباً من أبواب بغداد قليل الارتفاع لكي ينحني الداخل منه تشبيهاً بالسجود احتراماً للخليفة كما يفعل الداخل إلى الكعبة. وسمى الخيزران أم الخلفاء تشبيهاً بما سمى به الرسول عائشة أم المؤمنين، واستكتب العلماء في وضع الأحاديث التي تُمجد بيت بني العباس».

وزهت بغداد دار النعيم والملك وموطن الترف ومجتنى الفن حتى غدت بعد أن حُملت إليها أموال الدنيا عروس الأقطار الإسلامية والأجنبية على السواء.

كتب أحمد أمين يقول[٢٦]:

«وقد بلغ ما دخل خزانة الخليفة كل سنة في عهد الرشيد حوالي ٤١١ مليون دينار»[٢٧].

٢٣- كشمير: مقاطعة آسيوية تقع بين شمال الهند وباكستان الغربية. كانت كشمير جزءاً من مملكة البنجاب وأفغانستان. فتحها العرب في القرن الرابع عشر وأصبحت سلطنة إسلامية. وهي منطقة زراعية هامة ومركز تجمع صناعي لما فيها من مناجم (فحم - لينيت - حديد - رصاص..) ومشهورة بأقمشتها الحريرية.

٢٤- سورة الأنعام: الآية رقم: ١٢٧

٢٥- هرون الرشيد: الدكتور أحمد أمين كتاب الهلال العدد رقم: ٢٣ ص٢٥

٢٦- المصدر السابق: ص١٩

٢٧- الدينار: تجمع دنانير. ضرب من قديم النقود الذهبية، وهي لاتينية الأصل مشتقة من اللفظ الروماني ديناريوس. وكان يحتوي على ٥٦ غرام من الذهب. واعتبر ويل ديورانت أن الدينار يعادل حوالي ٤,٧٥ دولار تقريباً. حسب قيمة الذهب في الولايات المتحدة الأميركية لعام ١٩٤٧ وحالياً يزن ٤,٢٥ غرام ذهباً من وحداتنا.

وكتب فايد العمروسي نقلاً عن ابن خلدون[28] يقول:

«... إن دخل المملكة في عهد الرشيد كان في كل سنة سبعة آلاف وخمسة عشر قنطاراً[29] من الذهب هذا إلى كثرة الجواري من كل نوع»[30]

وجمعت بغداد كل أنواع المعارف والعلوم والفنون والنفيس وكل أسباب الترف والنعيم.

قال الجاحظ[31]:

«الصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والخير ببغداد»[32]

٢٨- ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. مؤرخ وفيلسوف اجتماعي عربي، ومن أعلام زمانه في الإدارة والسياسة والقضاء والأدب والعلوم. ولد في تونس سنة ٧٣٢ للهجرة/١٣٣٢ ميلادية، وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٨ للهجرة/١٤٠٦ ميلادية. استقر في مصر ودرس في الأزهر وتولى قضاء المالكية. ألف في التاريخ فكان رائداً ومؤسساً لعلم فلسفة التاريخ والاجتماع وذلك في مقدمة لتاريخه: العبر وديوان المبتدأ والخبر.

٢٩- القنطار: بجمع قناطير. وزن اختلف مقدار موزونه مع الأيام. قيل يعادل مائة رطل، والرطل كلمة آرامية يعادل ٢٥٦٤ غراماً. والقنطار يعني المال الكثير. يقال قناطير مقنطرة أي كاملة أو كبيرة وذلك في المبالغة.

٣٠- الجواري المغنيات: فايد العمروسي، ص٢١

٣١- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ولد في البصرة عام ٧٧٥ للميلاد وتوفي فيها عام ٨٦٩ ميلادية. كان من أسرة فقيرة مات أبوه وهو صغير السن فاضطر إلى احتراف بيع الخبز والسمك إلى جانب مواصلة التعلم والاطلاع على كل ما تقع عليه يداه. فاطلع على جميع العلوم المعروفة في عصره حتى أصبح من أئمة الثقافة العباسية بل العربية. ولاه المأمون ديوان الرسائل فلم يستطع البقاء تحت قيوده. أصيب آخر حياته بفالج نصفي. نُسبت إليه فرقة الجاحظية وهي فرقة ذات ميول معتزلية. كان ثاقب البصيرة متزن العقل دقيق التفكير، حر الفكر مع روح مرحة نكهة، وقلم رشيق. صور الجاحظ أحوال عصره وحياة أهل زمانه وأخلاقهم وعاداتهم. من مؤلفاته: الحيوان، البيان والتبيين، البخلاء، التاج في أخلاق الملوك وغيرها...

يعتبره الدكتور محمد أركون: «من الشخصيات التي ولدت مواقف فكرية وأنجبت مؤلفات إبداعية ذات حداثة لا تناقش ولا تدحض... ومن أفضل الممثلين لكل المواقف الفكرية والثقافية التي ضجت بها الثقافة العربية الإسلامية في تلك الفترة الرائعة من الأنسية العربية»، في فترة الاستكشاف والمغامرة والفتح والتحرر المتمثرة في منطقة العراق وإيران». ويقول عنه أيضاً إنه «كاتب كبير جداً وفنان كبير جداً، ومفكر كبير أيضاً. كل هذه الصفات مجموعة في شخصه وبهذا المعنى فالجاحظ شخص حديث يطرح على الإسلام أسئلة من نوع النقد التاريخي. هذه الأسئلة التي لا يستطيع مسلمو اليوم أن يلمحوا مدى ضرورتها وجدواها». عن العلمنة والدين: محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، ص٤٢

٣٢- بغداد مدينة السلام: طه الراوي سلسلة اقرأ العدد رقم: ٢٧، ص٢٣

ويبهر الذهب اللماع عيون الداخلين إلى بغداد يتوهج فوق القباب والأبواب ويسطع في كل مكان. وحليت ألبابهم شمس الجمال تشرق على وجوه القيان والغلمان، ووفرة الغنى الفاحش، والغُلوّ في البذخ والترف والسرف في الإنفاق، وغرابة المأكول، ونفاسة المشروب وثمين الملبوس، والناعم من كل فنٍّ محلّي عريق ورائع أجنبي مجلوب أنيق.

وبلغ عدد السميريات[٣٣] على دجلة كما أحصاها الخطيب البغدادي بنحو: «ثلاثين ألفاً. وعدد الحمامات بستين ألفاً وبإزاء كل حمام خمسة مساجد»[٣٤]

كتب الأستاذ طه الراوي يصف عظمة مدينة بغداد واتساع رقعتها ودرجة غناها وضخامة ثروتها، قال: «وقد وصلت بغداد في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها. وامتدت الأبنية في الجانبين امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد وكأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين. وبلغ سكانها نحواً من مليونيْ نسمة[٣٥]. ودرّت عليها الخيرات من جميع الأقاليم الإسلامية، وتمت فيها الثروة نماءً لا مزيد عليه. وغصّتْ خزائن الدولة بالذهب والفضة التي كانت تصبُّ فيها من الأقاليم»[٣٦]. ولكن لمن كل هذا الثراء؟ ومن الذي تمتع بهذا الغنى وبهذه الأموال الكثار وبكل ذلك الترف والرخاء والسرف؟!.

●تمركز الثروات:

لقد كان السرف والترف اللامتناهيان حكراً على طبقة معينة وفئات محددة تحكمت بمصير الأرض والشعب، فأمسكت برقاب العباد وزمام البلاد، وجمعت الثروات الفاحشة وامتلكت الأطيان والضياع، وملأت خزائنها بما يجبيه العمال بمختلف الطرق وشتى الوسائل: «حتى إنهم كانوا يستولون على أموال الناس وأملاكهم بدون حق لأنهم لا يحاسبون على ذلك من قبل الخليفة»[٣٧].

٣٣- السميريات: نوع من القوارب. وتسمى أيضاً بـ «العوامات».

٣٤- هرون الرشيد: الدكتور أحمد أمين سلسلة كتاب الهلال العدد رقم: ٣٠ ص٦٤

٣٥- علماً أن عدد سكان بغداد لمستمر في الارتفاع أيام الحكم العباسي حتى بلغ حوالي أربعة ملايين نسمة. وتدنى هذا العدد بعد سقوط الحكومة المركزية كثيراً وأصبح عدد سكانها في أوائل القرن العشرين لا يزيد عن بضعة آلاف نسمة.

٣٦- بغداد مدينة السلام: طه الراوي، سلسلة اقرأ، العدد رقم: ٢٧، ص٣٤

٣٧- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: أسد حيدر، المجلد الثاني الجزء الثالث، ص٢٢٤

ويحدثنا المسعودي[٣٨] عن رجل من همذان كان قد طُرح في السجن أربعة أعوام أيام الخليفة المنصور، لا يُسأل عنه ولا ينظر في أمره، لأن والي بلده أراد أن يغتصب ضيعته التي تساوي ألف ألف درهم[٣٩] فامتنع فكبله بالحديد وحمله إلى المنصور بعد أن كتب له أنه عاص[٤٠].

وأدى تمركز الثروات لدى هذه الفئات إلى زيادة في حدة التمايز الاجتماعي والتفاوت الطبقي في مجتمع الخلافة الإسلامية.

كتب ويل ديورانت يقول[٤١]:

«... وكان القانون يحرم الاحتكار ولكنه كان منتشراً رغم التحريم. ولم يكد يمضي على موت عمر بن الخطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة، وعاشوا في ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات الأرقاء».

ويصور جرجي زيدان حالة الغنى الواسع والثراء الفاحش الذي بلغته هذه الفئات وبعض أفراد هذه الطبقة فيقول: «كان دخل الكثيرين منهم لا يقل في العام عن الخمسة والعشرين مليوناً من الدنانير الذهبية وهو دخل إذا قيس بنسبة ثروات ذلك العصر عُدَّ فريداً في زمانه»[٤٢]

٣٨- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين، مؤرخ وجغرافي ورحالة عربي. ولد في بغداد من عائلة تنتسب إلى الصحابي ابن مسعود. أمضى شبابه في التجوال، زار فارس وكرمان والهند وسرنديب (سيلان) ومدغشقر وأذربيجان وجرجان وما وراء النهر حتى الصين. وزار الشام وفلسطين ومصر. أقام في إنطاكية ودمشق وأخيراً استقر بالفسطاط وبها توفي سنة ٣٤٦ للهجرة/٩٥٦ ميلادية.

وضع عشرات من الكتب، أشهر ما بقي منها «كتاب التنبيه والإشراف» و «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وهو تاريخ عام يبدأ من الخليقة وينتهي بسنة ٩٤٧ للميلاد. جمع فيه مشاهداته ودراساته في جميع تلك البلاد. ومما يؤخذ عليه الاستطراد والمعلومات غير الصحيحة.

٣٩- الدرهم: نقد قديم يحتوي على ثلاثة وأربعين غرام من الفضة. لكنه بقي لا يمثل قيمة محددة ثابتة لتغير مقدار ما فيه من الفضة. فعلى سبيل المثال تقدر قيمة قدرته الشرائية أيام الرشيد بـ «ستة عشر رطلاً من الزيت بدرهم واحد، وكذلك عشرة أرطال من العسل وثمانية أرطال من السمنة...» عن كتاب هرون الرشيد لأحمد أمين، ص٨٨ وفي عصرنا يزن الدرهم الفضي ٢,٩٧ غراماً من وحداتنا.

٤٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر: للمسعودي، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، المجلد الثالث، ص٢٧٢

٤١- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني المجلد الرابع، ص١١١

٤٢- تاريخ التمدن الإسلامي: الجزء الخامس: جرجي زيدان، ص١٨٧

فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت غلة الخيزران زوجة الخليفة المهدي وأم الخليفتين الهادي والرشيد كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد نقلاً عن المسعودي قد: «بلغت قبل موتها مائة ألف ألف وستين ألف درهم. وقد قدر أحدهم أن هذا المبلغ يعادل نصف خراج المملكة العباسية آنئذ، وثلثي غلة روكفلر في هذا القرن»[٤٣].

●الخليفة العضوض:

وتربع على رأس هذه الطبقة وما تضم من فئات اجتماعية متعددة الخليفة العباسي يحيط به الأمراء والرؤساء وكبار الملاك والتجار والقواد العسكريين، ويلتف حوله رهط كبير خضوع من الندماء والشعراء والكتاب والقضاة والنخاسين والملهّين يقوم أفراده بدور جهاز دعاية وإعلام وتبرير وتأييد وترفيه مقابل أن ينالوا الرعاية السنية والرضى السلطاني. وكان الجميع يتمتع بالجاه والغنى على حساب بؤس الرعية، على حساب سغب الشعب وفقره، وحرمانه أو ما يسمى بالعامة أو السواد.

كتب أحمد أمين نقلاً عن المسعودي يقول[٤٤]:

«... أن محمد بن سليمان قريب الرشيد كان يُغِلُّ كل يوم مائة ألف درهم. وركب يوماً بالبصرة وسوار القاضي يسايره في جنازة ابنة عم له. فاعترضه رجل وقال له: يا محمد أمن العدل أن تكون غلتك في كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه. ثم التفت إلى سوار فقال: إن كان هذا عدلاً فأنا أكفر به».

ويجمع الخليفة العباسي أو الملك العضوض[٤٥] في نظام الاستبداد الشرقي بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية. ويتمتع بسلطات مطلقة لا محدودة بصفته الرأس الديني والسياسي والعسكري لنظام حكم وراثي أوتوقراطي[٤٦] يجثم على قاعدة من

٤٣- بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي: الدكتور صلاح الدين المنجد، ص١١

٤٤- هرون الرشيد: الدكتور أحمد أمين سلسلة كتاب الهلال العدد رقم: ٣١ ص١٩٤ نقلاً عن مروج الذهب ومعادن الجوهر. للمسعودي، المجلد الثالث، ص٣٢١

٤٥- العضوض: تعبير مجازي يعني المُلك الذي يعضُّ عليه صاحبه، بمعنى يتشبث به مستأثراً بامتيازاته لنفسه ولورثته. أو الذي يعضُّ به على الأمة ويفرضه عليها فرضاً. وهي صفة أطلقت على الخلفاء الأمويين والعباسيين وعلى كل نظام حكم يجري عليه قانون الوراثة، لا على قانون الشورى بين المسلمين. وأشبه ما يكون بملك القياصرة والأكاسرة ويعتمد على القمع والنهج الاستبدادي.

٤٦- أوتوقراطي: حكم الفرد المطلق، أو حكم فرد مستبد ذي سلطان مطلق.

اقتصاد زراعي تجاري متداخل تغلب عليه التجارة التي اتخذت آنذاك ميداناً عالمياً واسعاً، تُمثل فيه الحرف مكانة كبيرة نسبياً. ويتميز بعلاقات إنتاج تقوم على الملكية الإقطاعية والاستثمار الإقطاعي في المزارع والحقول. كما يعتمد هذا النظام على النهب الإمبراطوري الذي تصب عوائده في المدن والحواضر الكبرى وبشكل خاص في مدينة بغداد.

ويمسك الخليفة بجميع السلطات في إمبراطورية تمتد من الأندلس غرباً إلى الممالك التي تصاقب الصين شرقاً. ويُشرف على الرسائل الرسمية ويعين الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة والمحتسبين منهم، ويعزلهم جميعاً إذا رغب وشاء هواه. وكان وزيره ينوب عنه فهو وزير كل شيء كما أن الخليفة خليفة على كل شيء. ويشرف الخليفة أو وزيره على شؤون الدولة بعد أن قسمت مرافقها إلى عدد من الدواوين، مثل ديوان الخراج والحسابات والشرطة والنظر في المظالم وديوان البريد.

وكان للخليفة الحق في أن يأمر وينهي، يُعطي ويمنع، يُذِلُّ ويرفع، يهب ويصادر، يقرب ويشرد من يريد وبالشكل والقدر الذي يشاء ويرغب. وكذلك كان له الحق في أن يقطع رأس من لا يرغب به من العباد إذا أراد بسبب أو بدون سبب، وفي أن يُحقق المراد لمن أراد بما يريد. وكان من يطلبه الخليفة لا يدري أذاهب إلى القبر أم سيحظى بليلة القدر فيتحقق له المستحيل ويعود بآلاف الدنانير.

فلا اتهام للمتهم يوجه إليه. ولا دفاع يدافع به عن نفسه. ولا قوانين يعمل بموجبها ويتصرف على أساسها سيد البلاد. فرقاب الناس كل الناس معلقة بكلمة من فمه، أو بأمر من أوامره. فقوله دستور، ورأيه قانون وإرادته شريعة وأمره من أوامر الإسلام ونواهيه.

● ديوان البريد:

وكان أهم شخصية يعتمد عليها الخليفة، ولها شأن عظيم في نظام الدولة هي شخصية صاحب الخبر أو رئيس ديوان البريد الذي كان من شأنه أن يقوم على نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات. وكان زلمه وأعوانه يعملون على إحصاء كل كبيرة وصغيرة عن الولاة وقواد الجيش والقضاة وعمال الخراج والمحتسبين من رجال الشرطة. ويجمعون كل خبر مهما صغر أو قلَّ شأنه ويرسلونه

إليه بواسطة رسل موقوفة على حمل تلك الأخبار في سرعة شديدة على خيل مُضمرات توجد في عدة أماكن على الطرق الممتدة من الولايات إلى بغداد. ثم يقوم صاحب الخبر أو رئيس ديوان البريد بدوره ويبلغها إلى الخليفة. وهذا ما جعل من مهمة جمع الأخبار والتجسس على جميع الناس ومختلف الفئات ضرورة ملحة من ضرورات الملك.

نُقل عن أبي جعفر المنصور أنه قال[٤٧]:

«... قال أبو جعفر المنصور ذات يوم لأصحابه: ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون أعف منهم، وهم أركان الدولة، ولا يصلح الملك إلا بهم. أما أحدهم نقاضي لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم. ثم عضَّ المنصور على إصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول في كل مرة آه، آه.

قيل: ما هو يا أمير المؤمنين؟

قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة.»

تشير هذه الرواية على أن من شأن صاحب البريد أن يُشرف على جميع أعمال المراقبة والتجسس في الداخل والخارج، وعلى جمع الأخبار من كل قطر وموقع وحاضرة بواسطة أتباعه العلنيين وعملائهم السريين من النساء والرجال والأولاد الذين يتنقلون في جميع أنحاء البلاد على شكل تجار أو أبناء سبيل أو محتاجين أو مسافرين عاديين. يتجسسون على من بيده السلطة من الحكام المحليين ويتسقطون الأخبار فيما إذا كان من مؤامرات أو دسائس أو من يحضُّ على الثورة ويتآمر على الخليفة، ليقوم صاحب البريد ويعلم الخليفة بأقصى سرعة.

كتب ويل ديورانت يقول[٤٨]:

«... وكان في بغداد ألف وسبعمائة امرأة عجوز يعملن جاسوسات».

٤٧- التمدن الإسلامي: جرجي زيدان، الجزء الأول، ص٢٢١

٤٨- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني المجلد الرابع، ص١٤٧

وإذا كان للخليفة الحق في أن يحجب عنه أي إنسان فلا يصح له أن يحجب صاحب الخبر لأن تأخيره ساعة واحدة ليلاً أو نهاراً قد يجعل الأمر الخفيف مستفحلاً والبسيط جللاً. لذلك كانت إدارة ديوان البريد منظمة تنظيماً محكماً ودقيقاً حتى يتمكن صاحب البريد أن يقوم بمهمته بدقة وعلى أتم وجه وبأقصى سرعة.

●طاغوت الفكر التبريري جبرياً:

كان الخليفة العباسي كغيره من الخلفاء الذين سبقوه يعتبر أن سلطته مستمدة من سلطة الله، وأن إرادته تمثل إرادة الله على الأرض، وبالتالي فإن الذي يملك حق نزع هذه السلطة منه هو الله وحده. وإذا دلَّ هذا التوجه الغريب على شيء فإنما يدل على جبرية الفئة الحاكمة المسيطرة اقتصادياً وسياسياً وعلى استمرارية طاغوت الفكر الجبري الرسمي المعادي للديمقراطية الذي بدأ يتكرس وتتوطد مفاهيمه وقيمه بفضل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان عندما قال للثائرين الذين طالبوه بالتنحي عن الخلافة وخلع نفسه: «لن أخلع قميصاً كسانيه إياه الله»[٤٩]

لقد حول الفكر الجبري المعادي للديمقراطية والقائل بفكرة التفويض الإلهي للحاكم الخلافة إلى ملك عضوض بعد أن أنكر كل حق للشعب في أن يختار حاكمه، وسلبه كل سلطة له في تسيير أموره على الرغم من ارتفاع أصوات مؤمنة مسلمة ثائرة نادت منذ أيام الحكم الأموي بإسقاط جبرية الفئة المسيطرة سياسياً واقتصادياً وجهرت بأن لا قدر يحكم إرادة الإنسان حكماً جبرياً مطلقاً من أمثال الحسن البصري[٥٠]، وواصل بن عطاء[٥١]، ومعبد الجهني[٥٢]، وغيلان الدمشقي[٥٣]، فكانوا أول صوت للفكر العربي

٤٩- اليمين واليسار في الإسلام: أحمد عباس صالح، ص٨٥ بينما يقول القاضي عبد الجبار الهمداني: «أن أول من قال بالجبر وأظهره معاوية. وقوله إن معاوية أظهر أن ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه ليجعله عذراً في ما يأتيه. ويوهم أنه مصيب فيه وأن الله جعله إماماً وولاه الأمر. وفشا ذلك في ملوك بني أمية». عن كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل، للهمذاني، الجزء الثالث، ص٤

٥٠- الحسن البصري: أبو سعيد، ولد في المدينة سنة ٢١ للهجرة/٦٤٢ ميلادية وأقام في البصرة وتوفي فيها سنة ١١٠ للهجرة/٧٢٨ ميلادية. كان من التابعين ومشاهير الثقات. أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي. نشأ بوادي القرى وكان من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما شوه خلقته. كان فريداً في معرفة الأحكام الشرعية والتدريس والوعظ والحديث. أثر تأثيراً عظيماً في جيله من المسلمين وعنه اعتزل واصل بن عطاء الذي غدا رأس المعتزلة.

الإسلامي ارتفع متحدياً الفكر الجبري الرسمي لبني أمية، ذلك الفكر الذي وطد دعائم الحكم الوراثي المطلق وجعل من الخليفة القيّم على دين الله وشريعته والدولة الإسلامية وأموالها.

خطب المنصور في يوم عرفه قال[٥٤]:

«... أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده. وأنا خازنه على فيئه أعمل بمشيئته وأقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه. فقد جعلني الله عليه قفلاً إذا شاء

٥١- واصل بن عطاء: أبو حذيفة. توفي سنة ١٣١ للهجرة/٧٤٨ ميلادية. رأس متكلمي المعتزلة وأكبر أركان هذه النحلة رأيه تُنسب الواصلية. ولد في المدينة وانتقل إلى البصرة حيث اتصل بالحسن البصري وعمرو بن عبيد. لقب بالغزال من مؤلفاته: «السبيل إلى معرفة الحق» و «الخطب في التوحيد والعدل». اعتبر العقل مصدراً للمعرفة، وأثبت حرية الإرادة.

٥٢- معبد الجهني: ولد بالبصرة وانتقل إلى المدينة. توفي سنة ٨٠ للهجرة/٦٩٩ ميلادية. أول من تكلم في القدر فقال بأن العبد مخير. كان معارضاً للأمويين وختم حياته مشاركاً في حركة عبد الرحمن بن الأشعث الذي اختلف مع الحجاج وشق عصا الطاعة واستطاع السيطرة على البصرة وكرمان ثم استولى على الكوفة. وبعد مقتل ابن الأشعث في معركة دير الجماجم أسر وذبح بأمر من الحجاج. والقدر يعني أن الإنسان خالق لأفعاله ومسؤول عنها وليست مقدرة عليه.

٥٣- غيلان الدمشقي: هو غيلان بن مسلم، وقيل غيلان بن مروان، وقيل غيلان بن يونس. كان أبوه مولى من موالي عثمان بن عفان من أصل مصري (قبطي) وكان في الفقه من أصحاب الحسن البصري. اشتهر كصاحب فرقة سميت «الغيلانية» نادت بأن الإنسان حر مختار في تصرفاته وصانع لأفعاله، وقامت بنشاط سياسي هام ضد الأمويين وفي عاصمتهم دمشق.

كان غيلان من الوعاظ والكتاب والخطباء البلغاء. حول عمله عندما كلف بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز بمسؤولية بيع الخزائن ورد المظالم والأموال المغتصبة من الأمة إلى مظاهرة سياسية واجتماعية عرت نظام الحكم الأموي من ثيابه، وكشفت عن الكثير والقبيح من عوراته. فكان ينادي على بضاعته ويدعو الناس إليها ويقول: «تعالوا إلى متاع الخونة.. تعالوا إلى متاع الظلمة... تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته».

لما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك أمر باعتقاله وصلبه على باب كيسان بعد ما أفتى الفقيه الأوزاعي بقتله. فقطعوا أولاً يديه، ثم ثنوا بقطع رجليه. ومع ذلك استمر غيلان بممارسة رسالته وهو على هذه الحال حتى خشي أنصار هشام من مواعظه والحقائق التي تدين تصرفات الحكام الأمويين. فأبلغوا هشاماً... فأمر بقطع لسانه حتى فاضت روحه. وبذلك انتهت حياة غيلان التي كانت بحق تجسيداً لموقف ثوري اتخذه من سلبيات المجتمع الذي عاش فيه. عن كتاب مسلمون ثوار للدكتور محمد عمارة، سلسلة كتاب الهلال العدد رقم: ٢٥٣، ص٦٢ وما بعدها.

٥٤- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: أسد حيدر، الجزء الرابع، ص٥٤ نقلاً عن تاريخ الطبري المجلد الثامن، ص٨٩

أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيكم فتحني. وإذا شاء أن يقفلني أقفلني فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ويفتحني لأعطياتكم».

ولا تعني هذه الكلمات إلا أمراً واحداً فقط هو: أن المال العام للأمة هو مال الله وبالتالي فهو مال الخليفة. ومن كان سلطان الله وخليفته في أرضه وعلى عباده، وأن إرادة الله وحدها هي التي تسيره، فإنه لا يستطيع أن يتصرف إلّا بما اختاره الله لعباده من خلاله.

لذلك لا يجوز أن يُسأل الخليفة عن تصرفاته أمام أحد. الله وحده هو الذي يسأل ويحاسب؟!. وبالتالي فإن تصرفات الخليفة مهما كانت شاذة وظالمة فهي أمر إلهي وقدر مرسوم لا يمكن تغييره وتبديله أو الانتقاص منه أو الاعتراض عليه. ومن يعترض على ذلك فإنه يقاوم إرادة الله ويعترض على حكم الله. فالطاعة هي المطلوبة من قبل الجميع حتى درجة العبادة في كل شيء وعلى كافة المستويات. والعاقل من يدرك فيتعظ ويدخل جوقة المزمرين فيزمر[٥٥]، أو يبتعد إذا استطاع كما فعل العتابي.

سُئل العتابي[٥٦]:

«... لم لا تقترب بأدبك من السلطان؟!.

فقال: لأني رأيته يُعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويرمي من السور في غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون».

إن مثل هذه السلطة الغاشمة التي تنخر أسسها هوة واسعة جداً بين القول والعمل

٥٥- يُزمِّر: من زمر بمعنى دخل في جوقة المؤيدين والمنافقين والمداهنين والمصفقين، وقد أخذتها من قول الخليفة عبد الملك بن مروان عندما سمى قصيدة الأخطل «خفّ القطين» بـ «المُزمِّرة».

يذكر صاحب كتاب الأغاني في المجلد الثامن ص٣٠٧: أن عبد الملك تطاول عجباً وتيهاً لما سمعها وقال: «هذه المزمرة والله لو وضعت على زُبَرِ الحديد لأذابتها». والزُبَرُ قطعة الحديد الضخمة. ثم أمر له بخلع فخلعت عليه حتى غاب فيها وجعل يقول: «إن لكل قوم شاعر وأن الأخطل شاعر بني أمية» وما ذلك إلّا لأن عبد الملك كان يعي وعياً كاملاً حقيقة دور الشعر كسلاح فتّاك في وجه الخصوم وكناشر للمآثر وكسجل خالد لا يفنى. وبالمقابل كان الأخطل الشاعر الأكثر تعبيراً عن جوهر السياسة الأموية وأهدافها التي تتلخص بالطاعة ولزوم الجماعة وقبول الدولة الأموية والخضوع لسلطانها.

٥٦- هرون الرشيد: الدكتور أحمد أمين سلسلة كتاب الهلال، العدد رقم ٣، ص١٩٢.

بين الذين يكدحون وينتجون ولا يملكون، وبين كبار الملاكين العقاريين والأثرياء المتلاعبين بأموال الشعب في مجتمع ينافق بعضه بعضاً وتستباح به كل القيم السائدة التي يتظاهر الجميع بالتزامها في العلن ويتخلون عنها في السر وفي مقدمتهم الخليفة. إن مثل هذه السلطة لا يمكن أن يلتف حولها رجال مخلصون فاعلون لأنها لا تريد رجالاً بل أشباه رجال تخلق منهم أزلاماً تابعين لها، ويأتمرون بأمرها. تخلق منهم مزمرين يزمرون وينافقون لها ويلعقون من زبدتها.

● ظاهرة السرف في الترف:

وأخذت الدولة العباسية بمظاهر الأبهة والعظمة بشكل لم تعرفه الدولة الأموية من قبل. فالخلفاء الأمويون حكموا البلاد في نواحي متعددة حكماً عربياً فيه بساطة الحياة العربية، وفيه عيوب القبلية. فكانوا متعصبين تعصباً عربياً خالصاً. فالولاة عرب وكل شيء عربي، بينما كان الموالي أذلاء خافتو الأصوات لدرجة «كان العربي أحياناً لا يريد أن يُصلي وراء الإمام المولى»[٥٧].

وكانت قصور الأمويين فخمة لكنها بسيطة. وكان مثلهم الأعلى في مجالسهم ومظاهر أُبهة ملكهم أمراء غسان وأمثالهم، وربما قلدوا نسبياً ملوك الروم. بينما حكم العباسيون البلاد حكماً يماثل الحكم الفارسي، فانتقلت العصبية فيه إلى عصبية للفرس، وأصبحت التقاليد والأعياد وغير ذلك فارسية، حتى إنهم يروون: «أن رجلاً من الشاميين صرخ في المأمون عند زيارته للشام يقول له: انظر إلينا كما تنظر إلى الفرس»[٥٨]. وغدت قصورهم فخمة لكنها معقدة، ومثلهم الأعلى أكاسرة الفرس.

كتب الدكتور محمد أحمد حنفي يقول[٥٩]:

«... كلما خرج الخليفة تتقدمه كوكبة من الحراس في زيٍّ نظامي. وكان الرشيد والمأمون يخرجان للصلاة في يوم الجمعة في أعظم مظاهر الملك والخلافة. يتقدم الموكب فرقة من المشاة تحمل الأعلام، ثم فرقة الموسيقى تصدح بحلو الأنغام. ثم يظهر خلف الموسيقى جماعة الأمراء على جياد مطهمة مزدانة. وأخيراً يُقبل الخليفة على جواد أبيض

٥٧- المصدر السابق، ص١٤٣

٥٨- هرون الرشيد: الدكتور أحمد أمين، سلسلة كتاب الهلال، العدد رقم: ٣، ص١٥٠

٥٩- إسحق الموصلي للموسيقار النديم: دكتور محمد أحمد حنفي، سلسلة أعلام العرب رقم: ٣٤، ص٥٢

يتبعه كبار رجال الدولة ثم بقية الحرس في نهاية الموكب، وكانت تتجلى عظمة الخليفة أيضاً في المقابلات الرسمية وفي الأعياد والاحتفالات القومية».

وطغت موجة البذخ والسرف في الترف في عهد هرون الرشيد، بل منذ أيام أبيه المهدي الذي «كان أول خليفة يُحمل إليه الثلج إلى مكة وهو يحجّ»[٦٠] وكان ميالاً للبذخ محباً للطرب واقتناص اللذات لدرجة نهر أبا فرعون وأبعده عن بلاطه عندما أشار عليه بعدم الظهور لندمائه وقال له: «إليك عني يا جاهل إنما اللذة في مشاهدة السرور وفي الدنوّ ممن يسرني. فأما من وراء وراء فما فائدتها ولذتها»[٦١].

ولنا من حفل الزفاف الذي أقامه المهدي لابنه هرون المثال الأسطع حيث أقام حفل زفافه من زبيدة في قصر الخلد[٦٢] على ضفاف دجلة. ودعا إليه الناس قبل شهور من الآفاق وأتى بالآنية المصنوعة من الذهب والفضة وبالفرش وابسط الأرمنية الفاخرة التي كان الخليفة الوليد بن يزيد يحبها ويحرص على جلبها ليفرش بها أرض مجالسه ويزين بها جدران قصوره. وأحضر الثياب المطرزة بالذهب، وجلب الطيب المختلف الألوان، والحلي المرتفع الأثمان، وملأ القصر بأجمل الوصائف والخدم والغلمان. وتزينت زبيدة بالحلي حتى لم تعد تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجوهر.

كتب الشابشتي يقول[٦٣]:

«... فإن المهدي زوج ابنه الرشيد بأم جعفر ابنة أخيه فاستعد لها ما لم يُستعد لامرأة قبلها من الآلة وصناديق الجوهر والحلي والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة... وأعطاها بدنة[٦٤] عبدة امرأة هشام ولم يُر في الإسلام مثلها ومثل الحَبِّ الذي كان فيها... ودخل بها الرشيد في قصره المعروف بالخلد.

٦٠- ضحى الإسلام: الدكتور أحمد أمين، الجزء الأول، ص١٠٩

٦١- التاج في أخلاق الملوك: للجاحظ، تحقيق أحمد زكي باشا، ص٣٤

٦٢- قصر الخلد: قصر فسيح بناه المنصور وراء باب خراسان على ضفة دجلة اليمنى وهو أشبه بمدينة صغيرة بفنائه الواسع وأجنحته المتعددة.

٦٣- الديارات: علي بن محمد الشابشتي، تحقيق كوركيس عواد، دير السوس، ص١٥٧

٦٤- البدنة: ما يُلبس من الثياب على البدن مباشرة. وهي قميص من الذهب كانت لعبدة زوجة هشام بن عبد الملك، ويقال إنه لا يدخل فيها من الغزل سوى أوقيتين ويُنسج سائرها من الذهب، وكان في ظهرها وصدرها خطان ياقوت أحمر وباقيها من الدُرّ الكبار الذي ليس له مثيل.

وحشر الناس من الآفاق وفرق فيهم من الأموال أمر عظيم. فكانت الدنانير تُجعل في جامات[٦٥] فضة، والدراهم في جامات ذهب، ونوافج[٦٦] المسك وجماجم[٦٧] العنبر والغالية[٦٨] في بواطي[٦٩] زجاج. ويُفرق ذلك على الناس ويخلع عليهم خلع الوشي المنسوجة... وبلغت النفقة في هذا العرس من مال الخاصة سوى ما أنفقه الرشيد من ماله خمسين ألف درهم».

ومن شواهد الثراء الفاحش والإسراف والبذخ اللامتناهيين، ما ذكره المؤرخون أيضاً عن حفل زفاف «المأمون بالله حين دخل بخديجة بنت الحسن بن سهل المعروفة ببوران في فم الصلح في سنة عشر ومائتين»[٧٠] والتي أمهرها المأمون بـ «مائة ألف دينار وخمسة آلاف ألف درهم»[٧١].

كتب الخطيب البغدادي يصف هذا الاحتفال قال[٧٢]:

«... لما بنى المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل وانحدر إليهم من ناحية واسط فُرش له يوم البناء حصير من الذهب المسفوف[٧٣] ونثر عليه جواهر كثيرة فجعل بياض الدُّر يُشرق على صفرة الذهب وما مسّه أحد. فوجّه الحسن إلى المأمون هذا نثار يجب أن يُلقط. فقال المأمون لمن حوله من بنات الخلفاء: شرِّفْنَ أبا محمد. فمدت كل واحدة منهُنَّ يدها فأخذت دُرَّةً وبقي الدر يلوح على الحصير الذهب.

فقال المأمون: قاتل الله أبا نُواس، لقد شبه بشيء ما رآه قط فأحسن في وصف الخمر والحباب الذي فوقها فقال:

٦٥- جامات: مفردها جام، بمعنى الكأس.

٦٦- نوافج: مفردها نافجة، وعاء المسك.

٦٧- الجماجم: مفردها جمجمة، وهي قدح من خشب.

٦٨- الغالية: أخلاط من الطيب.

٦٩- البواطي: مفردها بوطة، البوتقة، وهي كلمة فارسية.

٧٠- كتاب الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، ص١٧٩

٧١- الديارات: علي بن محمد الشابشتي، تحقيق كوركيس عواد، ص١٥٨

٧٢- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، المجلد السابع، ص٣٢

٧٣- المسفوف: المنسوج من سفَّ: بمعنى نسج.

كأنَّ صغرى وكبرى من فواقعها حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذهب

وذكر أن نفقة هذا الحفل كلفت المأمون ما بين خمسة وثلاثين أو سبعة وثلاثين ألف درهم، وأن الحسن والد بوران أنفق «على قواد المأمون وحملهم وصلتهم والخلع عليهم خاصة خمسين ألف ألف درهم سوى ما أنفقه على تجهيز بوران سبعة وثلاثين ألف درهم»[74].

كتب ويل ديورانت يقول[75]:

«ولما أن عقد هرون الرشيد لابنه المأمون على بوران نثرت جدتها على العريس بدرة[76] من اللؤلؤ. ونثر والدها على المدعوين كرات من المسك تحتوي كل منها على وثيقة تعطي صاحبها الحق في عبد أو جواد أو ضيعة أو هدية أخرى».

وأنفق جعفر بن يحيى على «عرس المأمون بأم موسى بنت عيسى الهادي من ماله الخاص خمسة عشرة ألف ألف درهم سوى ما أنفق المأمون وذلك سنة ثمان وثمانين ومئة»[77].

وتفنن الخلفاء والأمراء والأغنياء في التنافس على امتلاك كل طريف ونفيس ولذيذ وجميل. غير آبهين لما ينفقون ولا مترددين من هول ما يسرفون. وكان الرشيد يُقرب إليه كل من يفتيه بما يروقه وينسجم مع رغباته ويجزل له العطاء.

ولما شعر بعض الفقهاء والوعاظ بذلك اجتهدوا على إرضائه بفتاويهم، بل حتى

٧٤- كتاب الذخائر والتحف: للقاضي الرشيد بن الزبير، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، ص٩٩

٧٥- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني المجلد الرابع، ص١١١

٧٦- البدرة: جمع بُدَر وبدور: عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار. ويعتقد أن البدرة في أيام العباسيين كانت تحتوي على عشرة آلاف درهم وسميت بذلك لوفورها. قال بعضهم ومنه سُمي القمر ليلة أربع عشرة بدراً لتمامه وامتلائه من النور. وقيل البدرة جلدة السخلة إذا فطمت، والجدع من المعز يملأ مالاً. وسمي المال بدراً باسم الوعاء مجازاً. عن كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المجلد الثاني، ص٣١٦

٧٧- كتاب الذخائر والتحف: مصدر سابق، ص١٠١

على إرضاء زوجته زبيدة التي أهدت أبا يوسف القاضي[٧٨]: «لأجل فتوى أفتاها توافق مرادها فكان فيه حُقٌ[٧٩] فضة فيه حقان في كل حُقٍ لون من طيب، وجام ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنانير، وغلمان وتخوت من ثياب وحمار وبغل»[٨٠].

كتب أسد حيدر يقول[٨١]:

«.. كان الرشيد قد أعطى ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كتاب الأمان، ثم أراد إبطاله، فسأل محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة.

فقال: هذا أمان صحيح ودمه حرام،، فدفع الكتاب إلى الحسن بن زياد، فقال بصوت خفيف: أمان.

فدخل أبو البختري وهب بن وهب القاضي، وأخرج من خفه سكيناً فقطع الكتاب وقال: هذا أمان مفسوخ، وكتاب فاسد، ودمه في عنقي... فقال له الرشيد عند صدور هذه الفتيا: أنت قاضي القضاة، وأنت أعلم بذلك وأجازه بألف ألف وستمائة ألف درهم».

وكتب القاضي الرشيد بن الزبير يقول[٨٢]:

«... خاصم الرشيد زوجته أم جعفر زبيدة.

فقالت له: والله ما رأيت الجنة ولا دخلتها.

٧٨- أبو يوسف القاضي: هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري. كوفي وهو صاحب أبي حنيفة وتلميذه. سكن بغداد، وتولى القضاء للمهدي والهادي والرشيد، وهو أول من دُعي بقاضي القضاة. اتصل بالرشيد وجالسه وكان يكرمه ويُجله. وكان خطيباً مكيناً عند الرشيد لأنه كان يفتي له بما يروقه ويوافق مزاجه ويرضيه. وكان كثير الأحاديث والأخبار وله تصانيف عدة.

٧٩- الحُقّ: حقق وحقاق: الأرض المستديرة، رأس الورك، بيت العنكبوت، الوعاء الصغير، وحُق الطيب: وعاؤه.

٨٠- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: أسد حيدر، المجلد الثاني، ص٢٢٦ نقلاً عن المسعودي.

٨١- المصدر السابق: ص٢٩٠ المجلد الأول. نقلاً عن مفتاح السعادة، طاش بكري زاده-الجزء الثاني ص١١٠

٨٢- كتاب الذخائر والتحف: للقاضي الرشيد بن الزبير، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، ص٢٢٣

فقال لها: إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق ثلاثاً. فأشخص مالك بن أنس من المدينة، وسفيان بن عيينه من مكة، وإسماعيل بن عياش من حمص، والليث بن سعد من مصر، وسألهم عن ذلك. فما أفتاه أحد منهم غير الليث بن سعد فإنه قال: يا أمير المؤمنين تصدقني عما أسألك عنه؟

قال: نعم.

قال: هل تخاف مقام اللّه؟

قال: نعم.

قال: فليس لك جنة واحدة لك جنتان. قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنّتان﴾[٨٣]. راجع زوجتك فلا حنث عليك. فأمر له بعشرة آلاف دينار وأقطعه ضيعة بريف مصر تعرف بقرقشنده».

وكتب النويري يقول[٨٤]:

«... سأل الرشيد الأوزاعي عن لبس السواد قال: لا أحرّمه ولكن أكرهه.

قال: ولِمَ؟

قال: لأنه لا تُجلى فيه عروس. ولا يُلبي فيه محرم، ولا يكفن فيه ميت.

فالتفت الرشيد إلى أبي يوسف القاضي وقال: ما تقول أنت في السواد؟

قال: يا أمير المؤمنين النور في السواد. فاستحسن الرشيد ذلك، ثم قال: وفضيلة أخرى يا أمير المؤمنين

قال وما هي؟

قال: لم يكتب كتاب اللّه إلّا به. فاهتز الرشيد طرباً.»

ويقال أن الرشيد كان يُعطي الكثير من الدنانير وغيرها من الجوائز لمن يمدحه في بيت من الشعر يُعجبه.

٨٣- سورة الرحمن: الآية رقم: ٤٦

٨٤- نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، المجلد الرابع، ص١٦

كتب ويل ديورانت يقول[٨٥]:

«... إنه أهدى الشاعر مروان (المقصود مروان بن أبي حفصة) على قصيدة مدحه بها خمسة آلاف قطعة من الذهب (يقصد ويل ديورانت بقطعة الذهب الدينار) وصِلة ثمينة وعشر جوار من بنات الروم وجواداً كريماً.»

وربما وهب الرشيد لمن غنت له فأحسنت أو تغنى فأجاد آلاف الدنانير أو لمن استطاع أن يُدخل السرور إلى نفسه من المهرجين والمضحكين.

كتب أسد حيدر يقول[٨٦]:

«... وغناه مسكين المدني فأطربه، فأمر له بأربعة آلاف دينار، وأضحكه ابن مريم فأعطاه ألف ألف دينار، وأنه كان في داره من الجواري والخصيان وخدمهن وخدم زوجته وأخواته: أربعة آلاف جارية. وحضرت عنده يوماً فغنته المطربات منهن فطرب جداً وأمر بمال فنثر عليهن. وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم».

ويقال إن الخليفة الهادي أجاز في يوم واحد للمغني إبراهيم الموصلي بـ «مائة وخمسين ألف دينار. حتى قال إبراهيم: لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة»[٨٧] و «إن قصر الخليفة في بغداد قد فرشت أرضه بـ ٢٢ ألف طنفسة (سجادة) وعلقت على جدرانه ٣٨ ألف قطعة من القماش المزركش و ٢٥٠٠ قطعة من الحرير»[٨٨].

وأحب بنو العباس الذهب والجوهر وشغفوا بها شغفاً كبيراً. فدخل الذهب والدر والياقوت في صناعة أثاث دورهم وقصورهم الواسعة.

كتب جرجي زيدان يقول[٨٩]:

٨٥- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني المجلد الرابع، طبعة عام ١٩٧٤، ص٩١

٨٦- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: أسد حيدر، المجلد الثاني الجزء الثالث ص٢٢٥ نقلاً عن المسعودي.

٨٧- إسحاق الموصلي الموسيقار والنديم: دكتور محمد أحمد الحفني، سلسلة أعلام العرب العدد رقم: ٣٤، ص٣٥

٨٨- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني المجلد الرابع، ص١٦٣

٨٩- التمدن الإسلامي: جرجي زيدان، الجزء الخامس، ص١٠٦

«... واتخذوا الأسرة الذهبية المرصعة بالجوهر والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت».

وتزين الخلفاء بالجواهر والخواتم والتيجان والوشح المرصعة والقلانس المجوهرة والقضبان العاجية الثمينة والأعمدة المذهبة. ولم تكن زبيدة زوج الرشيد أقل اهتماماً وعناية وشغفاً بالجوهر من زوجها.

فكانت «لا تستطيع أن تقوم لكثرة ما عليها من الجوهر والحلل»[٩٠]. وأنها اتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر تلبسها في قصرها، والثياب المصنوعة من الوشي الرفيع الباهظ الثمن: «بلغ ثمن الثوب الواحد منها ما قيمته خمسين ألف دينار»[٩١]. وكان «لها سبحة من يواقيت رمانية كالبنادق وكان شراؤها خمسين ألف دينار»[٩٢] وقيل إنها أمرت أن يُتخذ «لوصائفها ثياب من الدر المثقوب بالتصليب»[٩٣]. ولم يذكر التاريخ امرأة فعلت فعل زبيدة هذا من قبل ولا من بعد.

ويقال إن الرشيد اشترى «فَصّ[٩٤] ياقوت أحمر بثمانين ألف دينار وكان وزنه مثقالاً[٩٥] ونصف»[٩٦]. واشترى أيضاً من مسلم بن عبد الله العراقي الذي كان قد «حصل بيده درتان إحداهما اليتيمة والأخرى دونها فحملهما إلى الرشيد وباع عليه اليتيمة بسبعين ألف دينار والصغيرة بثلاثين ألف دينار، وانصرف إلى عمان بمئة ألف دينار فبنى بها داراً عظيمة جليلة وأشترى ضياعاً واعتقد عقداً»[٩٧].

وإن عيسى بن أبي جعفر المنصور كان يملك فصاً من الياقوت الأحمر وأنه انصرف

٩٠- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: أسد حيدر، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص٢٢٦

٩١- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، المجلد الثاني، ص٣٦٦

٩٢- بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي: الدكتور صلاح الدين المنجد، ص٥٧

٩٣- الجماهر في معرفة الجواهر: البيروني، ص٥٨

٩٤- الفَصّ: جمعها فصوص وفصاص. ما يركب في الخواتم من الحجارة الكريمة، ويسمى أيضاً قلب الخاتم.

٩٥- المثقال: جمعها مثاقيل: ما يوزن به قليلاً كان أو كثيراً.

٩٦- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: أسد حيدر، المجلد الثاني: الجزء الثالث، ص٢٢٦

٩٧- الذخائر والتحف: للقاضي الرشيد بن الزبير، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، ص١٧٧

ليلة من عند الرشيد وفي اصبعه خاتم فيه هذا الفص. فسقط الفص منه فلم يوجد «فأمر غلمانه بإطفاء الشمع، فلما أظلمت الطريق أضاء كالنار فأخذه»[٩٨]

وذكر البيهقي أن الرشيد «اشترى جوهراً بمائتي ألف دينار فوهبه لدنانير[٩٩] البرمكية»[١٠٠] وأن محمد الأمين لم يكن أقل شغفاً بالجوهر من والديه، وأنه «كان لا ينقطع عن السكر وكان يشرب بأقداح من بللور كُللت جوانبها بالجوهر الثمين»[١٠١] بينما أعطى المأمون «زوجته بوران ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت»[١٠٢] ووهب للحسن بن سهل والد بوران «عقداً قيمته ألف ألف درهم»[١٠٣]. ولما دخلت عليه زبيدة تهنئه بالخلافة بعد دخوله بغداد و «أعجب بكلامها حشا فاها دُراً»[١٠٤].

وحرص الخلفاء العباسيون على انتقاء ما لذّ وطاب من الطيبات وضروب الشراب والفاكهة والطعام، وبشكل خاص بعد أن تدفقت خيرات البلاد المفتوحة على الحواضر العربية الكبرى مع أمواج الوافدين من سكانها والجنبيات من الجواري والقيان الذين حملوا معهم الشيء الكثير من حضاراتهم وعاداتهم وخبرتهم في كل فن بما في ذلك خبرتهم في فن صناعة البطون.

كتب الدكتور صلاح الدين المنجد يقول[١٠٥]:

«... لا شك أن أثر الفرس والروم في الأطعمة العباسية كان واضحاً. فقد عرفوا طرائق الطعام الفارسية، وطرائقه الرومية، وأقبلوا على اللحوم والبقول وعلى البوارد والحلويات. وعكفوا على التنويع والتفنن في التحضير مما لا عهد للعرب الأوائل فيه».

٩٨- المصدر السابق، ص١٧٨

٩٩- دنانير: جارية كوفية صفراء اللون، كانت للشاعر العباسي محمد بن كناسة. ثم اشتراها منه يحيى بن خالد البرمكي. وقد عرفت بجمال الوجه ورشاقة القد وبالفضل والتقدم على كبار المغنين. فتنت الرشيد واستهوته. فأهداها مرة في ليلة عيد عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار وقيل غير ذلك.

١٠٠- المحاسن والمساوئ: إبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق فريد ربك شوالي، ص٥٤٤

١٠١- المصدر السابق، ص٣٦٢

١٠٢- بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي: الدكتور صلاح الدين المنجد، ص٥٧

١٠٣- مطالع البدور في منازل السرور: علاء الدين الغزولي، الجزء الثاني، ص١٣٨

١٠٤- بين الخلفاء والخلعاء: مصدر سابق، ص٥٩

١٠٥- المصدر السابق، ص٥٩

فكانت المآدب الفاخرة والموائد العامرة تُزيّن بأطيب الأطباق وأشهاها وأغربها وأغلاها ليسعدوا بطيب وفاخر أصنافها، وينعموا بلذيذ مذاقها. تُحمل إليهم من مختلف الأقطار والأصقاع مع الخراج الى قصورهم في بغداد.

فأكلوا لحم السمك والدجاج، وأدمغة الطيور وألبان الظباء، وشربوا منذ أيام الرشيد ما يُسمى اليوم بشراب «الروم» وهو لون من الخمر ممزوج بالعسل كان يُشرب في بلاد الروم ويدعى بـ «الرساطوني». وأطعموا «كلابهم» الدجاج المسمن والجداء كما يأكلون، وعلفوا حميرهم السمسم كما يتنقلون»[١٠٦]. وربما «علفوا الفراريج بالفستق المقشر وسقوها اللبن والحليب»[١٠٧]. وتفننوا حتى أغربوا فعمدوا إلى السمك ينزعون ألسنته ليأكلون.

كتب المسعودي يقول[١٠٨]:

«... ودعا إبراهيم بن المهدي الرشيد مرة فأعدَّ له طبقاً من ألسنة السمك وأنفق على صفحة صغيرة منه مبالغ طائلة».

وبذخوا على الطعام حتى أسرفوا. فقد قيل إن الرشيد «كان ينفق على طعام في كل يوم عشرة آلاف درهم وإنه ربما اتخذ له الطباخون ثلاثين نوعاً من الطعام»[١٠٩]. بينما قالوا عن مائدة المأمون إنها «ضمّت ذات يوم ثلاثمائة لون»[١١٠]. وذكر آدم متز أن نفقات دار الخلافة في القرن الرابع الهجري كانت عظيمة جداً. وأن نفقات المطابخ والمخابز فقط «بلغت عشرة آلاف دينار في الشهر»[١١١].

١٠٦- يتيمة الدهر في محاسن الشعراء في كل مصر: أبو منصور الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المجلد الثالث، ص٥٠

١٠٧- الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس: الدكتور صلاح الدين المنجد، ص١٠ نقلاً عن عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

١٠٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي: تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، المجلد الثاني، ص٢٧٩

١٠٩- المصدر السابق: المجلد الثاني، ص٣٤٤

١١٠- تاريخ الأدب العربي، الدكتور شوقي ضيف، الجزء الثالث، ص٥٣

١١١- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم متز، ترجمة عبد الهادي أبو ريده، المجلد الأول، ص٢٧٥

لقد تميز مجتمع الخلافة العباسية منذ أيام المهدي، وبشكل خاص في عهد الرشيد ومن تلاه من الخلفاء بظواهر اجتماعية هامة ومرموقة جعلت من بعض الشرائح والفئات الاجتماعية في المجتمع البغدادي وفي بعض حواضر الدولة العباسية أن يعيشوا فعلاً لا قولاً حياة مجتمع ألف ليلة وليلة المخملي الأسطوري. فأخلدوا إلى الرفاهية وسكنوا إلى الهناء والنعيم. وماجت حياتهم بضروب من الطرب والجمال والصهباء والنساء والغلمان، والغُلوّ في الملبوس والمأكول والمنظور والمشموم، فتسابقوا إلى اقتناص اللذات وتحقيق الشهوات ليل نهار.

كتب ويل ديورانت يقول[١١٢]:

«... وكانت الطبقات العليا تعيش وسط هذا النعيم عيشة الترف واللّهو، ويحتسون الخمر المعتقة المحرمة، ويأكلون الطعام المبتاع من أقاصي البلاد بأغلى الأثمان. ويرتدون ونساؤهم أنواع الحرير المختلف الألوان المطرز بخيوط الفضة والذهب. ويعطرون ثيابهم وشعرهم ولحاهم، ويستنشقون رائحة العنبر والكندر[١١٣] ويزينون رؤوسهم وآذانهم ورقابهم ومعاصمهم وسيقانهم بالحلي الثمين».

فأقاموا الولائم والأفراح، ووجهوا الدعوات إلى الحفلات والسهرات والنزهات بمناسبة وغير مناسبة. فعقدوا مجالس سمرهم على هدى بسمات جدائل القمر الفضية. وزغردت أعراس قصفهم وعزفهم ورقصهم على أنوار زهر الرياض والبساتين وتورد ورود الخدود وميس القدود، وأمضوا لياليهم وأيامهم في الديارات والخمارات على «هدير السلافة ورنين الناقوس، وهتاف السكارى وأشعار الندامى ورعاية الراهبات»[١١٤].

وربما أقاموا بعض مجالس سمرهم ونديّ حفلاتهم وراء أسوار قصورهم الساجية الظلال، حيث كانوا يتعللون راضين مرتاحين منعمين على أنغام قينة تشدو وجارية تميس وخصر يهتز، وردف يعلو ويهبط ويرف، وغلمان مقرطقون[١١٥] ترتاح لصباحتهم

١١٢- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني، المجلد الرابع، ص١٦٤

١١٣- الكندر: كلمة يونانية تدل على صمغ شجرة شائكة ورقها كالآس وهو ضرب من الطيب شديد الرائحة.

١١٤- الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس: الدكتور صلاح الدين المنجد، ص١١٠

١١٥- المقرطق: لابس القرطق، والقرطق قباء له طاق واحد.

العيون. يديرون كؤوس الراح فينبعث الشوق والسرور فلا هموم ولا أتراح، ويشرق الفرح والحبور حتى يثملوا ويسكروا... وكلما استيقظ واحدهم من سكرته:

جـذب الـزِّق إلـيـه واتـكـا ... وسـقـاهـم أربعاً في أربع(116)

ولمع شعراء اشتهروا في وصف ما يجري من لهو وعبث وقصف وطرب في هذه المواقع والأماكن. كما برز آخرون وصفوا الولائم والموائد، وتفننوا بالمآكل والثرائد، فنظموا القصائد والمقطعات في تعداد ووصف ومديح وتفضيل أنواع الأطعمة وضروب الفاكهة والحلويات ليس تحسراً كما يفعل الناس الجياع والسواد الأعظم من أبناء الشعب، ولا تلهفاً على تذوقها كما يفعل الأكلة النهمون. بل تلبية لداعي الترف وتغنياً بمجد البذخ والسرف. ولم لا والمال بحمد الله كثير والخير وفير والعمر محدود وسيف القدر ممدود.

●بغداد بلد العوز والإقتار:

وكان كل هذا السرف وهذا الترف على حساب البؤس المتحكم، والفقر المدقع اللذين تعاني منهما العامة ومعظم قطاعات الشعب. وغدت بغداد دار السلام وحاضرة الملك ومركز الذوق وموئل الظرف، بلد العوز والإقتار والفقر والضنك والإقلال لمعظم الناس بما فيهم بعض أهل العلم والمعرفة والعديد من الأدباء والشعراء اللذين لم يذوقوا هناء النعيم، ولا عرفوا لذة اليسار.

قال الشاعر(117):

بـغـداد دارٌ طـيـبُـهـا آخِـذٌ ... نـسـيـمـهـا مـنـي بـأنـفـاسـي

تـصـلـحُ لـلـموسر لا لامرئٍ ... يـبـيـت فـي فـقـر وإفـلاسِ

حـور وولـدانٌ ومـن كُـلُّ مـا ... تـطـلـبـه فـيـهـا سـوى الـنـاسِ

وقال أبو محمد عبد الوهاب المالكي(118):

بـغـداد دارٌ لأهـل المال طـيـبـةٌ ... وللصعاليك دار الضنكِ والضيق

بقيتُ أمشي مضاعاً في أزقتها ... كأنني مُصحفٌ في بيت زنديق

116- البيت من موشح للخليفة الشاعر عبد الله بن المعتز. ديوان الشاعر، شرح محي الدين الخياط، ص236

117- معجم البلدان: ياقوت الحموي، مادة بغداد، الجزء الأول، ص193

118- بغداد مدينة السلام: طه الراوي، سلسلة اقرأ العدد رقم: 27، ص26

ومن المناسب أن نُذكّر بأبيات من قصيدة طويلة لأبي العتاهية[١١٩] الشاعر يترجى فيها الخليفة، ويستدر عطفه ورفده، ويؤكد مودته له، وإخلاصه. يصور أبو العتاهية في هذه الأبيات بؤس الشعب وسوء حاله، ويتحدث عن ارتفاع الأسعار ونزرة المكاسب، وفشوّ الضرورة التي هي المعبر الأسهل والأسرع للثراء غير المشروع.

قال أبو العتاهية[١٢٠]:

مَن مُبلغٌ عني الإمام	نصائحاً متواليهْ
أني أرى الأسعار أسـ	ـعار الرعية غاليهْ
وأرى المكاسب نزرةً	وأرى الضرورة فاشيهْ
وأرى غموم الدهر را	ئحةً تمرُّ وغاديهْ
وأرى اليتامى والأرا	مل في البيوت الخاليهْ
يشكون مجهدةً بأصوا	تٍ ضعافٍ عاليهْ

ثم يختمها بقوله:

ألقيتُ أخباراً إليـ	ـك من الرعية شافيهْ
ونصيحتي لك محضةٌ	ومودتي لك صافيهْ

وتحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن المأمونية[١٢١] والمتوكلية[١٢٢]، وعن لقمة الخليفة

١١٩- أبو العتاهية: لقب غلب عليه. اسمه إسماعيل بن القاسم وكنيته أبو إسحق. ولد في عين التمر بالقرب من الأنبار عام ١٣٠ للهجرة ونشأ في الكوفة من أسرة فقيرة. كان أبوه حجاماً من أصل نبطي. اشتغل مع أخيه زيد وبعض أهله بصناعة الجرار الخضر التي كان يبيعها في أسواق الكوفة، ومن هنا أتى لقبه «الجرار». كان دميم الوجه قبيح المنظر بخيلاً نزعت نفسه إلى اللّهو والمجون فتخنّث في أول أمره وحمل زاملة المخنثين الذين كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء. ظل يعيش للهو والقصف حتى كانت سنة ١٨٠ للهجرة فإذا به يتحول فجأة من حياة اللّهو والمجون إلى حياة الزهد والتقشف ويلبس الصوف ويكثر من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

١٢٠- أبو العتاهية أشعاره وأخباره؛ تحقيق الدكتور شكري فيصل. ص٤٣٩ وما بعدها.

١٢١- المأمونية: نوع من الطعام الحلو تستعمل في وجبة الصباح أو في أوائل النهار وأواسطه تُنسب إلى الخليفة المأمون!!... يقول الأسدي خير الدين: «المأمونية حلوى من سميد وسمن وسكر لا تُنسب إلى الخليفة العباسي. ويعتقد أن الذي أبدعها حلبي من سوق السقطية - سوق مطعم حلب - اسمه المأمون». عن موسوعة حلب المقارنة، الأسدي خير الدين؛ المجلد السابع، ص٢٠

١٢٢- نوع من الطعام يُنسب إلى الخليفة المتوكل.

أو لقمة القاضي وهي نوع من الحلوى يشبه ما هو معروف لدينا اليوم. وعن سوار الست[١٢٣] وزنودها وأصابع زينب[١٢٤]. لكنها لم تحدثنا عن لقمة خاصة أو طعام مميز خاص بالشعب. بل نقلت لنا أبياتاً واسعة لعدد من الشعراء الفقراء الذين صوروا في مقطوعاتهم وقصائدهم الحقيقة الاجتماعية التي تعيشها شعوبهم وما يعانيه الإنسان الفقير المسحوق اجتماعياً من جوع وحرمان وتقتير. معبرين في ذلك إما عن حرمان شخصي ومعاناة ذاتية وإما عن مواقف إنسانية وأحداث مؤثرة عاشوها ووعوها. سنتوقف عند بعضهم على سبيل المثال لا الحصر، مثل الشاعر البائس أبي الشمقمق[١٢٥] الذي صور في شعره فقره وبؤسه وطعام وشراب عياله.

قال أبو الشمقمق[١٢٦]:

إن العيال تركتهم	بالمِصرِ خبزُهم الغضاره
وشرابهم بول الحمار	مزاجُهُ بولُ الحماره

وينادي بأعلى صوته شاكياً متألماً سوء الحال وقلة المال، وسغب العيال بأسلوب مزج فيه الظُرف بالسخرية المرة.

١٢٣- سوار الست: من الحلويات المتخذة من العجين. تلف رقاقة البقلاوة على شكل أنبوب يُجمع طرفاها إلى بعضهما فيشكل دائرة مفرغة تشبه السوارة. ثم تُقلى بالسمن وتخبز وتُسقى بالقطر ويزين وسط دائرتها بدقيق الفستق. عن موسوعة حلب المقارنة: الأسدي خير الدين، المجلد الرابع، ص٤١٥

١٢٤- زنود الست: ضرب من الحلوى المعجنة تُحشى غالباً بالقشدة وتتخذ كاللقم المتطاول. اليوم تُطلق على البقلاوة ذات القطع المستطيلة. وتسمى أيضاً أصابع زينب. عن موسوعة حلب المقارنة: الأسدي خير الدين، المجلد الأول، ص١٥٨

١٢٥- أبو الشمقمق: شاعر شحاذ هجاء سليط اللسان خراساني الأصل من أهل البصرة. قدم بغداد في أول خلافة الرشيد وعاش حتى خلافة المأمون. توفي حوالي سنة ٨١٥ ميلادية.

اسمه مروان بن محمد. عرف بشاعة السحنة، والشمقمق معناه الطويل. عاصر بشار وكان يُسمي مساعدة بشار له بـ «الجزية» كان من الشعراء المظلومين ذا موهبة فذة فيها نكهة خاصة.

قال الشعر ثائراً وساخراً ومتألماً. فسخر من الذين منحتهم الحياة كل شيء وحرمته من كل شيء، ولكن بظُرف وسخرية ما بعدها سخرية.

١٢٦- الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس: الدكتور صلاح الدين المنجد، ص٩٥

قال[١٢٧]:

أنـا فـي حـالٍ - تـعـالـى	الـلّـه ربـي - أي حـالِ
لـيـس لـي شـيءٌ إذا قـيـل	لِمَنْ ذا؟ قـلـتُ ذا لـي
ولـقـد أهـزلـتُ حـتـى	مـحـت الـشـمـس خـيـالـي
ولـقـد أفـلـسـتُ حـتـى	حَـلَّ أكـلـي لـعـيـالـي
مـن رأى شـيـئـاً مـحـالاً	فـأنـا عـيـنُ المحـالِ

وإذا افتخر الناس لأنهم يأكلون في كل يومٍ ألواناً من الطعام وضروباً من الفاكهة، فإن أبا الشمقمق يفتخر بالخبز. وإذا توافر له الخبز مع قليلٍ من اللحم فهذا منتهى المنى وأمان من الفقر.

قال[١٢٨]:

مـا جـمـع الـنـاس لـدنـيـاهـم	أنـفـعُ فـي الـبـيـتِ مـن الخبـز
والخبـز بـالـلـحـم إذا نـلـتـه	فأنـت فـي أمـنٍ مـن الـتَّرزِ[١٢٩]

ويعرفنا أبو فرعون الساسي[١٣٠] عن اسمه ونفسه وحاله في مقطوعة تقطر بالأسى والشكوى، يصور فيها بؤسه وفقره، ويمزج الطُرف بالسخرية وسلاطة اللسان.

قال[١٣١]:

أنا أبو فرعون فاعرف كنيتي	حلَّ أبو عمرة[١٣٢] وسط حجرتي
وحلَّ نسجُ العنكبوت زمنني	أعشب تنوري وقلّت حنطتي

١٢٧- كتاب الأنس: سمير الشيخاني، المجلد الأول، ص١٢٠ نقلاً عن العقد الفريد لابن عبد ربه القرطبي الأندلسي، المجلد الثاني، ص٤٤

١٢٨- بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي: الدكتور صلاح الدين المنجد، ص١٧١

١٢٩- الترز: من ترز، والتارز اليابس الذي لا روح فيه. ترز ترزاً وتروزاً: مات ويبس.

١٣٠- أبو فرعون الساسي اليمي العدوي من عدي الرباب. وقيل الناشي والشاشي والشاسي. اسمه شويش. شاعر أعرابي بدوي قدم البصرة يسأل الناس بها. وكان يلقب أيضاً بسلمان البصرة.

١٣١- الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي. تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، الجزء الثاني، ص٥٢

١٣٢- أبو عمرة: صاحب شرطة المختار بن عبيد. وكان لا ينزل بقوم إلّا اجتاحهم. فصار مثلاً يُضرب لكل شؤم وشر. ويقال إن أبا عمرة تكنية عن اسم الجوع.

وحالف القملُ زماناً لحيتي ... وضعفت من الهزال ضرطتي

وصار تُبَّاني كفاف خصيتي ... . حمارٍ في جِرامُ عيشتي[١٣٣]

وقال أيضاً[١٣٤]:

ليس إغلاقي لبابي أنَّ لي ... فيه ما أخشى عليه السَّرقا

إنما أغلقه كي لا يرى ... سوء حالي من يجوبُ الطرقا

منزل أوطنه الفقر فلو ... دخل السارقُ فيه سُرِقا

لا تراني كاذباً في وصفه ... لو تراه قلت لي قد صدقا

وفي مقطوعة ثالثة يصور أبو فرعون الساسي سوء بخته وقلة حظه بأسلوب جمع بين التهكم المرّ والتصوير الهزلي الطريف.

قال[١٣٥]:

رأيتُ في النوم بختي ... في زِيِّ شيخٍ أرَتِّ[١٣٦]

أعمى أصمّ ضئيلاً ... أبا بنين وبنتِ

فقلتُ حُيِّيتَ رزقي ... فقال: رزقك باستي

فكيف لي بدواءٍ ... يُلينُ لي بطن بختي

ويعبر أبو الينبغي[١٣٧] بسخرية لاذعة وألفاظ جارحة عن ما يعانيه قلبه الجريح وخاطره الكسير من عدم تكافؤ الفرص بين الناس.

قال[١٣٨]:

١٣٣- التُّبّان: سراويل صغيرة لستر العورة يلبسها الرياضيون والملاحون. مكان النقط لفظ محذوف للعضو الجنسي للحمار.

١٣٤- بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي: الدكتور صلاح الدين المنجد، ص١٧٤

١٣٥- أشعار الشحاذين في العصر العباسي: جمع وتحقيق أحمد الحسين، ص٢٢

١٣٦- الأرَتّ: الذي في لسانه عقدة أو حبسة ويعجل في كلامه فلا يطاوعه لسانه.

١٣٧- أبو الينبغي: شاعر عباسي عُرف بالفقر، مات سجيناً في عهد الواثق. وكان يقول: «أنا أبو الينبغي، قلت مالا ينبغي فحبستُ حيث ينبغي».

١٣٨- الأندية الأدبية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري: علي محمد هاشم، ص١٥

صبراً على الذلّ والصغار من خالق الليل والنهار

كم من حمارٍ على جواد ومن جواد على حمار

أما أبو المخفف[139] الشاعر الذي تدلّه قلبه حباً وصبابةً في طلعة رغيف الخبز الذي حرم منه، لدرجة جعل منه موضوع شعره.

قال أبو المخفف[140]:

دع عنك رسم الدّيار ودَعْ صفات القفارِ

وعدِّ عن ذكر قومٍ قد أكثروا في العُقار

ودَعْ صفات الدنانير في خصور العذاري

وصف رغيفاً سَريّاً حكته شمس النهار[141]

أو صورة البدر لمّا استتم في الاستدار

فليس يحسنُ إلاّ في وصفه أشعاري

وذاك أني قديماً خلعتُ فيه عذاري

وفي قصيدة ثانية يصف أبو المخفف عشقه للرغيف الذي طغى على كل عشقٍ لديه. قال[142]:

جانبتُ وصل الغانيات وصحوتُ عن وصل اللواتي

نعمتْ بهنَّ عيون من واصلنه حتى الممات

فدع الطلول لجاهلٍ يبكي الديار الخاليات

ودع المديح لأمردٍ والخادم ولغانيات

وامدح رغيفاً زانه حرفٌ يجلُّ عن الصفات

يدع الحليم مُدلَّهاً حيران يغلط في الصلاةِ

وكأنما نقشُ الرغيف نجوم ليلٍ طالعاتِ

منعُ الرغيف سفاهةٌ تركُ الرغيف من الهباتِ

وترك شاعر آخر يُسمى الحمدوني قرابة مائتي بيت من الشعر تفنن في معانيها

١٣٩- أبو المخفف: واسمه عاذر بن شاكر. شاعر عاش أيام المأمون في ضنك وحرمان وكان يركب حماراً وتركب جارية له حماراً آخر وتحتها خرج. يدور وإياها في بغداد يسأل الناس رغيفاً أو كسرة خبز. وله أشعار في وصف الرغيف الذي جعل منه موضوع شعره.

١٤٠- أشعار الشحاذين في العصر العباسي: جمع وتحقيق أحمد الحسين، ص٣٤

١٤١- السَريُّ: النفيس أو الممتاز.

١٤٢- كتاب الورقة: أبو عبد الله محمد بن داود الجراح، تحقيق عبد الوهاب عزام وفراج، ص١١٥

يصف طيلسانه الذي تخرق وحال لونه من كثرة ما كان يرفوه حتى اسود ولم يستطع أن يحصل على طيلسان جديد.

قال في طيلسانه[١٤٣]:

قد كان أبيض ثم مازلنا به ترفوه حتى اسودّ من صدأ الإبر

وقال في قصيدة ثانية[١٤٤]:

إن تنفست فيه ينشق شقاً أو تنحنحتُ فيه ينقدُّ قدا

لقد كان السواد الأعظم من أفراد الشعب وعامة الناس عاجزين حتى عن إيجاد الرغيف على الرغم من حياة الرفاهية والهناء التي نعمت بها أوساط الفئات الثرية والشرائح العليا من ذروة الهرم الاجتماعي. وكانت حياتهم مضرب المثل في الرغد والسرف في الترف، حتى شمل البذخ برحمته ورغده حيواناتهم كما رأينا مما دفع بالشاعر الظريف إبن الحجاج[١٤٥] لأن يتمنى أن يكون كلباً يرافق كلاب الأمير علّه يشبع.

قال ابن الحجاج[١٤٦]:

١٤٣- بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي: الدكتور صلاح الدين المنجد، ص١٧٣

١٤٤- المصدر السابق، ص١٧٣

١٤٥- هو الحسين بن أحمد. كاتب وشاعر عباسي مشهور شيعي المذهب عاش في القرن الرابع الهجري، وتوفي عام ١٠٠١ ميلادية. تولى حسبة بغداد إلى أن عُزل عنها. له موقف مذهبي محدد يخالف الانتماء العام للدولة العباسية.

أفرط الحسين في التهتك والمجون، وعرف بالسخف والابتذال في شعره الذي عكس من خلاله بشكل ظريف تهكمي رامز رؤية اجتماعية وسياسية لإنسان حاول أن يرفض الانسحاق. كما عبر فيه عن موقف ناقد للواقع القائم الذي اختلت فيه القيم نتيجة الفساد والرياء والتفاوت الفاحش في توزيع الثروات.

تعمد ابن الحجاج اتباع أسلوب أقرب ما يكون إلى السخف والتهكم والبذاءة والإقذاع. كتب عنه الثعالبي يقول: «وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف ولا يبني جلّ قوله إلا على سُخف فإنه من سحرة الشعر وعجائب العصر وديوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال وأسرى من الخيال» عن يتيمة الدهر المجلد الثالث ص٣٠

ومن صوره التهكمية الرائعة في الشكوى ووصف سوء الحال قوله:

أتعشى بغير خبز وهذا خبري منذ مدة في غدائي

فأنا اليوم من ملائكة الدولة وحدي أحيا بغير غذاء

آية لم تكن لموسى بن عمران ولا غيره من الأنبياء

نقلاً عن يتيمة الدهر: للثعالبي، المجلد الثالث، ص٥٦

١٤٦- أثر المعتزلة في الأدب العربي: بهيج شعبان، ص٢٣٣ وما بعدها.

رأيتُ كلاب مولانا وقوفاً ورابضةً على ظهر الطريق
تُغذّى بالجدا فوددت أني وحقِّ الله خرشوف سلوقي[١٤٧]
فيا مولاي رافقني بكلبٍ لآكل كلَّ يومٍ مع رفيقي

لم يستطع وعي الشعب وكراهيته لهذه السلطة الغاشمة المستهترة بحقوقه ومتطلباته، والمسرفة في ترفها وبذخها وملذاتها أن يردعها عن غيّها ويحدَّ من جورها. كما لم تستطع الإنتفاضات الشعبية والثورات المذهبية على تعددها أن تُسقطها. وقد ساعد على اشتعال هذه الثورات والانتفاضات عوامل خارجية وقومية وأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية صبغت بالصبغة الدينية.

ويقال إن الوليد بن طريف الشاري الشيباني[١٤٨] قائد إحدى هذه الثورات كان يُنشد يوم المعركة ضد جند الخليفة الرشيد ويقول[١٤٩]:

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورةٌ لا يُصطلى بناري
جوركم أخرجني من داري

إن جميع هذه الحركات والثورات التي اندلعت ضد الظلم الاجتماعي والقهر القومي لم تستطع أن تسقط السلطة العباسية كما هو معروف لكنها استطاعت بهذا القدر أو ذاك أن توقعها في أزمات حرجة أرهقتها وأضعفتها ومهدت فيما بعد إلى تدهورها وانحطاطها حتى انتهت المأساة بفاجعة أكبر وأكثر دموية وتدميراً، عندما ختمت بغزو التتار وتدمير بغداد.



١٤٧- السلوقي: نوع من الكلاب المعدة للصيد، وتعتبر من أحسن الكلاب وأخفّها.

١٤٨- الوليد بن طريف الشاري: كان زعيماً للخوارج في أيامه ويقيم بنصيبين والخابور. خرج ثائراً في خلافة الرشيد. تزعمت أخته الفارعة حركة الثوار بعد مقتله، وتولت القيادة بنفسها واشتبكت مع جيش الرشيد في معركتين داميتين. وكانت فارسة شاعرة. ومن شعرها في رثاء أخيها الوليد الأبيات التالية:

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع لموت طريف
فتىً لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلّا من قنا وسيوف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا فديناك من فتياننا بألوف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فربَّ زحوف لفَّها بزحوف.

نقلاً عن كتاب هرون الرشيد: الدكتور أحمد أمين، ص١٥٢ وما بعدها.

١٤٩- هرون الرشيد: مصدر سابق، ص١٥٣

4 ثقافة الحس وعلمه ومكانته

● تعلم الحسن وتحصيله الثقافي والمعرفي:

نُقل عن ابن خالويه[1] أنه قال في أبي نُواس،

«... قال بعض أهل علم العرب، لولا ما كان يخلط شعره من الخلاعة لاحتج بشعره في كتاب الله تبارك وتعالى[2]، وفي حديث الرسول»[3]

انطلق الحسن إلى مجالس العلم يتقلب على حلقات الدرس في المسجد الجامع لمدينة البصرة. وأمضى أيام شبابه يتلقى علوم عصره على كبار علماء هذه المدينة. «ويمارس حياته التي خُلق لها مدفوعاً برغبة خاصة ملحة للتثقيف. فأحاط بضروب معرف عصره إحاطة سجلها مؤرخو حياته بأجمعهم»[4].

فقرأ القرآن وتعلم التجويد على يعقوب الحضرمي[5] إمام القراء. فحذقه ورمى إليه يعقوب خاتمه إعجاباً وقال له: «اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة»[6].

وتعلم الفقه على أبي بكر أزهر بن سعد السمان البصري[7] وغيره، فأتقن الأحكام والفتيا، وصار صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، «يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه»[8]. حتى اعتبر من قبل معاصريه حجة في هذا الميدان.

وطلب الحديث فأتقنه ورواه عن كبار ثقاته، مثل عبد الواحد بن زياد[9] ويحيى

١- ابن خالويه: الحسين بن أحمد، أصله من همذان، درس القرآن والحديث واللغة والأدب. أقام بحلب وأدب أبناء سيف الدولة الحمداني. ألف في اللغة وفي النحو وفي القرآن. مات بحلب عام ٩٨٠ للميلاد.

٢- يعني بذلك تفسير القرآن، لعلم النواسي باللغة.

٣- تفسير أرجوزة أبي نواس: شرح عثمان بن جني، تحقيق محمد بهجة الأثري الصفحة (٩)

٤- أبو نُواس بين التخطي والإلتزام: الدكتور علي شلق، ص٣٦

٥- يعقوب الحضرمي: من مشهوري قراء البصرة، توفي سنة ٢٠٥ للهجرة.

٦- أبو نُواس في تاريخه وشعره ومهاتله: لإبن منظور المصري، تحقيق عمر أبو النصر، ص٢١

٧- أزهر السمان: من مشاهير رواة الحديث في البصرة في وقته. توفي سنة ٢٠٣ للهجرة.

٨- طبقات الشعراء: لإبن المعتز، تحقيق عبد الستار فراج، ص٢٠١

٩- عبد الواحد بن زياد: من مشاهير رواة الحديث في البصرة.

القطان[١٠]، وروى الحديث عنه جماعةٌ كُثُرٌ منهم ابن عساكر[١١] الجاحظ والإمام محمد بن ادريس الشافعي. وتذكر رواية عن الإمام الشافعي أنه قال: «لولا مجون أبي نُواس لأخذت عنه»[١٢].

واختلف الحسن إلى أبي زيد بن ثابت الأنصاري[١٣] اللغوي النحوي فكتب عنه الغريب والألفاظ[١٤]. وطلب النحو لدى حبيب النحوي[١٥]، ثم نظر في نحو سيبويه[١٦] كما قال إبن عساكر[١٧]. وأتى إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى[١٨] اللغوي

١٠- يحيى القطان: هو يحيى بن فروخ القطان الحافظ البصري من مشاهير رواة الحديث توفي عام ١٩٨ للهجرة.

١١-ابن عساكر: اسم لعدة مؤلفين أشهرهم علي بن الحسن وهو المقصود. ولد في دمشق عام ١١٠٥ ميلادية وتوفي عام ١١٧٥ للميلاد. محدث شافعي ومؤرخ ورحالة عربي. علَم في أمهات مدن الشرق له: «التاريخ الكبير لدمشق» فقدت أكثر مؤلفاته.

١٢- مقدمة أرجوزة أبي نواس: شرح ابن جني مصدر سابق ص٥٧

١٣- أبو زيد الأنصاري: هو سعيد بن أوس. ولد في البصرة عام ٧٣٨ للميلاد وتوفي فيها عام ٨٣٠ ميلادية. نحوي ولغوي، استدعاه المهدي إلى بغداد فأقام فيها. أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وتلمذ للضبي. أصبح أحد الأئمة الثلاثة في النحو واللغة، هو والأصمعي وأبو عبيدة. وامتاز عنهما بالميل إلى النوادر والغريب. كان يميل إلى التشيع والاعتزال، ألف رسائل لغوية من مؤلفاته: «النوادر في اللغة» و «المطر» و«الهمز» و «الغنم»...

١٤- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: لإبن الأنباري، تحقيق ابراهيم السامرائي، ص٦٥

١٥- يونس النحوي بن حبيب: علامة بالأدب، وإمام نحاة أهل البصرة في عصره. أخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء. ومن كتبه معاني القرآن واللغات والنوادر ولد سنة ٩٤ للهجرة وتوفي سنة ١٨٢ هجرية.

١٦- سيبويه: هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء. إمام النحاة وأول من بسط علم النحو. لزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنف في النحو. توفي شاباً سنة ثمانين للهجرة.

١٧- التاريخ الكبير لابن عساكر، المجلد الرابع، ص٢٧٩

١٨- أبو عبيدة: هو معمر بن المثنى، ولد في البصرة عام ٧٢٨ للميلاد وتوفي فيها عام ٨٢٥ ميلادية. أحد أئمة اللغة في عصره والمشهود له بسعة العلم في اللغة، وأول من صنف في غريب الحديث. عالم باللغة والشعر وكان أصله من باجروان قرب الرقة. أخذ عن أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب، جمع الكثير من أخبار العرب وأنسابهم، وجمع نقائض جرير والفرزدق وشرحها. كان خارجياً، ويقال: أن كتابه: «المثالب» أمدَّ الشعوبية بسلاح ضد العرب. من كتبه العديدة: «مجاز القرآن في التفسير» و «كتاب الخيل».

الراوية الأخباري، يسأله عن أخبار العرب وأيام الناس، فعرف عنه الكثير من أخبار العرب وأيامهم وقبائلهم وأنسابهم. واستمع إلى الأخباري الراوية الهيثم الكوفي والسجستاني[١٩] البصري، والأصمعي[٢٠]، فتعلم الأخبار والأنساب.

قال الجاحظ[٢١]:

«... ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نُواس، ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة لإستكراه».

ولازم أبو نواس الإمام اللغوي خلف أبو محرز الشهير بالأحمر راوية البصرة وناقدها وأعلم أهلها بالشعر القديم، يسأله عن الشعر ومعانيه، ويلتقط منه نوادره. فحفظ وروى قصائد الفحول ومئات الأراجيز.

قال أبو نُواس[٢٢]:

«... ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى الأخيلية، فما ظنك بالرجال؟... وإني لأروي سبعمائة أرجوزة ما تُعرف».

وتعلم الحسن «العزف على العود ودق الدفوف ليسلك مسلك المسمعين والقيان بين طلاب الملاهي والفنون»[٢٣]. وقد أهله هذا الأمر لأن يُصبح فيما بعد أحد كواكب الحفلات اللاهية في قصر الرشيد والأمين والخصيب»[٢٤].

١٩- السجستاني البصري: أبو حاتم سهل: توفي حوالي سنة ٨٦٩ للميلاد. لغوي درس في البصرة على الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة بن المثنى والأخفش. كان بصيراً بالشعر والشعراء الأقدمين. ومن مؤلفاته «كتاب الأضداد» و «كتاب النخل» و «كتاب المعمرين».

٢٠- الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك: قيل أنه ولد عام ٧٤٠ للميلاد وتوفي عام ٨٢٨ ميلادية. من مشاهير لغوي العرب. تعلم في البصرة على الخليل وأبي عمرو بن العلاء وأخذ عن خلف الأحمر، وحفظ لغة البدو. عهد إليه هارون الرشيد بتعليم الأمين. له كتاب «خلق الإنسان» و «كتاب الخيل» و «كتاب الإبل» و «كتاب الأضداد» والمجموعة الشعرية «الأصمعيات». ويقال لولاه لفقدنا الكثير من دواوين العرب وأشعارهم.

٢١-مختار الأغاني: لإبن منظور المصري، المجلد الرابع، ص٦

٢٢- أبو نُواس في تاريخه وشعره ومباذله: مصدر سابق، ص٥٠

٢٣- أبو نُواس الحسن بن هانئ دراسة في التحليل النفساني: عباس محمود العقاد، ص١٠٧

٢٤- أبو نواس بين التخطي والإلتزام، مصدر سابق، ص٥٠٢

وكان إلى جانب اتقانه العزف على العود لاوغيره من الآلات الموسيقية لاعباً ماهراً بالشطرنج، معنياً بتربية كلاب الصيد[٢٥]، وأنه تداول جميع هذه المهارات وجسدها بإتقان على مسرح الحياة.

وقيل أن صبيةً وضيئة الوجه مرت بالحسن لما كان حدثاً فمازحته ثم ألقت إليه بتفاحة معضضة...

فقال على البديهة[٢٦]:

شجر التفاح لا ذُقت القَحَلْ	لا.. ولا زلت لغايات المثَلْ
وعدتني قُبلةً من سيدي	فتعاضَّتْ سيدي حين فعل
ليس ذاك العضُّ من عيب بها	إنما ذاك سؤالٌ للقبل

وتشاء الصدف في تلك الفترة أن يحرق قلبه حب فتاة غريرة من القيان ما لبثت أن غابت في زحام الحياة دون أن يعرف اسماً لها. قال فيها[٢٧]:

حامِلُ الهوى تعِبُ	يستخفُّهُ الطربُ
إن بكى يحقُّ له	ليس ما به لعبُ
تضحكين لاهيةً	والمُحِبُّ ينتحبُ
تعجبين من سقمي	صحتي هي العجبُ
كُلما انقضى سببٌ	منكِ عاد لي سببُ

وكان ما نظمه فيها أول شعر عرف له في الغزل كما يقول ابن خلكان[٢٨]. ويبدو في هذه المقطوعة أن الحسن استطاع بما وفر من موسيقى داخلية ومن ملاءمات بين القوافي وحركاتها وحروفها ورويها وبين إيقاع الحياة الحديثة أن يُعبر عما يدور في وجدانه من حب وألم وشوق إلى المحبوب، وأن يصور ما يجول في أعماقه المضطربة من توق إلى الانعتاق وممارسة الحياة بحرية.

٢٥- المصدر السابق، ص٤٦٠

٢٦- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٦٩٥

٢٧- المصدر السابق ص٢٢٧

٢٨- المصدر السابق: هامش الصفحة ٢٢٧

علماً أن الحسن لما أراد أن ينظم الشعر استأذن كما تقول الروايات خلفاً الذي كان له أعظم الأثر في توجيهه. فلم يأذن له إلاّ بعد أن يحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة وينساها كأن لم يكن قد حفظها»[٢٩].

والظاهر أن العلاقة بين الحسن وخلف الأحمر وأبو عبيدة تعدت إلى شيء يشبه الصداقة بينهم. فكان يُكبِرهما، وهما يُكبرانه.

قال عن خلف الأحمر[٣٠]:

«.. أودى جماع العلم مُذ أودى خلف».

ولما سُئل عنه قال[٣١]:

«.. جمع علم الناس وفهمه».

وعن أبي عبيدة قال[٣٢]:

«... إنه أديم طُوي على علم».

وكان أبو عبيدة يقول عنه[٣٣]:

«... ذهبت اليمن بجد الشعر وهزله. امرؤ القيس بجده والنواسي بهزله».

●أثر الفلسفة والنزعة الكلامية في وعيه المعرفي وشعره:

جالس أبو نُواس أصحاب علم الكلام والمتكلمين، فأخذ علمهم وناظرهم وكان «متكلماً جدلاً»[٣٤]. وكاد أن يكون إماماً من أئمة علم الكلام، حتى أن بعض الرواة أكدوا على أن أبا نواس «بدأ متكلماً ثم انتقل إلى نظم الشعر»[٣٥].

٢٩- أخبار أبي نواس: ابن منظور المصري، محمد عبد الرسول ابراهيم، السفر الأول، ص٥٥

٣٠- مختار الأغاني: جمال الدين بن منظور المصري، المجلد الرابع، ص١٧

٣١- أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله: مصدر سابق، ص١٢٨

٣٢- المصدر السابق، ص١٢٨

٣٣- مختار الأغاني: مصدر سابق، المجلد الرابع، ص٢٩

٣٤-المصدر السابق، ص١٠

٣٥- طبقات الشعراء لابن المعتز، ص٢٧٢

وأظهر إلى أي مدى كان متمكناً من استيعاب القضايا الفلسفية التي كانت مثارة في عصره وهو الذي: «كان يغدو ويروح في نشأته على مجالس المتكلمين والمعتزلة»[٣٦]. لقد وجد الحسن في النزعة الكلامية ما يتماشى مع نزعته في التجديد فالتفت إلى الحياة العقلية المعاصرة في مجتمعه، وأدخل العديد من مصطلحات علم الكلام في قاموسه الشعري، مثل فكرة التوليد، وهي الفعل الذي ينشأ عن فعل آخر دون قصد.

حول هذه الفكرة قال متغزلاً بجنان[٣٧]:

الحسنُ في كُلِّ شيءٍ	منها مُعادٌ مُرددْ
فبعضه قد تناهى	وبعضه يتولَّدْ
وكُلَّما عُدتَ فيه	يكون بالعود أحمَدْ

ومما يُستدل أيضاً على تضمين شعره سيولاً من ألفاظ وأفكار مجالس المتكلمين والمعتزلة: «فكرة الجزء الذي لا يتجزأ، أو فكرة الجوهر الفرد. وكان النظّام يُنكره ويجادل فيه طويلاً مع نظرائه من المعتزلة»[٣٨]. وقد ألمّ الحسن بهذه الفكرة فتناولها متغزلاً.

قال الحسن[٣٩]:

يا عاقد القلب مني	هلاَّ تذكرت حَلاَّ
تركت مني قليلاً	من القليل أقلاَّ
يكادُ لا يتجزأ	أقلُّ من اللفظ من لا

ويقال أن النظّام جاء إلى أبي نواس وطلب منه أن يُنشده الأبيات السابقة فأنشده إيّاها فقال له النظّام: «أنت أشعر الناس في هذا المعنى والجزء الذي لا يتجزأ منذ دهرنا الأطول نخوض فيه ما خرج لنا فيه من القول ما جمعت أنت في بيت واحد»[٤٠].

٣٦- العصر العباسي الأول: الدكتور شوقي ضيف، ص١٥٥

٣٧- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٢٣٢

٣٨- العصر العباسي الأول، مصدر سابق ص١٥٥

٣٩- البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ، الجزء الأول، ص١٤١

٤٠- أخبار أبي نواس: لابن منظور، مصدر سابق، ص١٤٩

وتناول الحسن نظرية الكمون التي تحاور فيها النظام طويلاً مع بعض معاصريه «إذ كان يرى أن الله جلَّ جلاله خلق الموجودات دفعة واحدة، ثم أكمن بعضها في بعض على نحو ما أكمن في آدم أبناءه»[41]

قال الحسن في شخص كان يكرهه[42]:

كَمَنَ الشّنآن فيه لنا ... ككمون النارِ في حَجَرِه[43]

كما تحاور مع النظام حول فكرة صدق الوعد والوعيد على الله وهي إحدى الأفكار الأساسية في عقيدة المعتزلة، وقد جعلتهم يرفضون فكرة العفو التي قال بها المرجئة وكان الحسن يصدر عنها، وتذهب إلى أن الله من حقه أن يترك وعيده لمن أجرم وارتكب الكبائر فيسدل عليه أستار عفوه[44]

قال الحسن محاوراً النظام في إحدى خمرياته[45]:

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفةً ... حفظتَ شيئاً وغابت عنك أشياءُ

لا تحظرُ العفو إن كنت امرأً حرجاً ... فإنَّ حظركه في الدين إزراءُ

لقد انعكس في شعره الخمري طوابع المعتزلة وألفاظ المتكلمين ومصطلحاتهم وحجاجهم وتجريداتهم التي بلغت حدَّ الوهم.

قال[46]:

توهمتها في كأسها فكأنما ... توهمتُ شيئاً ليس يدرك بالعقل

وصفراء أبقى الدهر مكنون روحها ... وقد مات من مخبورها جوهر الكُلِّ

فما يرتقي التكييف منها إلى مدى ... تُحدُّ به إلاّ ومن قبله قبلُ

41- العصر العباسي الأول: مصدر سابق، ص١٥٥

42- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٤٢٨

43- الشنآن البغض: يقول أن البغض لنا يكمن في نفسه كما تكمن النار في حجره.

44- العصر العباسي الأول: مصدر سابق، ص١٥٥ ما بعدها

45- ديوان أبو نُواس: تحقيق الغزالي، ص٧

46- كتاب الصناعتين: لأبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله تحقيق محمد البجاوي وزميله، ص٣٦٤

أو قوله[٤٧]:

وقد خفيت من لُطفها فكأنها بقايا يقين كاد يُذهبه الشكُّ

من الواضح أنه جعل من الخمرة في المقطوعة الأولى شيئاً لا يدرك بالعقل كأنها معنى خفي لا ينكشف ودعاها (جوهر الكل) وقال: لا يحيط بها كيفٌ أو تكييف تُحدُّ به وتُعرف. وعاد فصور خفاءها ببقايا يقين تسترها سحب الشك حتى لا تكاد تبين في الشاهد الثاني.

وفجرت مجالس المعتزلة والمتكلمين في شعره ينابيع المعاني المبتكرة والأخيلة المبتدعة يكون منها أصداف شعره وجواهره المتألقة.

قال[٤٨]:

لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرَّ من ثمره[٤٩]

خفتُ مأثور الحديث غداً وغدٌ أدنى لمنتظره[٥٠]

وقال أيضاً[٥١]:

وكأسٍ كمصباح السماء شربتُها على قُبلةٍ أو موعدٍ بلقاءِ

أتتْ دونها الأيام حتى كأنها تساقُطُ نورٍ من فتوقِ سماءِ

● ثقافته التراثية الدينية وأثرها في شعره:

انعكست في شعر الحسن ثقافة تراثية أصيلة تتجلى في استخدامه المعجم القرآني والمفاهيم الدينية استخدام مثقف أطال النظر في القرآن فحفظه وعرف ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، وطلب الحديث فأتقنه ورواه عن كبار ثقاته. ويحدثنا ابن المعتز[٥٢]

٤٧- خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي، المطبعة الأميرية في القاهرة، ص١٨٣

٤٨- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٤٢٧

٤٩- أذود: أدفع أطرد. بلوتُ: اختبرت. يقول لا أدفع الشر عمن كان قد نالني بسوء

٥٠- مأثور الحديث: مرويه. ومنه المثل الجاهلي: اتق مأثور الكلام أي الذي يقال فيروى ويتناقله الناس.

٥١- المصدر السابق: تحقيق الغزالي، ص٤٠٢

٥٢- ابن المعتز: هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل. ولد سنة ٢٤٩ للهجرة، وتوفي سنة ٢٩٦ هجرية - خليفة ابن خليفة. ويقال أن خلافته امتدت يوماً وليلة. كان أمير التشبيه كما هو أمير الأدب، له ديوان مطبوع وتآليف منها «الزهر والرياض» «طبقات الشعراء» و «البديع» و «الجامع في الغناء» و غيرها...

أن أبا نُواس كان في مجلس يصحبه عدد من الشعراء فقال لبعضهم: «أيكم يأتيني ببيت شعرٍ فيه آية من القرآن وله حكمه، فأخذوا يفكرون فيه، فبادر أبو نُواس فقال:

وفتيةٍ في مجلس وجوههم	ريحانُهم قد أينعوا الثقيلا
دانيةٌ عليهم ظلالُها	وذُلّلت قطوفُها تذليلا[٥٣]

هذه الرواية تشير إلى أن الحسن استمد صورته من قوله تعالى: «ودانيةً عليهم ظلالها وذُلّلت قطوفها تذليلا»[٥٤].

ويحدثنا إبن المعتز أيضاً فيقول[٥٥]:

«.. أن أبا نُواس سمع غلاماً يقرأ قوله تعالى: «أرأيت الذي يُكذِّبُ بالدين»[٥٦]، فقال أبو نُواس:

وقرا مُعلناً ليصدع قلبي	والهوى يصدعُ الفؤاد العزوما[٥٧]
أرأيت الذي يُكذب بالدين	فذاك الذي يَدُعُّ اليتيما

ويحدثنا الحسين بن الضحاك[٥٨] في هذا المجال عن ثقافة الحسن الدينية قال الحسين[٥٩]:

«كنت مع أبي نواس بمكة عام حجٍّ فسمع صبياً يقرأ: «يكاد البرق يخطف

٥٣- طبقات الشعراء: إبن المعتز، ص٢٠١

٥٤- سورة الإنسان: الآية رقم ١٤

٥٥- طبقات الشعراء: مصدر سابق، ص٢٠٦

٥٦- سورة الماعون: الآية رقم واحد.

٥٧- وردت نهاية الشطر الثاني من البيت الأول في ديوان الحسن تحقيق الغزالي، ص٦٩٦ بـ «الكليما» بدل «العزوما» وعند ابن منظور بـ «السقيما» بدل «العزوما».

٥٨- الحسين بن الضحاك: هو الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي المعروف بالخليع، شاعر رقيق الشعر عذبه من ندماء الخليفة. ولقب بالأشقر كما لقب بالخليع لخلاعته ومجونه. بصري المولد والمنشأ، ولد سنة ١٢٦ للهجرة وتوفي سنة ٢٥٠ هجرية. كتب عنه أبو الفرج يقول: «شاعر أديب ظريف مطبوع حسن التصرف في الشعر، حلو المذهب، لشعره قبول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها» عن الأغاني، المجلد السابع، ص١٤٦

٥٩- المصون في الأدب: أبو احمد الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبع الكويت عام ١٩٦٠، ص٩٨

أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا»[٦٠]. فقال أبو نواس: في مثل هذا يجيء للخمر صفة حسنة، ففكر ساعة ثم أنشدني:

وسيارة ضلَّت عن القَصدِ بعد ما ... ترادفهُم أُفقٌ من الليل مُظلمُ[٦١]

فأصغوا إلى صوتٍ، ونحن عصابةٌ ... وفينا فتىً من سكره يترنَّمُ

فلاحت لهم منا على النأي قهوةٌ ... كأنَّ سناها ضوء نارٍ تضرَّمُ

إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم ... وإن مُزجتْ حثُّوا الرُّكاب ويمَّموا[٦٣]

ويتتبع الدكتور عز الدين اسماعيل في مؤلفه (في الشعر العباسي الرؤية والفن، ظاهرة شيوع تحسن استخدام الحسن للمعجم القرآني والحديث النبوي في أشعاره فيقف الدكتور على بعض الأمثلة.

يقول الدكتور عز الدين[٦٤]:

«.. على نحو قول الحسن:

إن للصوتِ أحسنةً ... تسبق اللَّمح بالبصر[٦٥]

والشاعر هنا ملتفت إلى قوله تعالى: «وما أمرنا إلاَّ واحدة كلمح بالبصر»[٦٦].

أو يقول:

ولا تحسبنَّ اللّه يغفلُ ساعةً ... ولأنَّ ما يخفى عليك يغيبُ[٦٧]

٦٠- سورة البقرة: الآية رقم ٢٠

٦١- سيارة: قافلة. القصد: استقامة الطريق. ترادفهم: جعلهم رديفاً له والرديف من تركبه خلفك على البعير... يريد أنهم ركبوا الظلام.

٦٢- فلاحت: فظهرت. على النأي: على البعد. سناها: ضوؤها. تضرم: تتقد.

٦٣- حسوناها: شربناها. حثوا الركاب: حرضوها على السير السريع. الركاب: الإبل. يمموا: قصدوا وساروا.

٦٤- في الشعر العباسي الرؤية والفن: الدكتور عز الدين اسماعيل، ص٤٣٠ وما بعدها.

٦٥- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي، ص٦١٢

٦٦- سورة القمر: الآية رقم ٥٠

٦٧- ديوان أبي نُواس: تحقيق الغزالي، ص٦١٥

مرتكزاً في هذا على قوله تعالى: «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون»[٦٨]

بل إنه يعيد صياغة الحديث الشريف: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» في بيتين له من قطعة في شكوى الحب.

إن القلوب لأجناد مجندةٌ	لله في الأرض بالأهواء تختلف
فما تعارف منها فهو مؤتلفٌ	وما تناكر منها فهو مختلف[٦٩]

● أثر الثقافات الأجنبية في شعره:

مما لا شك فيه أن الحسن كان على اتصال وثيق لا جدال حوله بالثقافات الأجنبية كالهندية واليونانية، وبشكل خاص الثقافة الفارسية التي كان على علم بلغتها وآدابها وتاريخها. وقد انعكس كل ذلك في أكثر من قصيدة ومقطوعة من شعره. ومن القصائد التي تعكس ثقافة الحسن الفارسية وقدرته على استخدام الألفاظ الفارسية: «إذ كان يأتي بها في بعض خمرياته تعابثاً ومُجانة»[٧٠] قوله من قصيدة في غلام اسمه بهروز إن صحت رواية الأصفهاني لها على حد قول الدكتور محمد مصطفى هدّارة[٧١]، وهي التي يقول فيها[٧٢]:

حماني وصلَ أبناء القُسوسِ	حبيب الفُرس بهروزُ المجوسي
تقيٌّ في الولادة عن مشوشٍ	يُرخِّصُهُ النصارى للقسوسِ[٧٣]
شريف النَّجْرِ من رهط الكيوسِ	تناءى في المناسب عن لُغوسِ

٦٨- سورة ابراهيم: الآية رقم ٤٢

٦٩- ديوان أبي نواس: مصدر سابق، ص٢٧٧

٧٠- العصر العباسي الأول: الدكتور - شوقي ضيف، ص١٤٣

٧١- الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، الدكتور محمد مصطفى هدارة، ص٨٢ وما بعدها

٧٢- أبو نُواس وقضية الحداثة في الشعر: الدكتور العربي حسن درويش، ص١٤١ وما بعدها

٧٣- المشوش: سريانية معربة عن مشوشي، ومعناها الإجتماع. ويزعمون أن للنصارى ليلة يجتمع فيها العذاب من القسان والرهبان لافتضاض الأبكار، وأهل العراق يسمونها ليلة المشوش. والقسوس: جمع قس وهو تعريب كشه.

كما انعكست في شعره الأمثال الفارسية كقوله[٧٤]:

كقول كسرى فيما تمثّلهُ   من فُرَص اللصّ ضجةُ السوق

أو كقوله[٧٥]:

إنـي أظـنُّـك تحـكـي   بما فعلتَ القِرِلّى[٧٦]

من الواضح أن نفراً من الشعراء العباسيين استخدموا أحياناً بعض الألفاظ والصيغ الفارسية في أشعارهم تملحاً وتظرفاً كما يقول الجاحظ[٧٧]. غير أن الحسن كان أكثرهم استخداماً في الحين بعد الحين لهذه الألفاظ تملحاً وتندراً كما يقول الدكتور شوقي ضيف.

كتب الدكتور شوقي يقول[٧٨]:

«... خاصة حين يوجه كلامه إلى بعض غلمان المجوس مقسماً عليهم بآلهتهم وشعائرهم الدينية وأعيادهم المجوسية، على شاكلة قوله:

والمهـرجـانِ المُدارِ   لـوقـتـه الـكـرّارِ[٧٩]

والـنـوكـروز الـكـبـارِ   وجـشـنَ جـاهـنـبـارِ[٨٠]

وأبـسـال الـوهـارِ   وخُـرّه إيـران شـارِ[٨١]

ويدل شعر الحسن الخمري «دلالة واضحة على أنه وقف وقوفاً دقيقاً على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم»[٨٢].

٧٤- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٤٥١

٧٥- المصدر السابق، تحقيق إيفالد فاغنر، الجزء الأول، ص٣٥١

٧٦- القِرِلّى: طائر صغير الجرم، حديد البصر، سريع الإختطاف، وهو فارسي معرب.

٧٧- البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ، الجزء الأول، ص١٤١ وما بعدها

٧٨- العصر العباسي الأول، مصدر سابق، ص١٤٣

٧٩- المهرجان: من أعياد الفرس.

٨٠- النوكروز: عيد النيروز، جشن: من أعياد الفرس-جاهنبار: الدعوة العامة.

٨١- أبسال: ابتداء الربيع. الوهار: المشرق. خُرّه: مرضع الشرب أو عيد. إيران شار: إيران العزيزة.

٨٢- العصر العباسي الأول: مصدر سابق، ص٢٢٣

قال الحسن[٨٣]:

حثثنا مغنينا على شُرب كأسه فتلركه كأس وفي كفِّه أخرى[٨٤]

فأمسك ما في كفِّه بشماله وأوما إلى الساقي ليسقي باليمنى

فشبهت كأسيه بكفَّيه إذ بدا سراجين في محراب قس إذا صلَّى

ويشبه في مكان آخر صوت انسياب الخمر من فم الإبريق برجع المزامير

قال الحسن[٨٥]:

كأنَّ قرقرة الإبريق بينهمُ رجعُ المزامير أو ترجيعُ فأفاء[٨٦]

ويصف ما نُقش على كؤوس الخمر الصافية الشفافة من صور للصلبان والقساوسة وهم يتلون الإنجيل.

قال[٨٧]:

مُلسٌ أمثالها محفَّرةٌ صُوَر فيها القسوسُ والصُلُبُ[٨٨]

يتلون إنجيلهم وفوقهمُ سماء خمر نجومُها الحببُ[٨٩]

وعني النواسي بعلوم الأمم المنقولة إلى العربية. فكان مطلعاً على علم النجوم كما يقول ابن قتيبة[٩٠]:

٨٣- ديوان أبو نواس: تحقيق الغزالي، ص١١٩

٨٤- حثثنا مغنينا: حرضناه.

٨٥- خمريات أبي نُواس: قدم لها وشرحها الدكتور علي نجيب العطوي، ص٢٤

٨٦- قرقرة الإبريق: صوت اندفاق الخمر، رجع المزامير: ألحانها. الفأفأة: الذي يكثر من الفاء في كلامه.

٨٧- المصدر السابق، ص٣٧

٨٨- ملسٌ: ناعمةٌ. يقول: أن الخمرة حاكت في لونها الكؤوس التي احتوتها إلّا أنها تختلف عنها كون الكؤوس نقش عليها بالحفر صور القسوس والصلبان.

٨٩- هؤلاء القساوية صُوِّروا وهم يتلون الإنجيل وقد بدت فوق رؤوسهم الخمرة كالسماء والحبب الذي يتصاعد منها كالنجوم.

٩٠- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري. خراساني الأصل، ولد في الكوفة عام ٨٢٨ للميلاد وعرف بالكوفي. ثم عاش في دينور قاضياً نعرف بالدينوري. قصد البصرة ثم انتقل إلى بغداد وتوفي فيها سنة ٨٨٩ للميلاد. فقيه ومحدث ومؤرخ ونحوي وأديب. له «الشعر والشعراء» و «أدب الكاتب» و «عيون الأخبار» و «كتاب المعارف».

كتب ابن قتيبة يقول[٩١]:

«... وكان أبو نُواس متفننا في العلم قد ضرب في كل نوع منه بنصيب، ونظر مع ذلك في علم النجوم يدلك على ذلك قوله:

ألم تر الشمس حلَّتْ الحَمَلا ... وقام وزنُ الزمان فاعتدلا

وغنتِ الطيرُ بعد عُجمتها ... واستوفت الخمرُ حولها كملا

وكتب أيضاً[٩٢]:

«.. ويدل على علمه بالنجوم قوله في قصيدة أولها:

أعاطتك ريحانها العُقارُ ... وحان من ليلك انسفارُ

ثم وصف الخمرة فقال:

تُخيرت والنجوم وقفٌ ... لم يتمكن بها المدار

يريد أن الخمرة تُخيرت حين خلق اللّه الفلك، وأصحاب الحساب يذكرون أن اللّه تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في برج ثم سيرها من هناك، وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها فيه. وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم. والهند تقول: أنها في زمان نوح اجتمعت في الحوت إلا يسيراً منها. فهلك الخلق بالطوفان وبقي منهم بقدر ما بقي منها خارجاً عن الحوت».

ويعلق ابن قتيبة على أبيات أنشدها الحسن في هجاء مغن اسمه زهير[٩٣]، ليؤكد على تأثر الحسن بالثقافة الهندية فيقول[٩٤]:

«... وهذا الشعرُ يدلُّ على نظرة في علم الطبائع لأن الهند تزعم أن الشيء إذا

٩١- الشعر والشعراء: إبن قتيبة الدينوري، طبع في مدينة ليدن سنة ١٩٠٢، ص٥٠٤

٩٢- المصدر السابق، ص٥٠٤

٩٣- ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٥٤٥ المقصود قوله:

قُلْ لزُهير إذا حدا وشدا ... أقلل وأكثر فأنت مهذارُ

سخُنتَ من شدة البرودة ... حتى صرت عندي كأنك النارُ

لا يعجب السامعون من صفتي ... كذلك الثلج باردٌ حارُ

٩٤- الشعر والشعراء: ابن قتيبة طبع في مدينة ليدن، ص٥٠٦

أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً. ووجدتُ في بعض كتبهم: لا ينبغي للعاقل أن يغتر باحتمال السلطان وإمساكه فإنه إما شرس الطبع بمنزلة الحية إن وطئت فلم تلسع لم يُغترّ بها فيعاد لوطئها. أو سمح الطبع بمنزلة الصندل الأبيض البارد إذا أفرط في حكه عاد حاراً مؤذياً».

وألمّ الحسن بخرافات اليونان والفرس والهند وتفرغ للنوادر والملح واللّهو والمجون. قال[95]:

إني أنا الرجل الحكيم بطبعه	ويزيدُ في علمي حكايةُ من حكى
أتتبع الظرفاء أكتب عنهموا	كيما أحدِّث من أُحب فيضحكا

تشير هذه الأبيات إلى أن الحسن كان يتمتع برقة في الطبع وظُرف في النكتة، وخفة في الظلّ مع سخرية مرة واستهزاء مستهتر. وأنه كان في سخريته وعبثه وهزله، يقصد ويعني وإن بدا أنه لا يبالي بما يقول ولا يتحرج مما يفعل.

●مكانته ورأي النقاد والباحثين بفنه وشعره:

أما ما قيل في فضل أبي نُواس قديماً وحديثاً وفي علمه وشعره ومكانته بين رجال عصره، فإليكم باقة من بعض ما قيل في ذلك.

قال أبو زكوان[96]:

«... كنا عند الثوري فذكرتُ عنده أبو نُواس، فوضع منه بعض الحاضرين فقال له الثوري: أتقول هذا لرجل يقول:

يخافه الناس ويرجونه	كأنّه الجنةُ والنارُ

ويقول:

فما فاته جود ولا حلّ دونه	ولكن يصيرُ الجودُ حيث يصيرُ

ويقول:

فتمشت في مفاصلهم	كتمشي البُرء في السقم

إلى ما سوى ذلك. واللّه لقد لحق من قبله وفات من بعده».

٩٥- أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله: مصدر سابق، ص٢٣٥

٩٦- أبو نُواس في تاريخه وشعره ومباذله: مصدر سابق، ص٥٣ وما بعدها.

وقال ابن الأعرابي يوماً لجلسائه[٩٧]:

«.. ما أشعر ما قال أبو نُواس في الخمر؟

فقال بعضهم: أشعر ما قاله في الخمر قوله:

كأن كُبرى وصُغرى من فواقعها   حصباءُ دُرٌّ على أرض من الذهب

وقال آخر: بل قوله:

إذا عبَّ فيها شاربُ القومِ خلتُه   يُقبِّل في داج من الليل كوكبا

وقال آخر بل قوله:

ترى حيثما كانت من البيت مشرقاً   ولم تكن فيه من البيت مغربا

وقال آخر:

فكأنَّ الكؤوس فينا نجومٌ   دائراتٌ بروجها أيدينا

وقال آخر: بل قوله:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها   لو مسَّها حجرٌ مسَّتهُ سرّاءُ

فقال إبن الأعرابي: إن هذا كله لشاعر انفرد بالإحسان فيه وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ولكنه أشعر من هذا كله في قوله:

لا ينزلُ الليل حيث حلَّتْ   فدهر شرابها نهارُ»،

ومما يروى عن ابن الأعرابي أيضاً: «أنه قال يوماً أنشدوني بيتاً أوله أكثم بن صيفي في اختيار الرأي وآخره إبن ماسويه الطبيب في المداواة؟

فقالوا: ما نعرفه:

فقال: قول أبي نُواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراءُ   وداوني بالتي كانت هي الداءُ[٩٨]

٩٧- المصدر السابق: ص٥٤ وما بعدها

٩٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. الجزء الأول، ص٢١٩

وقيل أن يحيى بن حمزة العلوي اليمني أُعجب بأبيات لأبي نُواس تشير إلى حسن التخلص في الشعر فقال عنه: «قاتله الله ما أرقَّ كلامه، وما أعجب ما جاء به من النسيب وحسن التخلص فكأن ما جاء به رحيق مقلقل أو نهر جار تسلسل والأبيات هي:

وإذا جلست إلى المدام وشربها	فاجعل حديثك كلَّهُ في الكاس
وإذا نزعت عن الغواية فليكن	لله ذاك النزعُ لا للناس
وإذا أردت مديح قوم لم تُلَمْ	في مدحهم فامدح بني العباس[٩٩]

وقال الجاحظ[١٠٠]:

«... سمعتُ النظام يقول وقد أنشد شعراً لأبي نُواس في الخمر. هذا الفتى يجمع له الكلام فاختار أحسنه».

وقال أيضاً[١٠١]:

«... أبو نُواس حلٌ من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا أذن».

وسُئل إبن عائشة[١٠٢]: من أشعر المحدثين[١٠٣].

«.. فقال: الذي يقول:

كأن ثيابه أطلعن من أزراره قمراً
يزيدك وجهه حُسناً إذا ما زدته نظراً[١٠٤]

٩٩- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي اليمني، المجلد الثالث، ص١٨١

١٠٠- مختار الأغاني: جمال الدين بن منظور: مصدر سابق، المجلد الرابع، ص٤١

١٠١- أبو نُواس الحسن بن هانئ: خليل مردم، ص٤٣

١٠٢- ابن عائشة: اسمه محمد لم يعرف له أب فنسب إلى أمه. من أطيب الناس صوتاً، وابتداؤه بالغناء كان يُضرب به المثل.

١٠٣- مختار الأغاني: مصدر سابق، المجلد الرابع، ص٢٠ وما بعدها

١٠٤- اعتبر أبو هلال العسكري هذا البيت من أجمل ما قيل في جمال الوجه، ديوان المعاني، المجلد الأول، ص٢٣١

بعين خالط التفتير في أجفانها الحورا

ووجه سابريّ لو تصوب ماؤه قطرا»[١٠٥]

ونُقل عن أبي حاتم الليثي[١٠٦] أنه قال:

«... وأبو نُواس إن جدَّ أحسن، وإن هزل ظرف، وإن وصف بالغ. يلقي الكلام على عواهنه لا يُبالي من حيث أخذه»[١٠٧]

ثم قال[١٠٨]:

«... كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نُواس».

ونقل عن العتابي[١٠٩] أنه قال[١١٠]:

«..واللّه لو أدرك الخبيث الجاهلية ما فُضِّل عليه أحد».

وقال محمد بن عمر[١١١]:

«... لم يكن شاعر في عصر أبي نُواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته، ولبعد صيته وظرف لسانه».

وقال المكي[١١٢]

«... مازالت المعاني مكنوزة في الأرض حتى جاء أبو نُواس فاستخرجها».

١٠٥- السابري: الجميل.

١٠٦- أبو حاتم الليثي: هو أحمد بن حمدان الليثي. ذكره ابن بابويه في تاريخ الري وشهد له بالفضل والمعرفة باللغة. له تصانيف منها: الإصلاح، وأعلام النبوة. توفي عام ٣٢٢ للهجرة.

١٠٧- أبو نواس الحسن بن هانئ: مصدر سابق، ص٤٣

١٠٨- المصدر السابق، ص٤٦

١٠٩- العتابي: هو كلثوم بن عمرو التغلبي. شاعر يسلك طريقة النابغة. كان ينزل قنسرين جيد الشعر حسن الصنعة. توفي عام ٢٠٢ للهجرة، صنف كتباً منها: «فنون الحكم والآداب والأجواد»

١١٠- المصدر السابق، ص٤٨

١١١- عصر المأمون: الدكتور أحمد فريد الرفاعي، المجلد الثالث، ص٢١٩

١١٢- أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله: مصدر سابق، ص٥٨

وذكر أبو حاتم السجستاني عن لسان أبي نواس قال[113]:

«... سُئل أبو نواس عن شعره فقال: إذا أردت أن أُجِدَّ قلت مثل قصيدي:

أيـهـا المـنـتـابُ عــن عُـفُـرِه　　　　لسـتَ عن ليلي ولا سـمـره

وإذا أردت العبث، قلتُ مثل قصيدي:

طــاب الــهــوى لـعـمـيـده　　　　لـــولا اعـــتـــراض صـــدوده

فأما الذي أفنى فيه وحدي وكله جِدٌّ، فإذا وصفت الخمر»

وكان الخليفة المأمون يقول[114]:

«... لو سُئلت الدنيا عن نفسها فنطقت لما وصفت نفسها كما وصفها أبو نواس في قوله:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت　　　　له عن عدوٍّ في ثياب صديق[115]

وسُئل أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر عن شعر أبي نواس كيف هو عنده؟ فقال[116]:

«... أبو نُواس ومسلم بن الوليد اللّات والعزّى وأنا أعبدهما».

وقال ميمون بن هارون[117]:

«.. سألت يعقوب بن السكيت[118] عما يختار روايته من أشعار الشعراء فقال: إذا أردت من الجاهلية فلأمرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق ومن المحدثين فلأبي نُواس فحسبك».

١١٣- وفيات الأعيان: ابن خلكان، المجلد الأول، ص١٩٨

١١٤- مختار الأغاني: مصدر سابق، المجلد الرابع، ص٤٢

١١٥- ذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء، ص٥١٧: أن هذا القول للخليفة الرشيد وليس للمأمون.

١١٦- أبو نُواس في تاريخه وشعره ومباذله: مصدر سابق، ص٤٨

١١٧- المصدر السابق: ص٤٨

١١٨- إبن السكيت: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق. كان عالماً بالقراءة والنحو واللغة والشعر، راوية ثقة. وكان معلماً للصبيان ثم أدب أولاد المتوكل.

وقال ابراهيم بن العباس الطويل[119]:

«.. إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نُواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظُرفه».

ويقال أن المأمون لما سمع قول الحسن[120]:

لا تبكِ ليلى ولا تطرب إلى هند   واشرب على الورد من حمراء كالورد

قال: الله أكبر هذا والله هو الشعر».

وكتب ابن منظور يقول[121]:

«.. لقي أبو نُواس مسلم بن الوليد.

فقال له: يا حسن حدثني عن قولك:

جريتُ مع الصبا طَلَق الجُموح   وهـان علـيّ مـأثورُ الـقـبـيـح

لم جعلت فرسك جموحاً؟ ولم سميت لهوك قبيحاً؟

فقال: يا مسلم الجموح أبعد الأفراس شأواً، وأبطؤها فتوراً وسميت اللّهو قبيحاً إيثاراً للعقل لا للجهل».

وكان أبو نُواس يقول[122]:

«... لو أن شعري يملأ الفم ما تقدمني أحدٌ».

وحدَّث أحمد بن يحيى ثعلب قال[123]:

«.. كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل، فصرت إليه. فلما دخلت عليه، قال لي: فيما تنظر؟

فقلتُ: في النحو والعربية.

١١٩- المصدر السابق: ص٤٩

١٢٠- مختار الأغاني جمال الدين بن منظور: مصدر سابق، المجلد الرابع، ص٢٣٠

١٢١- المصدر السابق: ص٢٢٣

١٢٢- المصدر السابق: ص٢٤

١٢٣- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: الدكتور زكي مبارك المجلد الأول، ص٧٢، نقلاً عن تاريخ بغداد.

فأنشدني أبو عبد الله أحمد بن حنبل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل	خلوتُ، ولكن قُلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفلُ ما مضى	ولا أن ما تخفي عليه يغيب
لهونا عن الأيام حتى تتابعت	ذنوبٌ على آثارهنَّ ذنوبُ
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى	ويأذن في توباتنا فنتوبُ

وهذه الأبيات من شعر أبي نواس. وحسبه شرفاً أن يروي شعره أحمد بن حنبل»..

وذكر محمد بن داوود الجراح في كتابه الورقة، عن اليزيدي عبد الله بن محمد عن أخيه قال: «سمعت أبا نُواس يقول: سفلتُ عن طبقة من كان قبلي وعلوت على طبقة من جاء بعدي فأنا نسيجُ وُحدي»[124]

وكتب ابن منظور يقول[125]:

«... لما قدم المأمون وعنده اليزيدي والثقفي مولى الخيزران واسماعيل بن توبخت تذاكروا الشعراء فقالوا: النابغة، وقالوا:

الأعشى، وخاضوا فيهم.

فقال المأمون: أشعرهم واحد كان خليعاً، الحسن بن هانئ.

فقالوا: صدق أمير المؤمنين

فقال: الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة.

قالوا: فلم قدمته يا أمير المؤمنين؟

قال: بقوله:

يا شقيق النفس من حكم	نمتَ عن ليلي ولم أنمِ

وقوله الذي لم يُسبق إليه أحد:

فتمشت في مفاصلهم	كتمشي البرءِ في السقم

١٢٤- كتاب الورقة: محمد بن داوود الجراح: تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام وفراج، ص١١

١٢٥- مختار الأغاني: مصدر سابق، المجلد الرابع، ص٢٥١ وما بعدها.

وقال الأصمعي[١٢٦]:

«... قال لي الفضل بن الربيع، من أشعر أهل زمانك يا أصمعي؟

فقلت: أبو نُواس حيث يقول:

أما ترى الشمس حلَّت الحملا   وقام وزن الزمان فاعتدلا

فقال: والله إنه لشاعر فطنٌ»

وقال مسلم بن بهرام[١٢٧]:

«... لقيت أبا العتاهية:

فقلت له: من أشعر الناس؟

قال: تريد جاهلها أو إسلاميَّها أو مولَّدها؟

قال: كلا أريد.

قال: الذي يقول في المديح:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح   فأنت كما نثني وفوق الذي يثني

وإن جرتِ الألفاظ يوماً بمدحةٍ   لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

والذي يقول في الزهد:

ألا رُبَّ وجه في التراب عتيق   ويا رُبَّ حُسن في التراب رقيقِ

ويا رُبَّ حزم في التراب ونجدةٍ   ويا رُبَّ رأى في التراب وثيقِ

فقل لقريب الدار إنك راحل   إلى منزل نائي المحلِّ سحيقِ

وما الناس إلاَّ هالك وابن هالك   وذو نسب في الهالكين عريقِ

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت   له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ

وكان يقول: سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقته إليها بكل ما قلته.

فإنه أشعر الناس فيها منها قوله:

يا كبير الذنب عفو اللّه من ذنبك أكبر

١٢٦- تهذيب تاريخ دمشق الكبير: ابن عساكر، المجلد الرابع، ص٢٥٨ وما بعدها.

١٢٧- عصر المأمون: الدكتور أحمد فريد الرفاعي، المجلد الثالث، الصفحة: ٢٢٠ وما بعدها.

وقوله:

مـن لم يـكـن لـلّـه متّـهـمـا   لم يُمسِ محـتـاجـاً إلـى أحـد

وقوله:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت   له عن عدو في ثياب صديق

ثم قال: قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نُواس له ثلثها بهذه الأبيات».

وسُئل ابن مناذر[١٢٨]:

«... من أشعر الناس؟

فقال الذي يقول:

يـا قـمـراً أبـصـرتُ فـي مـأتم   يـنـدب شـجـواً بـين أتـراب

يبكي فيذري الدُّر من نرجس   ويـلـطـمُ الـورد بـعُـنّـاب

هذا أشعر الجن والإنس، وقد جاء الشعر على سجيته أعني أبا نُواس».

وسُئل البحتري عن أشعر المحدثين فقال[١٢٩]:

«... لو قُسّم إحسان أبي نُواس على جميع الناس لوسعهم».

وحكى الصاحب بن عباد قال[١٣٠]:

«... حضرت بمجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد حضره البحتري.

فقال: يا أبا عبادة أمسلم أشعر أم أبو نُواس؟

فقال: بل أبو نواس لأنه يتصرف في كل طريق، ويبرع في كل مذهب، إن شاء جدّ وإن شاء هزل، ومسلم يلزم طريقاً واحدة لا يتعداه، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه.

فقال له عبيد الله: إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا.

١٢٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المجلد الأول، الصفحة: ٢٩٣

١٢٩- أبو نواس الحسن بن هانئ: مصدر سابق، ص٤٨

١٣٠- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: مصدر سابق، المجلد الثاني، الصفحة: ١٠٤

فقال: أيها الأمير ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه، ممن يحفظ الشعر ولا يقوله، فإنما يعرف الشعر من دُفع إلى مضايقه».

وكتب إبن قتيبة يقول[131]:

«... وبلغني أن بعض الخلفاء سأل ابن ماسويه على أصلح ما انتقل به على النبيذ؟

فقال: نُقل أبي نواس وأنشده:

ما لي في الناس كُلِّهم مثلُ	مائيَ خمرٌ ونُقلي القُبلُ
يومي حتى إذا العيون هَدَتْ	وحان نومي فمفرشي كَفَلُ[132]

وكُتب عن لسان جماعة شاهدوا أبا نُواس أنهم قالوا[133]:

«... كان أقلَّ ما في أبي نُواس الشعر، وكان فحلاً راوية عالماً».

ويقول الدكتور زكي مبارك[134]:

«... ويمتاز أبو نُواس بالإخلاص في كل ما لهج به من المعاني الشعرية، فهو مخلص في زندقته، ومخلص في فجوره، ومخلص في تقاه ولا تكاد تشعر بأن أبا نُواس يعبث. إنما يتكلم بكلام أصحاب المبادئ فهو يشك عن إخلاص، ويُلحد عن إخلاص، ويفسد عن إخلاص ويتوب عن إخلاص. فهو نموذج لقوة الروح وحياة الوجدان».

وفي دراسة ثانية كتب عنه يقول[135]:

«... فما عرفت الحضارة الإسلامية أفتن من أبي نُواس، ولعله أخطر شاعر في التاريخ الإسلامي».

١٣١- الشعر والشعراء: مصدر سابق، ص٥٠٧

١٣٢- وردت الأبيات في ديوان الحسن تحقيق الغزالي في الصفحة ٣٧١ على الشكل التالي:

ما لي في الناس كلهم مثلُ	مائي عقارٌ ونقلي القبلُ
كذاك حتى إذا العيون غفتْ	وحان نومي فمفرشي كفلُ

١٣٣- مختار الأغاني: مصدر سابق، المجلد الرابع، ص٣٥١ وما بعدها

١٣٤- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: زكي مبارك، المجلد الأول، ص٧٠

١٣٥- العشاق الثلاثة: الدكتور زكي مبارك، سلسلة اقرأ، العدد رقم: ٢٦ ص١١٠

وكتب الدكتور طه حسين يقول[١٣٦]:

«... إن أبا نُواس لم يكن قليل الخطر، ولا رجلاً لا يؤبه له، وإنما كان ذا مكانة عالية وعالية جداً».

وعن مكانة الحسن اللغوية ومقدرته في الغريب كتب الأستاذ محمد بهجة الأثري عن أرجوزة الحسن:

قال الأثري[١٣٧]:

«... كان يتعمد هذا المنحى الأعرابي الخالص تعمداً، ليلفت علماء اللغة إليه فيحفلوا به، أو ليظهر لجماهير الأدباء اقتداره البالغ على مجاراة الشعراء العرب الأولين وأنه لا ينزل عن طبقتهم إن لم يكن فوقهم طبقة».

وعن المزاوجة الناجحة بين القدم والحداثة، بين رصانة الشعر القديم وطرافة المعجم الشعري الحديث المندى بآلاء الحضارة الجديدة في أغلب شعر الحسن.

كتب الدكتور أنيس المقدسي يقول[١٣٨]:

«... ولا نرى تعليلاً منطقياً لذلك إلّا أن نقول: أن أبا نُواس على ميله إلى الأسلوب الحضري الجديد وعلى كرهه للأعراب وحياتهم، لم يتحرر حالاً من أسلوبهم، إما لشدة ما علق في ذهنه من محفوظات الشعر القديم، أو ليثبت للرواة واللغويين قدرته في اللغة».

وكتب الدكتور شوقي ضيف عن ثقافة الحسن المتنوعة ومكانته وبراعته كشاعر خمري مجنح قال: «ولزم مجالس اللغويين والمتكلمين والقصّاص والمحدثين وعب من الثقافات الأجنبية عباً... وهو غير منازع شاعر الخمرة على توالي العصور العربية بما ابتكر في صورها ومعانيها وما أشاع فيها من حيوية دافقة»[١٣٩].

١٣٦- المؤلفات الكاملة للدكتور طه حسين، المجلد الثاني، ص٣٦٤

١٣٧- شرح أرجوزة أبي نواس، لابن جني، تحقيق محمد بهجة الأثري، المقدمة، ص٤

١٣٨- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي: الدكتور أنيس المقدسي، ص٨٦

١٣٩- العصر العباسي الأول: مصدر سابق، ص٦٨

ومن المفيد قبل أن أصل إلى نهاية هذا الفصل أن أشير بإيجاز شديد إلى ما تسبه بعض النقاد القدماء من لحن وخطأ في لغة أبي نواس، وقد أوردوا نماذج عدة من شعره يدعمون بها ما ذهبوا إليه. ونرى أن القول الحق في هذا الموضوع قد لا يعدو أن يكون نتيجة للحرية الشعرية أو الضرورة الشعرية أو الاستناد إلى لغة شاذة، أو كما قال ابن قتيبة: «وقد كان أبو نُواس يُلحَّنُ في أشياء من شعره لا أراه فيها إلا على حجة من الشعر المتقدم وعلى علة بينة من علل النحو»[١٤٠]

لأن شاعراً فحلاً مثل أبي نُواس يملك ناصية اللغة ويعرف أساليبها وقال عنه الجاحظ كما مرَّ معنا «ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجةً». لا يمكن أن يكون لحَّانة. وبتصوري أن بعض تجليات الحداثة قد وجدت لها مدخلاً في هذه الناحية من لغة الشاعر.

هكذا يبدو أبو نواس في منظار معاصريه، وعلى شاشة كتاب ومصنفي الأدب ودارسي حياته وشعره، وذواقة الشعر ونقاده في زمانه، وفي كل زمان. وتلك هي مكانته بين رجال عصره ومثقفيه وعلمائه. وهي مكانة اتفق عليها جميع الباحثين ودارسي سيرته وشعره على مختلف العصور.

وهنا لا بدَّ أن نتساءل: هل يمكن أن يتوافق تحصيل مثل هذه الثقافة الموسوعية وما تتطلبه من جهد ووقت في الدراسة والتحصيل من قبل شخص كأبي نواس حظي التقدير والإكبار من قبل رجال عصره في كل ما عرض له من الفنون. ومن قبل الفقهاء والمحدثين الذين كانوا لا يأنفون من رواية شعره ومحادثته والحديث عنه، وما نُسب إلى هذا الشاعر من عطالة إجتماعية قاتلة، وسلوك منحرف واستغراق في الملذات وتحلل من جميع القيم؟.

نعتقد أن السمات الشخصية والدوافع والحوافز التي وقفت وراء وصوله إلى مثل هذه الثقافة، واحتلاله لتلك المكانة، والتي ساعدته على استيعاب علوم العصر وفلسفات وعلوم الأمم المنقولة إلى العربية غير تلك السمات التي يتصف بها الرجل المنحل.

ونعتقد أيضاً أن تخطي الحسن للتقاليد الاجتماعية والتكاليف الدينية والأعراف السائدة قولاً وممارسة، وتعبيره بحرية عن الحياة عن الواقع لم يكن إلا لتخطيه عتبات

١٤٠- الشعر والشعراء: مصدر سابق، المجلد الثاني، ص٧٩٤

زمانه. لم يكن إلا تطلعاً واستشرافاً لتطور سبق به عصره. ولو خلت الدنيا من ثوار الفكر والروح، من المستنيرين والمتقدمين لبقيت قافلة الإنسانية تراوح في مكانها.

إن مجمل هذه الأمور يفرض علينا أن نفكر ونتروى حتى لا نؤخذ بزالق المتحاملين والمغرضين. ويحتم علينا أن لا نأخذ بآراء اللامنصفين الجاهزة والجائرة بحق شخصية غنية ذات ثراء ثرّ مثل شخصية الحسن، وفن معطاء مثل فنه، وعلم متنوع المشارب مثل علمه، ومكانة مرموقة بين شعراء ومثقفي عصره مثل مكانته، ودور رائد وجريء في حينه مثل دوره، فالتعبير بحرية عن الواقع عن الحياة عن الثراء الروحي يعادل أثمن ما في الحياة وأغنى ما في الوجود، وهذا ما هدف إليه الحسن ووهبنا إياه.

وفي خاتمة هذا الفصل أرى أن أثبت قولاً منصفاً وعادلاً للدكتور طه حسين يخاطب فيه القارئ والباحث على السواء قاله في الحسن الإنسان الشاعر والمثقف.

كتب الدكتور طه حسين يقول[١٤١]:

«... ونستتيق بأن شاعرنا لم يكن رجلاً ما، وإنما كان رجلاً يقدره أهل عصره ويكبرونه في كل ما عرض له من الفنون. فكان أهل اللغة يقولون: أنه أعلم الناس بالغريب. وكان الأدباء يقولون: أنه أرقّ الناس أدباً وأحسنهم شعراً، وكان الخلفاء والوزراء والأمراء يعجبون بظُرفه وحسن حديثه، وكان الشعراء يعترفون له بالزعامة والتفوق وكان الفقهاء والمحدثون لا يأنفون أن يحدثوه وأن يتحدثوا عنه».



١٤١- المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، المجلد الثاني، ص٣٦٥

5 أنثى الحسن وغزله بالمرأة

ما يرجع الطرف عنها حين أُبصرها

حتى يعودُ إليها القلبُ مشتاقا[1]

«أبو نُواس»

ويقال أن أبا هلال العسكري علق على هذا البيت قائلاً، «أعتقد أن هذا من رائع العشق الصادق»[2]

●الحب الأول:

من الأحداث الهامة في حياة الحسن الشاب، وقبل أن يرحل إلى بغداد للإقامة فيها قصة كلفه بجنان جارية آل عبد الوهاب الثقفي المحدث التي تركت أثراً بعيداً على نفسيته وأحاسيسه، وعلى التطور اللاحق لشخصيته وفن شعر الغزل لديه.

كتب إبن منظور يصف هذه الجارية قال[3]:

«... وكانت جنان حلوة جميلة المنظر، بديعة الحسن، أديبة ظريفة عاقلة، تعرف الأخبار وتروي الأشعار، وكانت مقدودة حسنة القوام».

ويبدو من سياق هذه القصة أن الحسن قد أحب جنان حباً عنيفاً قوياً صادقاً «ولم يصدق في حب امرأة غيرها»[4]. وأشرق حبها في قلبه مسطاعاً لتغزل فيها معبراً عن مشاعره نحوها في صدق ورقة، وكتب عنها أجمل الأشعار وأرقها وأروعها. وبلغ من حبه لها وشغفه بها حد التسبيح بمفاتن حسنها الأصيل المتسامي وصفاتها التي تجل عن الوصف.

قال[5]:

وذاتِ خــــــدٍّ مُــــــورَّدْ   فــتّــانــــةُ المُتَــجــرِّدْ

١- ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، ص٢٥٧

٢- ديوان المعاني: أبو هلال العسكري، المجلد الأول، ص٢٢٣

٣- أخبار أبو نُواس: ابن منظور المصري: تحقيق محمد عبد الرسول ابراهيم، السفر الأول، ص١٧٧

٤- المصدر السابق: ص١٧٨

٥- ديوان أبي نواس: مصدر سابق، ص٢٣٢

تأمل الناس فيها محاسناً ليس تنفذ
الحُسنُ في كلِّ جزءٍ منها معادٌ مُرَدَّدْ
فبعضُهُ في انتهاءٍ وبعضُهُ يتولَّدْ
وكلما عُدتَ فيه يكون بالعود أحمدْ

وابتكر من المعاني في نعتها ما لم يسبقه إليها سابق، أو يلحقه بها لاحق. وخلع عليها صفات الكمال بحيث جعل منها المثال الأعلى للجمال الذي يُقارن عليه كل جمال.

قال[6]:

أحللتُ من قلبي هواكِ محلَّةً ما حلَّها المشروب والمأكولُ
بكمال صورتك التي في مثلها يتحيَّرُ التشبيهُ والتمثيلُ
فوق القصيرة والطويلةُ فوقها دون السمين ودونها المهزولُ

ربما يعود كل ذلك إلى صدق عاطفته وجموحها وحرارة مشاعره نحوها؟ أليست هي المعشوقة التي أحبها وأخلص لها في صباه؟، فكان حبها بمثابة حُب شبابه الباكر الذي لم يُجرب مثله في مراحل حياته الأخرى.

قال[7]:

جِنانُ إن جُدْتِ يا مُنايَ بما آملُ لم تقطرِ السماءُ دما
وإن تماريـن أو تماديـت في منعك أصبح بقفرةٍ رِمما
عَلِقتُ من لو أتى على أنفس الماضين والغابرين ما نَدِما
لو نظرت عينُه إلى حجرٍ ولّد فيه فتورُها سقما

لذلك نراه يصور من خلال مشاعره المشبوبة وعواطفه الدافقة الفياضة التي تأبى عليه الكبت والكتمان، عاطفة العاشق ووسوسة المحب وحذره من ذيوع أمره.

٦- المصدر السابق، ص٢٥٥

٧- كتاب الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق علي النجدي، المجلد العشرون، ص٦٤

قال[٨]:

لأبيحنّ حُرمةَ الكُتمان راحةُ المستهامِ في الإعلانِ

قد تصبَّرتُ بالسكوت و الإطراق جُهدي فنمت العينانِ

ما أرى عاليين للسرّ إلاّ قلتُ ما يخلوان إلا لشاني

ورغم اليأس الذي أحاط به استمر في تصوير حنينه إليها وشغفه بها، وإصراره على الظفر بحبها.

قال[٩]:

جفن عيني قد كاد يسقطُ من طول ما اختلَجْ

وفؤادي من حرّ حُبك قد كاد أو نضج

خبريني – فدتك نفسي وأهلي – متى الفرج

وحاول الحسن أن يتابعها في ذهابها وغدوها، ويخالسها النظر في كل مناسبة تسنح له.

قال عندما لمحها تندب سافرة في مأتم[١٠]:

يا قمراً أبرزه مأتم يندبُ شجواً بين أتراب[١١]

يبكي فيذري الدرّ من نرجس ويلطم الورد بعنّاب[١٢]

وقال عندما شاهدها عائدة من عرس[١٣]:

شهدت جلوةَ العروس جنانٌ فاستمالت بحُسنها النظّاره

٨- ديوان أبو نواس: مصدر سابق، ص٢٤٦

٩- أخبار أبي نواس: مصدر سابق، ص١٨٣

١٠- مختار الأغاني: جمال الدين بن منظور المصري الأفريقي، المجلد الرابع، ص١٤٤

١١- الشجو: الحزن. الأتراب: الأشخاص في عمر واحد.

١٢- يذري: ينثر الدر. اللؤلؤ: الدمع. من نرجس: من عيون جميلة. يلطم: يضرب. الورد: الخدود. بعناب: بأطراف أصابع محمرة.

١٣- كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد العشرون، ص٦٢

حسبوها العروس حين رأوها فإليها دون العروس الإشاره

ولما طال عليه الحرمان وغلبه الوجد بدأ يتحرر رويداً رويداً من قيود الكتمان وأصبح يشير إلى اسمها صراحة في شعره.

قال[١٤]:

لمّا تكشّفَ عني أنني كَلِفٌ كشفتُ أيضاً لهم عمن به الكلفُ

جيم وجدتُ لها نونين بينهما لمن تهجى اسمها أو خطه ألفُ

يضمّه من ثقيف بعض دورهم ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

لقد تميزت علاقته بجنان عن غيرها من النساء ا اللواتي عرفهنّ فيما بعد وتغزل بهنّ، لأنها احتلت مكانة خاصة في قلبه. لقد كانت بمثابة الحب الأول في حياته. وأن ما ظنّ أنه بدأ لعباً قد انتهى إلى جد بالنسبة إليه.

قال[١٥]:

ما هوىً إلا له سببُ يبتدي منهُ وينشعبُ[١٦]

فتنت قلبي مُحجبةٌ وجهُها بالحُسنِ مُنتقبُ[١٧]

خليتُ والحسنُ تأخذه تنتقي منه وتنتخبُ[١٨]

فاكتست منه طرائفهُ واستزادت فضلَ ما تهبُ[١٩]

فهي لو صيّرت فيه لها عودةً لم يثنها أربُ[٢٠]

صار جداً ما مزحتُ به رُبَّ جد جرّه اللعبُ

١٤- ديوان أبي نواس: مصدر سابق، هامش الصفحة: ٢٤٦

١٥- ديوان أبي نواس: مصدر سابق، ص٢٣٩

١٦- ينشعب: ينفصل، يتفرق. يقول: يبتدئ الحب بسبب واحد ثم يتطور فتكون له وجوه عديدة.

١٧- منتقب: لابس النقاب، والمقصود على وجهها نقاب عام ولكن من الجمال.

١٨- تنتخب: تختار.

١٩- يقول: لبست من الجمال أحسن ما فيه، ثم زاد جمالها عن المألوف حتى أصبح بإمكانها أن تخلع من هذا الجمال مقادير على نساء جميلات من غير أن ينقص من جمالها شيء.

٢٠- الأرب: الحاجة. يقول: لو أتيح لها عودة للحسن لتختار لما قبلت لأن جمالها تام بعدما أخذت من الحسن حتى اكتفت.

ومن شدة تعلقه بها وشوقه إليها تمنى على طيفها الذي يزوره في الأحلام أن يصبح حقيقة ويزوره في حال اليقظة.

قال[٢١]:

إذا التقى في النوم طيفانا	عاد لنا الوصلُ كما كانا
يا قُرّةَ العينين ما بالُنا	نشقى ويلتذُّ خيالانا
لو شئت إذا أحسنت لي في الكرى	أتممتِ إحسانك يقظانا

ولما اشتطّت في جفائها وعدم تجاوبها معه وتنكرها لمشاعره الصادقة وحبه الكبير لها. قال متضرعاً[٢٢]:

أيا مُليّن الحديد	لعبده داوودِ
ألِنْ فؤاد جنانِ	لعاشقٍ معمودِ[٢٣]
قد صارت النفسُ منه	بين الحشا والوريدِ
أما رحمت اشتياقي	أما رحمت سهودي[٢٤]
فأنجزي لي وعدي	وأقصري من وعيدي
فقد وعدت مواعيد	كالسّراب ببيدِ

وحدث أن حجّت جنان مع مولاتها - كما تقول الروايات - فإذا به يقرر الحج ويسبقها في الخروج بعد أن تأكد من عزمها عليه.

قال[٢٥]:

ألم ترَ أنني أفنيتُ عمري	بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سبباً إليها	يُقربني وأعيتني الأمورُ
حججتُ وقلتُ قد حجّت جنان	فيجمعني وإياها المسير

---

٢١ المصدر السابق ص٢٤٤

٢٢- المصدر السابق: ص٢٧٣

٢٣- المعمود: الذي هدّه العشق.

٢٤- السهود: الأرق، قلة النوم لهمّ أو حزن أو عشق.

٢٥- أخبار أبي نواس: مصدر سابق ص١٨٧

وسجل خلال الطواف أبياتاً غاية في الجرأة والروعة عندما ادعى أن خداهما التقيا عند تقبيل الحجر الأسود، وأنهما راحا في غيبوبة النشوة بين زحام الحجيج.

قال[٢٦]:

وعاشقين التفَّ خداهما	عند التثام الحجر الأسود
فاشتفيا من غير أن يأثما	كأنما كانا على موعد
لولا دفاعُ الناس إيّاهما	لما استفاقا آخر المُسند[٢٧]
ظللنا كلانا ساترٌ وجهه	مما يلي جانبه باليد
نفعل في المسجد ما لم يكن	يفعله الأبرارُ في المسجدِ

ولمّا زجره محمد بن عمرو الحجّاز على فعلته هذه وقال له: «ويحك في هذا الموضع لا يزجرك زاجر ولا يمنعك خوف الله عزَّ وجلَّ، ولا يؤدُّك حياء من الناس، فقد رأيتك وما صنعت اليوم. فقال: يا أحمق وحسبت قطع المهامه[٢٨] والسباسب[٢٩] والرمال إلاَّ للذي حججتُ له وإليه قصدتُ»[٣٠]

●الحب من طرف واحد:

أعتقد أن جنان لم تبادل حبه حباً. ربما لأنها - كما قيل - كانت «تُحب النساء وتميل إليهن»[٣١]؟!. أو ربما لما أشيع عن سلوك الحسن وسوء سمعته؟!.. بشكل لم يسمح لها أن تثق بجدّية حبه لها. بل ربما لأنها لم تحبه أو تعجب به أصلاً؟!... وربما غير هذا وذاك من الأسباب؟.

ألم تُنكر جنان أشدَّ الإنكار مجرد الإشارة إلى وجود علاقة له معها؟. وأنها كما قيل كانت تقذفه بأقبح الصفات إذا ذكر اسمه أمامها أو حدثوها عن حبه لها.

٢٦- ديوان أبي نواس: مصدر سابق، ص٢٣٣

٢٧- المسند: آخر المسند، آخر الدهر.

٢٨- المهامه: مفردها مهمهة: وهي المفازة البعيدة، البلد المقفر.

٢٩- السباسب: مفردها سبسب: الأرض البعيدة المستوية.

٣٠- مختار الأغاني: مصدر سابق، ص١٥٠

٣١- أخبار أبي نواس: مصدر سابق، ص١٧٩

قال[32]:

أتاني عنكِ سبُّكِ لي فَسُبّي ... أليس جرى بفيكِ اسمي فحسبي

وقولي ما بدا لكِ أن تقولي ... فماذا كلُّه إلا الحُبِّ

وأعتقد أن حب الحسن لها بقي حباً من طرف واحد. فلم يلق منها اهتماماً عطوفاً، ولم يحظ منها بعطف شفوق.

قال[33]:

لعلَّ جناناً سائها أن أحبّها ... فقل لجنانٍ ثابتٌ ويزيدُ[34]

فسخطك في هذا على النفس هيّنٌ ... ولكنّهُ فيما سواهُ شديدُ

رأيتُ دُنوَّ الدار ليس بنافعٍ ... إذا كانَ ما بين القلوب بعيدُ

ونرى من خلال تتبع أخباره معها أنها استأثرت بحبه وعواطفه ومشاعره دون سائر النساء اللواتي عرفهن. ربما لما تمتعت به من سمات وصفات؟، جعلته يعشقها ويدنف في حبها. فكان «جمال صورتها» المنبه الذي أيقظ قلبه على نعيم العشق، ورعشة الحب الأولى، وربما لأنها تعصّت عليه ولوعته؟.

قال شاعر الهند الكبير رابندرانات طاغور[35]:

٣٢- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٢٤١

٣٣- المصدر السابق: ص٢٢٩

٣٤- ثابت ويزيد: بمعنى أن حبه ثابت في القلب لا يتبدل، ويزيد كل حين كما يزيد كلّ حيّ بالنمو.

٣٥- رابندرانات طاغور: ولد في كلكوتا (الهند) عام ١٨٦١ للميلاد سليل أسرة بنغالية ثرية عرفت بالجمع بين النزعة الغربية العملية ومثالية الهند وزهدها. درس القانون بانجلترا، لكنه لم يلبث أن عاد إلى الهند ليدير أملاك والده الشاسعة. أسهم في الحركة الوطنية وشارك فيها بشعره وأغانيه.

يعتبر الأديب طاغور شاعر الهند الكبير وأحد أعلام الأدب العالمي امتاز شعره بروح التدين والوطنية، وهو من أكثر أدباء العالم إنتاجاً. فله خمسون مسرحية ومائة كتاب شعري ومجموعة ألحان لهذا الشعر، وله أربعون مجلداً في القصص ومجموعة كتب في المقالات السياسية والفلسفية، وله مجموعات في فن الرسم.

ينظر عامة الناس إلى طاغور على أنه معلم من معلمي الهند القدامى. من مؤلفاته المترجمة: «البستاني» و «جني الثمار» و «البيت والعالم» و «جتنجالي» و «رعاة الحب» و «الزنابق الحمر». حاز على جائزة نوبل عام ١٩١٣ على قصيدة جتنجالي، ومن أشهر مؤلفاته الفلسفية «الساوهانا» و «القومية» و «دين الإنسانية» توفي عام ١٩٤١ للميلاد.

«ترى من هي المرأة التي تسكن قلبي؟!.
إنها المرأة الميئوس منها على الدوام»[٣٦]

وقال الديلمي[٣٧]:

«.. لكل قلب حنون عذاب مرهف».

●متى تصبح الحبيبة ذاتاً جنسية؟!

لو قُدِّر للحسن أن يحظى بقرب جنان ويستمتع بجنة وصالها... هل كانت جذوة هذا الحب ستنطفئ ويخمد تأججها؟!... ويغدوا أمره معها كما تغدوا أمور الحب مع الغالبية العظمى من الناس الذين يكفيهم أنهم أحبوا الحبيب ورغبوا فيه ولو بقي حبهم له من طرف واحد. مع أولئك الذين انحصر مفهومهم عن الحب بالجانب الجنساني فقط، فمارسوه مع من يحبون على اعتبار أن الحبيبة المرأة موضوعاً له وليست ذاتاً جنسية.

فلو قُدِّر للحسن أن ينال نعيم حب جنان؟!.. فبادلت حبه حباً وشغفه بها شغفاً، هل كانت جذوة هذا الحب ستسمو وتتأجج مع سموّ عواطفهما التي قد تتطهر في غدير حبهما الصافي النمير وتتعمد بشهد الرغبات المتبادلة، ورحيق الوصال المندى بأفراح التفاهم والوفاء؟!. فيتألق الحسن أكثر في فنه الشعري المعطاء، ويحلق أبعد في سماء شاعريته الثرة المجنحة، ويبدع شعراً أكثر غنائية وبهجة، شعراً يشدو بأنس الوصال، ودفء الهناء، وصفاء الوفاء، وسعادة الفرح، وفرح العطاء وأمان الاختيار... من يدري؟!.. قلتُ: لو قدر له؟!. ولكن سيبقى هذا الحلم الوردي في خيال العاشقين والمحبين مثل حلم المدينة الفاضلة في حياة الناس الذين يحلمون بالمساواة وتكافؤ الفرص وتحقيق العدالة.

أجل سيبقى هذا الحلم وهماً طالما بقيت الحبيبة في نظر عاشقيها موضوعاً للجنس وليست ذاتاً جنسية. طالما بقيت أخلاقيات المجتمع ترفع الأسوار الشاهقة أمام العشاق، ولا تسمح بنمو الحب بين الطرفين المتحابين بطريقة طبيعية. وستبقى هنالك نزوة أو رغبة مشبوبة الشهوة مجنحة الوجد تسمى الحب، وسيكون هناك مغرم يقع في الحب من أول نظرة، من كلمة، من إشارة، من همسة، ويغدو أي منبه لقلبه وعقله وخياله وعواطفه المكبوتة كافياً مادامت هذه الأسوار لا تسمح بانطباعات أخرى.

٣٦- روائع طاغور: ديوان جني الثمار، القصيدة ٥٧، ترجمة الدكتور بديع حقي ص١٧٣

٣٧- الغزل عند العرب: ج-ك، فادين، ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني، الجزء الثاني ص٧٥

ولن نرى عاشقين تمتد ليلة عرسهما مدى الحياة، فتمر الليالي ويبقى شهد ليلة الزفاف مقيماً فواح الأريج لأنهما استطاعا أن يوقظا الفرح في قلبيهما كما يقول رسول حمزاتوف[٣٨]:

«.. الفتاة التي لا أقدر على سلوانها

هي أول من أيقظ قلبي على الفرح»[٣٩].

لأنهما استطاعا أن يرتقيا إلى فضيلة مرتبة كائنين متساويين يرى كل طرف منهما في الطرف الآخر إمتداداً له، واستمراراً له، واستكمالاً له.

ومادام حراس هذه الأسوار المترمتون ساهرين لن نرى محبين يرى كل منهما الدنيا من خلال محبوبه، ويحب كل منهما الحياة لوجوده بقرب حبيبه. لن نرى عاشقين نصفين، نصفٌ، ونصف آخر يكمله. لن نرى حباً من أجل الحب للحياة. لأن الحب مثلما يبدأ بالاهتمام فإنه يتأكد بالإعجاب، وينمو بالمعرفة ويعيش على المسؤولية، ويتضاعف بالعطاء، ويتعزز بتقارب وجهات النظر بين الحبيبين.

لأن الحب ليس أن تملك وأن تأخذ ممن تملك دون أن تعطي. لأن الحب ليس مجرد شعور قوي يجذبك نحو من تعشق. لأن الحب ليس فقط بركاناً مخزوناً من العواطف يتفجر فجأة فيكتسح السدود ويجتاز الحدود. لأن الحب ليس كالضيف يأتي باكراً ويذهب باكراً كما يقول حمزاتوف[٤٠]. الحب يأتي، يتراكم، يترعرع، ينمو بالمعرفة والثقة والتفاهم والمشاركة والتجربة بين الطرفين المتحابين وتمر الليالي ويبقى الحب مقيماً.

٣٨- رسول حمزاتوف: شاعر سوفياتي معاصر. ولد رسول في الثامن من أيلول عام ١٩٢٣ في قرية تسادا الأفارية في الشمال الشرقي من القوقاز. والده حمزة تسادا شاعر ملحمي مرموق من ورثة التقاليد الشعرية الغنائية. عاش رسول وسط طبيعة جميلة متنوعة المناظر وكتب الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره.

يعتبر من أوفر الشعراء السوفييت نتاجاً كتب غنائيات قصيرة في الحب وحكايا شعرية وقصصاً غنائية وحكماً وثمانيات فلسفية، ورسم صوراً رائعة لوطنه ولأهل وطنه وشعرائه في عمله النثري القيم «داغستان بلدي». رئيس اتحاد كتاب داغستان وعضو في السوفييت الأعلى للاتحاد السوفياتي، وحائز على جائزة لينين وحامل لقب الشرف «شاعر شعب داغستان».

٣٩- آراء وقصائد: رسول حمزاتوف، ترجمة ميخائيل عيد، ص٢٩

٤٠- المصدر السابق: ص٦٠

الحب نزوع إلى التقارب مع من نحب إلى درجة الاندماج. الحب تفاهم مع من نحب إلى درجة الاتحاد.

قال ابن الرومي[41]:

أعانقها - والنفس بعد مشوقة ... إليها - وهل بعد العناق تدانِ

وألثم فاها - كي تزول حرارتي - ... فيشتد ما ألقى من الهيجانِ

كأن فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجانِ[42]

الحب أن يكون الطرفان المتحابان في نفس الوقت موضوعاً وذاتاً في الجنس من الناحية النفسية والمزاجية، كما من الناحية الجسدية، حتى يتحقق التوافق الجنسي الذي يُعتبر جوهر ديمومة الحب. إذ لا يُعمِّر إلا الحب المتكافئ الذي يزداد على الوصال شغفاً واندماجاً كما يقول أبو نواس وعنان الشاعرة في مساجلة شعرية[43].

قال أبو نُواس:

وإني لأهوى من حبيبٍ أحِبُّهُ ... مداعبةً منه وأهوى المداعقه[44]

فقالت عنان تجيبه:

أُجرّعهُ ريقي وأشربُ ريقَه ... فما تنقضي مني ومنه المزاعقه[45]

الحب أخذ وعطاء. الحب مقايضة بلا حدود بالنفس والعواطف والمشاعر والجسم. وإذا لم يكن الأمر كذلك فإن ما اصطلح على تسميته حباً سيبقى وهماً عشوقاً، وأملاً خادعاً كذوباً، وسراباً خلبياً يُرتجى ولا يدرك على الرغم من تغني الشعراء فيه، ووله

٤١- ابن الرومي: هو علي بن العباس بن جريج، يوناني الأصل كما يشهد بذلك اسم جده ومن أم فارسية. ولد ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة وتوفي عن نحو ستين عاماً حوالي سنة ٢٨٣ للهجرة. يُعتبر ابن الرومي من أشهر شعراء العصر العباسي الثاني وأكبر شاعر متطير في عصره. شيعي المذهب وإمام الوصف والتصوير الهزلي.

٤٢- ديوان ابن الرومي علي بن العباس تحقيق كامل الكيلاني، الجزء الأول، ص٢٧

٤٣- أخبار أبي نواس لمحمد عبد الرسول، مصدر سابق، ص١٢٧

٤٤- المداعقة: الوطء الشديد والهياج.

٤٥- المزاعقة: الصياح الشديد، النشاط وشدة الحركة.

العشاق به، وتحدث المصلحين والمريين عنه. لأن مثل هذا الحب لن يتمتع بفضيلة الحياة. وسيبقى الوصال الحسي والرغبة في الحصول على اللذة أو ما اصطلح على تسميته بالحب، ستبقى العلاقة الجنسانية من طرف واحد سيدة الموقف كما وصفها الشاعر أبو البرق:

الحب للمحبوب ساعة وصله ... ما الحب فيه لآخر ولأول(٤٦)

● العاشق المتسحب:

غير أن حب الحسن لجنان فشل في أن يصبح حباً جنسانياً، فلم تُكتب له فرحة اللقاء، ولا تمتع بنعيم الوصال. ربما لأنه كان منذ البداية حباً من طرف واحد، وربما لأنه كان حب عاشق عبد الحب وصلى له وعاش على أمله، وعمل جاهداً على أن تلين جنان وتعطف ليتحقق ما يصبو إليه. وهذا ما جعل حبه لها يزداد بقدر ما كان يُعاني من علاقته معها من حرمان ويأس من أوجاع ودموع وعذاب، من أنين وشكوى، من شعور بالشقاء والهزيمة واللاجدوى.

قال(٤٧)

زَهِـدَتْ جـنـان فـي الـذي ... رغِـبَـتْ إليـهـا فـيـه نفـسـي

فـزهـدتُ فـي الـدنـيـا وصـارت ... مـنـيـتـي فـي زور رمـسـي

وطـويـتُ عـنـي أن تـرانـي ... عَـيـنُهـا وأمّـتُّ جـرسـي(٤٨)

كـيـلا يـروّعُ ذلـك الـوجـه ... المـلـيـح سـمـاعُ حِـسّـي

ودفعه يأسه من حبها إلى أن يبدع شعراً يتدفق بمشاعر الوفاء والإكبار، ويشدو بغنائية حزينة مهزومة وأحلام مبددة مكلومة.

قال(٤٩):

٤٦- ديوان الصبابة: أحمد بن أبي حجلة، على هامش كتاب تزيين الأسواق للإنطاكي، ص٤

٤٧- ديوان أبي نُواس: مصدر سابق، ص٢٤٧

٤٨- جرسي: الجرس الصوت.

٤٩- ديوان أبي نواس، الغزالي، مصدر سابق، ص٣٢١

يا قضيباً في كثيب ... تمَّ في حسنٍ وطيبِ
يا قريب الدّار ما وصلك مني بقريبِ
يا حبيبي - بأبي - أنسيتني كُلَّ حبيبِ
لشقائي صاغك اللّه حبيباً للقلوب

ولما عزَّ المنال وتأكد أن الوصال محال، قال شعراً تافه المعنى بارد العاطفة بليد الإحساس، تحدث فيه عن جمال وجهها، ومجّد عفتها ومنعتها بعد أن عزَّ منالها.

قال[٥٠]:

وجه جنانٍ سراة بستان ... مجتمعٌ فيه كُلُّ ألوانِ[٥١]
مبذولة للعيون زهرته ... ممنوعة من أنامل الجاني
ولستُ أحظى به سوى نظرٍ ... يُشركني فيه كل إنسان

وتحول العاشق المتهب إلى عاشق زاهد منسحب، وبدأ يتحدث عن علاقات جنسانية أخرى بشكل أوسع وأوضح، علّه يجد في هذه العلاقات العزاء فيسلو، علّه يمتلك المتعة واللذة التي يسعى إليها ويصبو.

●غزل الحسن بالجواري الأخريات:

من كل ما تقدم لا يعني أبداً أن حبَّ الحسن لجنان وما أشيع عن علاقته بها ينفي وجود علاقات أخرى له مع غيرها من النساء الجواري اللواتي عرفهنَّ وتغزل بهنَّ. ألم يحدد الحسن وبشكل حسّي ملموس الحيز الذي شغله حب جنان من قلبه عندما أخرج قلبه وقسمه.

قال[٥٢]:

جنانٌ حصَّلَتْ قلبي ... فما إن فيه من باقِ[٥٣]
لها الثلثان من قلبي ... وثلثا ثُلثه الباقي

٥٠- المصدر السابق: ص٢٣٤

٥١- السراة: أعلى كل شيء. وهو يصف حبيبته بأنها متعة العين وفرحة القلب إلا أنها تمتنع وتتأبى عليه.

٥٢- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق ص٢٩٨

٥٣- حصّلت قلبي: أخذته جميعه.

وثلثا ثلث ما يبقى وثلثُ الثلث للساقي
فتبقى أسهمٌ ستٌ تُجزّا بين عُشّاقِ[54]

وعلى الرغم من أنه ترك معظم قلبه لحبه الكبير الأول حب جنان ٨١/٧٤ إلا أنه لم ينس حبه للساقي ٨١/١، ولم ينس أن يخصص ستة أسهم ٨١/٦ لمحبوباته اللواتي عرفهن أمثال عريب ودنانير وحسن ورحمة وقاتل وعنان ومعشوق ومنية وغيرهنّ...

قال في عريب[55]:

صيّرني عبداً لها مُذعناً حُبّي لها والحب شيءٌ عَجَبْ
لو وعدتني موعداً صادقاً أو كاذباً بالجدّ أو باللعب
ظننتُ أني نلتُ ما لم ينلْ ذو صبوةٍ في العَجَمِ أو في العربْ[56]

وقال في جارية اسمها حُسن[57]:

٥٤- حصة جنان من قلبه =٣/٢ + ثلثا ثلث الباقي بمعنى ٣/٢ × ٣/١=٩/٢+ ثلثا ثلث ما يبقى (٣/١+٩/٢+٢٧/١) بمعنى ٣/٢ × ٢٧/١=٨١/٢ ليكون مجموع حصة جنان ٣/٢+٩/٢+٨١/٢=٨١/٧٤ بينما حصة الساقي هي ٨١/١، وحصة بقية العشيقات ٨١/٦

٥٥- عريب: مغنية محسنة وشاعرة صالحة الشعر. لها قصة عشق معروفة مع الخليفة المأمون وقصص عشق أخرى مع عشاق آخرين. قيل أنها إبنة جعفر بن يحيى البرمكي وأنها نُهبت بعد نكبة البرامكة وهي صغيرة (الأغاني، المجلد ١٨، ص١٧٥). ولما كانت نكبة البرامكة عام ١٨٧ للهجرة وموت أبي نواس على أبعد تقدير ١٩٩ للهجرة فهل من المعقول أن يتغزل شاعر متقدم بالسن بصبية ناشئة قاصرة صغيرة؟!، وأن يبادلها القبل حيث سمحت له بقبلة واحدة وامتنعت من الأخرى بعد أن نحته وهو المتقدم في السن بالصبي؟!. قال:

سألتها قبلة ففزت بها بعد امتناع وشدة التعب
فقلتُ بالله يا معذبتي جودي بأخرى أقضي بها أربي
فابتسمت ثم أرسلت مثلاً يعرفه العجم ليس بالكذب
لا تعطين الصبيَّ واحدةً يطلبُ أخرى بأعنف الطلبِ

ديوان أبي نواس: تحقيق الغزالي، ص٢٧٤

٥٦- المصدر السابق الصفحة: ٢٧٩

٥٧- حسن: مغنية بارعة وعازفة متقنة. كانت صغيرة السن أحبها وتقرب إليها ولكنها كانت كسائر الجواري يُحبها ولا تحبه. ويقال أنها كانت طويلة وفارعة وكان هو يعشق الطويلات وفيها يقول:

طويلة خوط المتن عند قيامها ولي بالطويلات المتون ولوعُ

عن ديوان أبي نواس، نشر اسكند آصاف، شرح محمود واصف، طبع القاهرة لعام ١٨٩٨ للميلاد.

طفلةٌ خودٌ رداحٌ هام قلبي بهواها

قدُّها أحسنُ قدٍّ فاسألوا من قد رآها

ما براها اللّه إلاّ فتنةً حين براها

هي همّي ومُنائي ليتني كنتُ مُناها[58]

ويقال أنه تغزل في واحدة اسمها دنانير[59]، فهل هي دنانير جارية يحيى بن خالد البرمكي التي قيل أنه اشتراها من محمد بن كناسة الشاعر العباسي المعروف أم واحدة غيرها عرفت بهذا الاسم؟!.

قال الحسن[60]

اللّه مولى دنانيرٍ ومولائي بعينه مَضجعي فيها وممسائي

صَليتُ من حُبّها نارين واحدةً بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

وقد حميتُ لساني أن أُبينَ به فما يُعبّرُ عنّي غير إيمائي

يا ويح أهلي أبلى بين أعينهم على الفراش وما يدرون ما دائي

لو كان زُهدُكِ في الدنيا كزهدك في وصلي مشيتِ بلا شكٍ على الماء[61]

وقال في واحدة اسمها مُنية[62]:

٥٨- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق ص٢٦٨

٥٩- دنانير: جارية كوفية صفراء اللون عرفت بحلاوة الحديث وقراءة الشعر والتثقف بالأدب. كانت جميلة الوجه رشيقة القد، دقيقة اللحن والإيقاع حتى فتنت كل من رآها. أعجب بها الرشيد وكان لشدة إعجابه بها لا يطيق الصبر عن المسير إليها حتى تحدث الناس كيف ينتقل الخليفة إلى جارية. ويقال أنه أهداها في ليلة عيد عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار.

بعد نكبة البرامكة حاول الرشيد أن يستميل دنانير وطلب منها الغناء فأبت على الرغم من استعماله القسوة معها، وبقيت على إخلاصها لمولاها. ولما أحس الرشيد بذلك رق لها وتركها تعيش أينما تريد وكيفما تحب ويقال أنها عاشت في دار للبرامكة لا تفرح لنعمة ولا تطرب لعشق أو غناء حتى ماتت.

٦٠ المصدر السابق: الغزالي، ص٢٣٦

٦١- يشبهها بالمسيح، فهي لو كانت تزهد في الدنيا كما زهدت في وصله لبلغت قمة الزهد وتساوت مع المسيح الذي مشى على الماء.

٦٢- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٢٥٠

أبت عيناي بعدك أن تناما ... وكيف ينام من ضيق السّقاما[63]

مذكرةٌ مؤنثةٌ مهاةٌ ... إذا برزت تُشبّهها غلاما

تعاف الماء والعسل المصفى ... وتشربُ من فتوتها المُداما

وتغزل الحسن في قاتل جارية زهير بن المسيب صاحب شرطة الخلافة مُضمناً فيها غمزاً بالخلافة وتعرية لسلوك رجالها الذين غدوا ألعوبة في أيدي الجواري.

قال[64]:

أمحيّية القلب ضدُّ اسمها ... أرقُّ وأصفى من الجوهرِ[65]

تخفُّ الخلافة في عينها ... وربُّ السرير مع المنبر

وقد ملكت بالجمال الأنام ... ورقُّ الأمير أبي الأزهرِ

وقال في معشوق جارية أسماء بنت المهدي[66]:

لقد صُبِّحت بالخير عينٌ تصبّحت ... بوجهك يا معشوق في كلِّ شارقِ

مقرطقة لم يحنها سحبُ ذيلها ... ولا نازعتها الريح فضلَ البنائقِ[67]

تجمّع فيها الشكل والزِّيُّ كُلُّهُ ... فليس يُوفِّي وصفها قولُ ناطقِ

وقال في عبدة[68]:

سأشكر للذكرى صنيعتها عندي ... وتمثيلها لي من أحبُّ على البعد[69]

يقربُه التذكار حتى كأنني ... أعاينُه في كلِّ أحواله عندي

لقد كادت الذكرى تكون كأنّها ... مُشاهدةٌ لولا التوحش للفقدِ[70]

٦٣- ضمين الشيء كفله. والسقام: المرض. والمراد معاناة المرض والسهر من جراء بعد حبيبته.

٦٤- المصدر السابق، ص٢٩٤

٦٥- ضد اسمها: لأن اسمها قاتل

٦٦- المصدر السابق، ص٢٥٨ وما بعدها

٦٧- البنائق: جمع بنيقة، وهي رقعة تزاد في نحر القميص.

٦٨- المصدر السابق، ص٢٣٤

٦٩- صنيعتها: صنعها ومعروفها. تمثيلها: تخيلها وإحضار صورته في النفس.

٧٠- التوحش للفقد: الوحشة للغياب والبعاد.

تمثّلَ لي أن لا أقولَ على النوى | فيا ليت شعري ما الذي أحدثتْ بعدي
لأني وإن كانت من الناس، واثقٌ | لنفسي منها بالدّوامِ على العهدِ

وقال في جارية اسمها رحمة[71]:

حسبي جوىً - إن ضنان بي أمري | ذكري الرحمِ! وهي لا تدري[72]
ويلومني في حُبِّها نفرٌ | خالون من شجوي ومن ضُرّي
لم يعرفوا حقَّ الهوى فَلَحوا | لو جربوه تبينوا عذري[73]

وقال في عنان جارية النطّاف[74]:

عِنان يا من تُشبه العينا | أنتم على الحُبّ تلومونا[75]
حُسنُك حُسن لا أرى مثله | قد ترك الناس مجانينا

●علاقة الحسن مع الشاعرة عِنان:

إن علاقة الحسن مع الشاعرة عِنان قد تبقى على الأغلب أكثر خصوصية، وربما أشدّ صبوة وأبعد أثراً في حياته من علاقاته مع غيرها من النساء الجواري الأخريات نظراً لاختلاف جوّه النفسي إزاءها.

قال[76]:

يا صاحِ أشكو حُلوةَ العينين جائلةَ الوشاح[77]
فيها افتضحتُ وحبُّها | في الناس يسعى بافتضاحي
ولها ولا ذنب لها | لحظٌ كأطراف الرماح

٧١- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٢٦٢

٧٢- لرحم: المقصود رحمة وهو اسم الجارية

٧٣- فَلَحَوا: من لحا بمعنى لام.

٧٤- المصدر السابق، الغزالي، ص٣٠٩

٧٥- العِين بالكسر: البقر الوحشي.

٧٦- المصدر السابق: الغزالي، ص٢٣١

٧٧- جائلة الوشاح: كناية عن ضمور البطن ورقة الخصر وبروز النهدين، ومن شأن هذا أن يجول الوشاح حول جسد المرأة.

في القلب يجرحُ دائماً فالقلبُ مجروح النواحي

كانت عِنان فائقة الحسن والظُرف والعلم والأدب، وتمتعت بشخصية متميزة وغنية بمواهبها الفنية جعلتها من أبرز الجواري الشواعر بين النساء في عصرها، وأفضل من عُرف في طبقتها. كانت من أحسن شعراء دهرها بديهة وأسبقهم نادرة وأعذبهم حديثاً، ذات عقل سديد وذكاء فريد وفطنة جاهزة. وقيل أن صلته بها ربما «لا تتجاوز حدود الزمالة غير المخلصة»[78]. وقد تجلت هذه الصلة في المساجلات الشعرية التي كانت تدور بينهما في مجالس اللّهو والشراب.

قال الجمّاز[79]:

«.. ألقى أبو نواس على عنان جارية النطّاف بيت شعر هو:

كل يوم بأقحوان جديد تضحك الأرض عن بكاء السماءِ

فأجابته على المكان:

فهي كالوشي في ثياب يمانٍ جلبتها التجّارُ من صنعاءِ

وكتب أبو الفرج يقول[80]:

«... أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار، قال: حدثني ابن أبي سعيد قال: حدثني مسعود بن عيسى قال: أخبرني موسى بن عبد الله التميمي قال: دخل أبو نُواس على الناطفي وعنان جالسة تبكي، وخدُّها على رزَّة من مصراع الباب، وقد كان الناطفي ضربها، فأومأ إلى أبي نواس أن يحركها بشيء.

فقال أبو نُواس:

عِنانُ لو جُدتِ لي فإنني من عمري في آمَنَ الرسول بما

فردت عليه عنان:

٧٨- أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد الدكتورة إلهام الزعيم، ص٢٥١

٧٩- المستظرف من أخبار الجواري: جلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ص٤٢

٨٠- كتاب الأغاني: مصدر سابق: ص٨٨ المجلد ٢٣

فـإن تمـادى ولا تمـاديـتُ فـي قطعِكَ حبلي أكن كمن ختما[81]

فردّ عليها أبو نواس فقال:

علقـتُ من لو أتى على أنفسٍ الماضـين والـغـابـريـن مـا نـدِمـا

فردت عليه:

لـو نـظـرتْ عينُها إلى حجرٍ ولَّـد فـيـه فـتـورهـا سـقـمـا

ونقرأ في بعض التصانيف الأدبية ما رواه ابن منظور وبشكل خاص في الفكاهة والايتناس المنسوب إلى أبي نُواس عدداً من المحاورات الشعرية والمساجلات والمقطوعات جرت بين عِنان وأبي نواس، بعضها من الشعر المكشوف الفاحش الذي يهبط إلى مستوى السباب ويندى له الجبين إذا صحت روايته عنهما[82]. والبعض الآخر يتضمن معاني المداعبة والمفاكهة والمعابثة وذلك باستخدام ألفاظ ماجنة لا تبدو معانيها ومقاصدها إلا عند التقطيع العروضي.

كتب صاحب العقد الفريد يقول[83]:

٨١- يشير أبو نواس إلى آخر سورة البقرة «آمن الرسول بما أنزل إليه» كأنه يقول: إني من حبك مازلت في أول سورة، فأجابته إن قطعت حبلي كنتُ أنا كمن ختم القرآن.

٨٢- يُقال أن عنان غلبت أبا نُواس في مجال الأدب المكشوف وأنها أخجلته أمام أكثر من مجلس خلال مساجلاتها معه. ومن هذه المساجلات المساجلة التالية: أحب أبو نواس أن يخجلها فيها فأخجلته:

قال:

مـا تـأمـريـن لـصـبٍّ يـكـفـيـه مـنـك قُـطـيـرة

قالت:

إيّـايَ تـعـنـي بـهـذا عـلـيـك فـاجـلـد عُـمـيـرة

قال:

إنـي أخـاف وربـي عـلـى يـديَّ مـنـك غـيـره

قالت عنان:

عـلـيـك أمـك .... فـإنـهـا كـنـدبـيـرة

مكان النقط كلمة تعني العمل الجنسي بصيغة الماضي. والكندبيرة كلمة فارسية تعني العجوز الخرفة. عن أخبار أبي نواس لابن منظور السفر الأول، ص٣٥

٨٣- العقد الفريد: مصدر سابق، المجلد السابع، ص٥٥

«... وجلس أبو نواس إلى عنان،

فقالت: كيف علمك بالعروض وتقطيع الشعر يا حسن؟

قال: جيد،

قالت: تقطع هذا البيت:

أكلتُ الخردل الشاميَّ في صفحة خبّاز

فلما ذهب يقطعه ضحكت به وأضحكت، فأمسك عنها.

وأخذا في ضروب شتى من الأحاديث، ثم عاد سائلاً لها.

فقال: كيف علمك بالعروض؟!

فقال حسنٌ يا حسن.

فقال: قطعي هذا البيت:

حوّلوا عنّا كنيستكم يا بني حمالة الحطب

فلما ذهبت تقطعه ضحك أبو نواس،

فقالت: قبحك الله، ما برحت حتى أخذت بثأرك».

ربما علاقة الزمالة غير المخلصة قد ربطته بعنان في فترة ما بعدما حدث بينهما ما حدث من جفاء وشر دفعها لأن تحرّض عليه سفهاء الكرخ والعيارين وما نُسب على لسانها من أبيات تهجوه وتنال من أمه، وما نُسب على لسانه من أبيات يهجوها ويقذع في هجائها.

غير أن العلاقة غير المخلصة لا يمكن أن تنفي كون الحسن في وقت ما قد أعجب بجمال عنان وتغزل بها.

قال[٨٤]:

من كان يجهلُ ما بي فأنت لا تجهلينا

عِنانُ يا شُغل نفسي يا أحسن العالمينا

٨٤- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٣١٠

ألقيتِ منك علينا ... سرَّ الزهادة فينا

أم لا: ففي أيّ شيءٍ ... هجرتني خبرينا

ما الهجرُ إلاّ بلاءٌ ... يشقى به العاشقونا

لا يمكن أن تنفي أنهما في مرحلة من مراحل اتصال اجتماعهما كانا يُظهران تبادل الودّ والحب والعشق.

كتب الوشاء[٨٥] يقول:

«... أرسلت عِنان إلى الحسن منديلاً تسترضيه بعد أن كتبت عليه:

أما يُحسن من أحسن أن يغضب أن يرضى

أما يرضى بأن صرتُ على الأرض له أرضا»[٨٦]

وذكر أبو الفرج في كتابه الإماء الشواعر أن أبا نُواس بعد أن قدم من مصر ذهب لزيارة عِنان: «فدخل عليها فقامت فتلقته إلى باب الدار فسلمت عليه ووصفت له شوقها إليه واحتبسته عندها يومه وليلته واتصل اجتماعهما»[٨٧].

وكتب أبو الفرج أيضاً في أغانيه قال[٨٨]:

٨٥- الوشّاء: هو أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء. يُعتقد أنه عاش في النصف الأخير من القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري (٨٦٠-٩٣٦) للميلاد. ويُفترض أنه ولد ومات في بغداد.

كان أديباً فاضلاً حسن التصنيف مليح الأخبار يقول عنه ابن النديم: «كان نحوياً معلماً لمكتب العامة». ويقول القفطي: «كان يعلم في دار الخلافة بوصفه مؤدباً للمغنية الجارية منية التي كانت ذاتها في خدمة إحدى زوجات الخليفة». ويعتقد أن المغنية منية ارتقت بفضل مساعيه من مغنية إلى مرتبة كاتبة ديوان.

للوشاء شعر لطيف رقيق لم يبلغ حد الجودة، لكنه حسن النظم. وله أكثر من عشرين مؤلفاً في النحو والأدب. غير أن كتابه الموشى وهو كتاب فريد في بابه - يمثل آداب عصر القرنين الثالث والرابع الهجريين، ويعطي صورة عن الظُرف وآداب السلوك وما يجب أن يتحلى به الرجل الظريف، رجل المجتمعات الراقية من محاسن وما يتجنبه من مساوئ حتى يستطيع أن يحافظ على مظهر الفضائل الأخلاقية ومظهر الفخفخة. وأن الإنسان - كتحصيل حاصل - في تناغم طبيعي ليس مع الجماعة فحسب، بل رمع نفسه أيضاً وأنسية الأدب والسلوك؛ بمعنى أن الموشى بحث فيما سُمي عند الغرب بعلم الأتيكيت. وبذلك يكون العرب المسلمون قد سبقوا الغربيين في هذا المجال من التأليف بأكثر من ألف عام.

٨٦- الموشى أو الظرف والظرفاء: محمد الوشاء، تحقيق كمال مصطفى، ص٢٢٩

٨٧- الإماء الشواعر: أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق الدكتور جليل عطية، ص٤٠

٨٨- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، مصدر سابق، المجلد الثالث والعشرون، ص٨٩

«... أخذ أبو نُواس من عِنان جارية الناطفي خاتماً فصُّه أحمر فأخذه أحمد بن خالد حيلويه من أبي نواس، فطلبته منه عنان فبعث إليها مكانه خاتماً فصُّه أخضر، فاتهمته في ذلك، فكتب أبو نواس إلى أحمد بن خالد فقال:

فدَتكَ نفسي يا أبا جعفرٍ جاريةٌ كالقمر الأزهرِ

تعلّقتني وتعلّقتُها طِفلين في المهد إلى المحشر[89]

كنتُ وكانت نتهادى الهوى بخاتمينا غير مستنكرِ

حبَسَت لي الخاتم منّي وقد سلبتني إياهُ مُذ أشهرِ

فأرسلت فيه فغالطتُها بخاتمٍ من فضةٍ أخضرِ

قالت: لقد كان لنا خاتمٌ أحمرُ يُهديه إلينا سَري

لكنه عُلِّقَ غيري فقد أهدى لها الخاتم لا أمتري[90]

كفرتُ بالله وآياته إن أنا لم أهجره فليُبصرِ

أو فأْتِ بالمخرج من تُهمتي إياه في خاتمه الأحمرِ

فاردده تردُد وصلها إنها قُرةُ عيني يا أبا جعفرِ

فإنني متهم عندها وأنت تعلم أنني بري

قال: فردَّ إليه الخاتم وبعث إليه معه بألفي درهم».

هل يمكننا القول: أن الحسن قد أحب عنان فعلاً واشتهى معاشرتها؟! وهل يمكن أن نقول أن علاقته معها بدأت تظهر في حياته بمثابة الحب الثاني الذي قرع أبواب قلبه؟!. فتمنى له الديمومة وأراد له الحياة، شرط أن تتخلص عنان له وحده في علاقتها معه؟!. ربما ولكن؟!.

لنسمع ما قال لها[91]:

قد قلتُ قولاً، فاسمعي ذاكُمْ منّي ورُدي مثله يا عِنانْ

إنـي لأهواكِ، وإني جبانْ أفرقُ من علمي بغدر القيانْ

89- تعلقتني وتعلقتها: أحبتني وأحببتها.

90- لا أمتري: لا أشك.

91- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٣١١

يصلْنَ مَنْ واصلنه خُدعةً بكسرة الطرف، ومزح اللسانْ
لستُ أرى وصلك أو تحلفي ألا تخوني وتفي بالضمان
أو فذريني، وصلي جاهلاً يلقى من الغيرة فيك الهوانْ

لقد عُرف عن أبي نواس أنه كان يرفض أن يشاركه أحد في علاقته مع المرأة التي يعجب بها أو يُحبها.

قال(92):

يا معشر العُشّاق ما البُشرى قد ظَفرت كفّي بمن أهوى
ضممتُ كفّي على دُرَّةٍ لا شركةٌ فيها ولا دعوى

وقال(93):

لا حبّذا الشركة في حبها وحبذا الشّركة في الكاسِ

وعُرف عن عنان أنها لم تخلص له وحده في علاقتها معه. وأنها كانت لا تبالي بما تفعل ولا بما تقول. ولا تخجل من ذكر الألفاظ البذيئة وأسماء الأعضاء الجنسية في أحاديثها وشعرها كما ذكرنا. وكانت تتمتع بحرية مطلقة جعلت سلوكها أقرب ما يكون إلى أخلاق المُجان والمستهترين من الرجال. فكان لها أكثر من خليل وعاشق ومعجب.

وقيل أن الذين سقطوا في شباك حبها كثيرون... منهم الخليفة هرون الرشيد الذي رغب في شرائها لكنه أحجم لتهتكها المكشوف وسوء سمعتها. وربما بسبب بعض الأبيات التي روجت عن لسان أبي نُواس في هجائها.

نُسب إلى الحسن قوله مُعرِّضاً بها(94):

إن عِنان النطّاف جاريةٌ أصبح حِرُها.... ميدانا(95)

92- المصدر السابق، ص236

93- المصدر السابق، ص284

94- الأغاني لأبي الفرج: مصدر سابق المجلد الثالث والعشرون، ص92

95- مكان النقط كلمة تعني عملية المضاجعة.

ما يشتريها إلا ابنُ زانيةٍ   أو قلبطانٌ يكون من كانا[96]

وكتب جلال الدين السيوطي يقول[97]:

«... ولما سمع الرشيد بالأبيات قال: لعن الله أبا نُواس وقبّحهُ فلقد أفسد عليَّ لذتي في عِنان بما قال فيها ومنعني من شرائها»[98].

تعارضت الآراء، وتباينت الأقوال والروايات حول تأكيد أو نفي هجاء الحسن لعنان، وحول صحة نسبة هذه الأبيات إلى أبي نواس. البعض نفى نسبتها إليه وقال: إن الغاية من إشاعة هذه الأبيات وإلصاقها بأبي نواس إيغال قلب الرشيد عليه؟!. ونسبة رزيل القول إليه؟!. وقال البعض الآخر: أن الهدف منها إثارة عِنان ومحبيها على أبي نواس حتى تبادل هجاءه هجاءً وتنال وصحبها منه ومن أمه، وهذا ما حدث فعلاً وتناقلته الروايات.

وقال آخرون بترجيح صحة ما قيل عن هجائه لها، مؤكدين أن الأبيات المذكورة صدرت فعلاً عن الحسن في هجاء عِنان. وإذا كان الأمر كذلك فإن مثل هذا الرأي لا ينفي الآراء السابقة ولا يتعارض مع نتائجها. بل ربما تعامل بمنطقية وجدية أكثر مع الوقائع والروايات المتناقلة وسير أحداث حياة الحسن.

ثم هل كان هجاء الحسن لعنان بناءً على طلب من أم جعفر زبيدة لإبعاد الرشيد عنها؟!... فقد قيل أن زبيدة بعثت إلى الأصمعي تقول: «إن أمير المؤمنين قد لهج بذكر

٩٦- القلبطان: القواد الديوث الذي لا غيرة عنده.

٩٧- السيوطي: هو أبو الفضل جلال الدين بن عبد الرحمن الأسيوطي الشافعي أو السيوطي نسبة إلى أسيوط بصعيد مصر. ولد بأسيوط عام ٨٤٠ للهجرة. ونشأ في أسرة دينية محبة للثقافة والعلم والأدب. برع في الفقه والنحو والصرف والبيان والفرائض والحساب والمنطق. تضلّع في مختلف أمور الدنيا والدين نظراً وتأليفاً واجتهاداً حت ظُنّ أنه الرجل الذي بعثه الله مجدداً للإسلام على رأس المائة التاسعة مصداقاً للخبر المأثور: أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد للأمة الإسلامية أمر دينها. بلغت مؤلفاته أكثر من ٧٢٥، طبع منها أكثر من مئتين والباقي مخطوط أو مفقود. وله مؤلفات في الجنس تميزت بصراحة العالم وجدية الباحث ولطف الأديب. منها «شقائق الأترنج في رقائق الغنج» و «الإيضاح في أسرار النكاح» و «مباسم الملاح ومناسم الصباح في مواسم النكاح» وغيرها... وله ديوان شعر ضاع ولم يبق منه إلا نتفاً منثورة هناك وهنا. تصدى للفتيا حتى آخر أيامه. توفي في ١٩- جمادى الأولى سنة ٩١١ للهجرة. واهتمت والدته بقبره.

٩٨- المستظرف في أخبار الجواري، للسيوطي: تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ص٤٦

عِنان، فإن صرفته عنها فلك حكمك. وكذلك قيل أنها دست إلى أبي نواس أيضاً في أن يحتال في أمرها[99]. وهل إبعاد الرشيد عن عنان يعني وجود مصلحة شخصية للحسن في ذلك؟!.

لقد ذكر إبن عساكر في كتابه تهذيب تاريخ دمشق حواراً جرى بين يزيد بن مزيد والحسن بن هانئ،

كتب إبن عساكر يقول[100]:

«.. وكان أبو نُواس بعد أن هجرته عنان وهجته يذكرها في شعره يتشبب بها.

فقال في قصيدة يمدح بها يزيد بن مزيد.

عنان يا من تشبه العينا...،

فقال له يزيد: هذه جارية قد عرض لها الخليفة وعلقت بقلبه فاله عنها ولا تعرض نفسك.

قال: صدقت أيها الأمير ونصحتني، ثم قطع ذكرها».

وهل كان الحسن يرمز إلى شخص بعينه عندما ذكر أن حُسن عنان قد ترك الناس مجانينا؟

قال[101]:

عِنانُ يا من تُشبه العينا ... أنتم على الحُبِّ تلومونا

حُسنُك حسن لا أرى مثله ... قد ترك الناس مجانينا

أو عندما تحدث عن ذلك الجاهل الذي يلقى في حبها الهوان؟!.

قال[102]:

أو فَفَريني وصلي جاهلاً ... يلقى من الغيرة فيك الهوانْ

٩٩- مختار الأغاني: لابن منظور، مصدر سابق، المجلد الرابع، ص٢٢٢ وما بعدها.

١٠٠- تهذيب تاريخ دمشق الكبير: لابن عساكر، المجلد السادس، ص٢٦١

١٠١- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٣٠٩

١٠٢- المصدر السابق: ص٣١١

وإذا كان يرمز إلى شخص بعينه؟! فمن يكون هذا الشخص؟!. هل يمكن أن يكون الشخص الذي وصفه الحسن «بالمجنون في حسنها... والذي يلقى الغيرة والهوان في حبها». هو الخليفة هارون الرشيد؟!... ربما ونحن لا نستبعد مثل ذلك الأمر وإليه نميل، خاصة إذا علمنا أن الحسن بشكل عام كان يكره السلطة العباسية وحاول أن يغمز من خلفائها، ويسخر من مسؤوليها سخرية مبطنة عن طريق الرمز بهدف فضحهم وتعريتهم والنيل منهم. وله أكثر من قصيدة في هذا الاتجاه.

وإذا لم يكن هجاء الحسن لعنان بدافع أو بطلب من أم جعفر «زبيدة» ونحن نستبعد طلباً مباشراً من أم جعفر لأبي نواس، فهل كان هجاء الحسن لها إذا صحت نسبته إليه بدافع الانتقام لأنها لم تخلص في علاقتها معه، وكذلك من الخليفة هارون الرشيد لأنه حاول امتلاكها؟!. وأن ما بدا من توافق أو ترابط ظاهري بين رغبة أم جعفر التي أفصحت عنها إلى الأصمعي وبين رغبة الحسن لا يعدو أكثر من تزامن في الرغبات.. ربما.

ثم ألا يمكن أن تكون عنان قد ملّت إلحاح الحسن الدائم في طلب الإخلاص له وحده، وملّ هو من عدم إخلاصها وكثرة عشاقها، فاختلفا وانفصمت عرى العلاقة بينهما على مبدأ أن الحب رغبة في الامتلاك وأن المتعة وحدها صاحبة الحق في إزالة لثام الحب؟!. وإذا ما أزيل هذا اللثام وظهرت بوادر شقاق وعدم تفاهم وانسجام بين الطرفين المتحابين، فإن ما قد ملكته اليد سرعان ما تزهد به النفس.. ربما، وربما هذا وذاك من الأسباب والفرضيات منفردة أو مجتمعة.

من كل ما تقدم نرى أن ما يمكن أن نجزم به ونؤكد عليه هو أن حب الحسن لعنان لم يستمر، وعلاقته معها لم تكتب لها الديمومة، كما أن هارون الرشيد لم يحصل عليها ومات وفي نفسه أشياء من قصته معها.

● غزل انتحال الحب ومداعبة الجواري:

إن أجمل ما في أيدينا وأصدقه، هو ما قاله أبو نواس من شعر الغزل في بداية وهمه العشقي وهواه المؤمثل، في حبه الأول والكبير للمرأة المؤمثلة التي حرمته من غسالة قربها. هو ما تغنى به في عشقه لجنان جارية الثقفيين من شعر ينم عن حرارة الشعور ويفيض بأصدق العواطف ويمور بأجمل الصور المبتكرة، ويلهج بمشاعر الانفعال

الحقيقية، ويترك أكثر من إشارة استفهام على ما قيل عن انحرافه بالشكل الذي صوروه عليه وأشيع عنه. لأن المصاب بالشذوذ قلما يعشق النساء بصدق، قلما يميل إليهن، وقلما يستمتع بعلاقاته معهنّ.

أما تغزله بمن عرف من النساء الجواري الأخريات، فكثير، وفيه الجيد، ولكن فيه الرديء. فيه المتكلف وفيه الخلاّق والجنح الخيال، مثل قوله في جارية لم يذكر اسمها:

قال الحسن(١٠٣):

وليلٍ لنا قد جاز في طوله القدرا	كشفنا له عن وجه قينتنا الخِدرا(١٠٤)
فولّى برعبٍ قبل وقت انتصافه	كأنّا الحنا عند ذاك له الفجرا(١٠٥)
وأقبل صُبحٌ قبل وقت مجيئه	فأدبر مرعوباً، وقد كُسيَ النُّعرا(١٠٦)
وظنَّ بأن اللّه أحدث بعده	ضياءً منيراً، أو قضى بعده أمرا
لبثنا بلا ليلٍ، وقمنا بلا ضُحىً	كأنّا نصبناها لذاكَ وذا سِحرا(١٠٧)

غزل معظمه مقترن بشعر الخمرة ملازم لنعتها ونعت مجالسها لأن الخمرة بالنسة إليه لم تكن إلا مدخلاً إلى عالم الحب لمن يُحب، عالم العشق والوجد بمن يعشق. لم تكن إلا مدخلاً إلى عالم السعادة، عالم الجمال والكمال المطلق. حيث انطلق بأصالة الفنان على هواه في مدى الحرية اللاحب يرسم للعشاق مذهباً في العشق قد لا يتقيد به لكنه يقيّد الآخرين به.

قال(١٠٨):

١٠٣- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٢٥٥

١٠٤ الخدر: الستر للجارية أو غطاء لوجهها.

١٠٥- لما كشف عن وجه القينة هرب الليل قبل وقته لأنه أدرك مقدار نقصه عن كمال حسنها.

١٠٦- كذلك فعل الصبح الذي لمح نور وجهها فخاف وأدبر أيضاً لأنه أقل منها ضياءً.

١٠٧- هكذا بقيت الجارية بوجهها الساحر متجاوزة الليل والنهار، الزمان والمكان لأنها بلغت من الجمال والجلال مبلغاً انعدم إزاءه الزمان والمكان لأنها أصبحت مطلقة، لأنها غدت بجمال وجهها فوق الزمان والمكان.

١٠٨- المصدر السابق: نشر اسكندر آصاف، شرح محمود واصف طبع القاهرة عام ١٨٩٨ ص٣٧٨

إني لأبغض كل مصطبر عن إلفه في الوصل والهجرِ

الصبرُ يحسُن في مواضعه ما للفتى المشتاق والصبرِ

غزل يتراوح بين الغزل الحسي الفاحش والمعتدل. غزلٌ أكثره ظاهري التكلف لفظاً ومعنى، غزل يعتمد على انتحال الحب ومداعبة النساء والعبث بهنَّ بظُرف وإغواء، بعيداً كل البعد عن عواطف الوجد الصادقة.

قال(109):

فلمّا تلاقينا رأيتُ أكُفَّنا قصاراً وقِدماً كنّ غير قصار

فإن بخلت عينٌ بتقبيل أختها فما بخلت كفٌ بحلِّ إزار

فكِدنا، ولما.. غير أن شفاهنا تعاطت خليطي سُكرٍ وعُقارِ(110)

وودعتُها صبحاً ولم أنس صدَّها وقد بادلتني خاتماً بسوارِ

غزل يعتمد أحياناً على تضمين الحكمة والأمثال.

قال(111):

حِلْوُ العتاب يُهيجهُ الإدلالُ لم يحْلُ إلا بالعتاب وصالُ

لم يهو قطُّ ولم يُسمّ بعاشقٍ من كان يصرف وجهه العذالُ

وجميع أسباب الغرام يسيرة ما لم يكن غدرٌ ولا استبدالُ

وقال أيضاً(112):

سألتُها قبلةً لفزتُ بها بعد امتناع وشدة التعبِ

فقلتُ بالله يا معذبتي جودي بأخرى أقضي بها أربي

فابتسمت ثم أرسلت مثلاً يعرفُه العُجم ليس بالكذبِ

لا تعطينَّ الصبيَّ واحدةً يطلبْ أخرى بأعنف الطلبِ

109- القبلة في الشعر العربي، الدكتور - علي شلق، ص64

110- قوله: فكدنا... ولما... أي كدنا أن نحظى بالوصال ولما ننله.

111- مجمع الحكمة والأمثال في الشعر العربي: أحمد قبش، ص315

112- القبلة في الشعر العربي، مصدر سابق، ص64-65

وقد يتكئ على تعبير قرآني يصف آل جهنم وكيف تجدد جلودهم كلما نضجت ليزاد في عذابهم، فيستعيره بلباقة العاشقين، وبظرف لا يخلو من تهكم لاذع ليقول: أنه مشفق على حبيبته أن تُصلى بنار الحب وهي ذات المزاج الرقيق الذي لا يحتمل العشق ولا أهواله، ويعزُّ عليه أن تكوى بنار وجده.

قال[١١٣]:

يعزُّ عليَّ أن تجدي كوجدي	لأن الحُبَّ أهونه شديدُ
رأيتُ الحبَّ نيراناً تلظى	قلوبُ العاشقين لها وقودُ
فليت لها إذا احترقت تفانت	ولكن كُلَّما احترقت تعودُ
كأهل النار إن نضجت جلودٌ	أُعيدت للشقاء لهم جلودُ

وربما ضمَّن غزله بعض المسائل الفلسفية أو الفقهية التي شاعت في عصره.

قال[١١٤]:

أين الجوابُ وأين رَدُّ رسائلي	قالت: تنظُّر ردُّها في قابل
فمددتُ كفي ثم قلتُ تصدقي	قالت: نَعَمْ، بحجارة وجنادلِ[١١٥]
إن كنت مسكيناً فجاوز بابنا	وارجعْ فما لكَ عندنا من نائلِ[١١٦]
يا ناهِرَ المسكينِ عند سُؤاله	اللّه عاتِبٌ في انتهار السائلِ[١١٧]

● فن رسائل الغزل النسائية:

لم يُغفل الحسن في غزله أهمية أسلوب فن رسائل الغزل ودوره في مخاطبة الحبيب بتعطف وتذلُّلٍ، في مفاتحته واستدراجه، في استرضائه والاعتذار منه، في التذكير بوعد أو التهديد بهجران أو صد. وقصائده التي اتخذت شكل رسائل نسائية منها ما كان

١١٣- ديوان أبو نواس: نشر اسكندر آصاف مصدر سابق ص٣٧٤

١١٤- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٢٥٣

١١٥- الجنادل: الصخور.

١١٦- نائل: النّوال.

١١٧- ناهر المسكين: زاجره.

مشافهة، ومنها ما كان كتابة. منها ما كان عن طريق الرسول، ومنها ما كان بالإشارة من خلال العينين أو الوجه أو اليد.

قال يخاطب واحدة تراسله[118]:

اكتُبي إن كتبت يا منية النفس بنُصحٍ ورقةٍ وبيانِ
كثّري السّهوَ في الكتاب ومجّيه بريق اللّسان لا اليبان[119]
وأمرّي الختام بين ثنايا ك العذاب المُفلّجات الحسانِ[120]
أنني كلّما مررتُ بسطرٍ فيه محوٌ لطْعتُهُ بلساني[121]
فأرى ذاك قُبلةً من بعيدٍ أسعدتني وما برحتُ مكاني

وفي رسائله هذه ينساق الحسن مع كل ما يتصل بعالم المرأة الذي وشته الحضارة الجديدة بالأناقة والترف. وفي مراسلة له مع إحداهن مكتوبة لا على الورق بل على فصوص الخواتم محواً وكتابة نظم يقول:

قال الحسن[122]

كتبتُ على فصٍّ لخاتمها مَنْ ملَّ محبوباً فلا رقدا
فكتبتُ في فصٍّ ليبلغها من نام لم يعقِلْ كم سهدا
فمحتهُ واكتتبت ليبلغني لا نام من يهوى ولا هجدا
فمحوتهُ ثم اكتتبتُ: أنا واللّه أولُ ميِّتٍ كمدا
فمحتهُ واكتتبت تُعارضني واللّه... لا كلمتهُ... أبدا

بينما يتحدث في رسالة أخرى عن تجميش الرسول والعبث به وكأنه يريد من خلال ذلك أن يعرفنا على أخلاق عصر الشك بكل شيء وأخلاق الإماء فيه.

١١٨- المصدر السابق الغزالي/ ص٢٧٧

١١٩- مجّ الكتاب بريقه مجّة لم يبين حروفه

١٢٠- الثنايا: الأسنان، المفلجات: التي بينها وبين بعضها بعد، وهذا لون من جمالها.

١٢١- لطعته: لحسته.

١٢٢- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٢٦٠

قال[123]:

أرسل من أهوى رسولاً له ... إليّ والمنسوبُ محبوبُ

فقلتُ: أهلاً بكَ من مُرسِلٍ ... ومن حبيبٍ زانه الطيبُ

جمّشتُهُ في كِلْمةٍ فانثنى ... وقال: هذا منك تجريبُ[124]

مثلك لا يعشقُ مثلي وقد ... هامت به بيضاءُ رُعبوبُ[125]

وجاءت الرُسلُ بأن آتنا ... فجئتها والقلبُ مرعوبُ[126]

قالت تعشقت رسولي لقد ... بَدَتْ لنا منك الأعاجيبُ

وقال أيضاً[127]:

رسولي قال أوصلتُ الكتابا ... ولكن ليس يعطون الجوابا

فقلت أليس قد قرأوا كتابي ... فقال بلى، فقلتُ الآن طابا

فأرجو أن يكونوا هم جوابي ... بلا شك إذا قرأوا الكتابا

أجدُّ لك المنى يا قلبُ كيلا ... تموتَ عليّ غماً واكتئابا[128]

●غزل التسلية وثرثرة المجالس:

من الصعب أن نرى في غزل أبي نواس الذي لم يتغزل فيه امرأة حرة أصلاً بل أوقفه كله على النساء الإماء والجواري المغنيات مكاناً للكلام عن وفاء العاشق أو تجمله، باستثناء غزله في الجارية جنان كما سبق وذكرنا. لذلك كان أغلب غزله في النساء الأخريات غزلٌ يمثل ظُرف النساء في بغداد، غزل عبث يمثل الحياة البغدادية حياة المجون والدعابة تمثيلاً صحيحاً. غزلٌ لتسلية وتزجية فراغ وشغلاناً بثرثرة المجالس ووشايات

123- المصدر السابق الغزالي، ص٢٦٧

124- جمشته: التجميش، المغازلة والملاعبة.

125- رعبوب: يقال عن الجارية الناعمة الحلوة البيضاء.

126- مرعوب: يقال رعبه كمنعه، خوّفه فهو مرعوب.

127- المصدر السابق: الغزالي، ص٢٨٨

128- أجد المنى: أي أجملها وأصيرها جديدة بما أحاول من إرسال الكتب والوسطاء فأثير فيك حنين الذكريات حتى لا تغتم ولا تكتئب.

المجتمع، ومناوشات الأندية التي يجتمع فيها الشاربون وطلاب السماع والمسمعات أو المسمعون من القيان والمغنين»[129].

قال[130]:

بائتٌ بطرفٍ مُسَهَّدْ — مطمومةٌ تتمردْ[131]

لها من الظرف والحسن — زائدٌ بتجدُّدْ

فكلُّ حسنٍ بديعٍ — من حسنها يتولَّدْ

في القلب مني عليها — حرارةٌ تتوقَّدْ

تعود بالوصل طوراً — والعودُ بالوصل أحمدْ

حتى إذا أطمعتني — تأبى عليَّ وتجحدْ

فما لقلبيَ منها — إلاّ العنا والتردُّدْ[132]

أبغي دنُوّاً إليها — بالجهدِ مني فتبعُدْ

غزل تجدُ فيه نفساً طروبة مرحةً غايةً في الخفة والدمائة والدلاعة[133]، مشوبة بخبث الخلعاء واستهزاء المجّان ظمأى إلى اللذة من كل نواحيها. وتسمع منه حديثاً عذباً تطربُ له الأذن وتُسحَرُ به النفس»[134]

قال الحسن[135]:

يا لاعباً بحياتي — وهاجراً ما لِوَاتي

وزاهداً في وصالي — ومشمتاً بي عداتي

١٢٩- أبو نواس الحسن بن هانئ: دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي لعباس محمود العقاد، ص١٧٢

١٣٠ ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٣١٠

١٣١- طرف مسهد: أرق قليل النوم. مطمومة: مقصوصة الشعر كالغلمان.

١٣٢- العنا: العناء والتعب. التردد: حيرة الخطا إليها.

١٣٣- الدلاعة: من المدلع، الذي تربى في النعمة والجاه والاسم منها دلاعة

١٣٤- أبو نواس الحسن بن هانئ: خليل مردم، ص٦٥

١٣٥- ديوان أبي نواس الغزالي، مصدر سابق، ص٣٥٠

يـا بـدعـةً فـي مـثـالٍ | لا مُـدركـاً بـالـصـفـاتِ
فـالـوجـهُ بـدرُ تمـامٍ | بـعـين ظـبـيـي فـلاةِ
والجـسـدُ جـسـدُ غـزالٍ | والـغـنـجُ غـنـجُ فـتـاةِ
مـذكـر حـين يـبـدو | مـؤنـث الخـلـواتِ

غزل تشابهت فيه الصفات والملامح التي يهواها العاشق في معشوقاته. غزل جاهر باللذة الحسية وتغنى بنعمها، وربما تحدث فيه عن علاقات ومواقف قد لا تُعبّر عن تجارب حقيقية في حياته. غزل حدثنا فيه عن المثل الأعلى للجمال واللذة، حدثنا فيه عن ظُرف النساء الإماء في بغداد، عن ظُرف التغزل بالنساء الإماء في بغداد وغيرها من حواضر الدولة العباسية، وعن صبواتهن.

قال[١٣٦]:

نباتُ... بنتِ سباكِ اللّه من أمةٍ | كم اعترتك على الدهر المشاغيلُ
ما أنتِ إلا عروسٌ يوم جَلوتها | على المنصَّةِ تجلوها العطابيلُ[١٣٧]
أما نباتُ فقد أضحت مخضبةً | والشعر مفترقٌ بالبان مغسولُ
قالت تعلّلتُ بالحناءِ قلت لها | ما بالتطاريف بالحنّاء تعليلُ[١٣٨]
هذي التطاريف من غنجٍ ومن عبثٍ | كما زعمتِ فما للطرفِ مكحولُ
قالت كحِلتُ بعذرِ العين من رمدٍ | فقلتُ عذراً فما للشعر مبلولُ
قالت مُطرنا ولم تمطر فقلتُ لها | ما بالُ مئزرك المصقول محلولُ
قالت برمتُ به حملاً فأثقلني | هذا الإزار فلم حُلَّ السراويلُ
قالت غُلبتُ على نفسي فقلت لها | هذا زناكِ فما هذي الأباطيلُ

وقال أيضاً[١٣٩]:

١٣٦- ديوان أبي نواس: الغزالي، ص٢٠٩

١٣٧- العطابيل: جمع عطبول وهي المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق.

١٣٨- التطاريف: خضاب أطراف الأصابع.

١٣٩- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٧٢٦

عُلِّقتُ من عُلِّقني — فكلُّنا متفقُ[١٤٠]

إن غاب لم أظن به — وهو بغيبي يثقُ

لو شئتُ أن يُلثمني — فاهُ رحولي حِلَقُ[١٤١]

لقام لا يمنعهُ — مما أشاءُ الحدَقُ[١٤٢]

غزل حدثنا فيه بصدق فني رائع وتجسيد مُشخّص دقيق عن المرأة الجارية الغلامية الزيِّ التي عرفت كيف تحرك الرجال وتعبث بهم فضمت إلى قائمة محبيها والمعجبين بها من كان زنّاءً أو لوطياً لأنها مذكرة مؤنثة.

قال[١٤٣]

عتابٌ ليس ينصرمُ — وحبٌّ ليس ينكتمُ

وجاريةٍ بُليتُ بها — كأنَّ بنانها عنمُ[١٤٤]

مخنّثةٌ مؤنّثةٌ — بها ألم، وبي ألمُ

تُجرُّ ذيل مئزرها — وفارسُ أذنها قلمُ

وقال أيضاً[١٤٥]:

أضحكني الحبُّ وأبكاني — وهاجَ شوقي طولُ كتماني

من حُبِّ حوراءَ رُصافيةٍ — كأنها غُصنٌ من البانِ

مخروطةُ الكُمَّين قصريةٌ — جنّيةٌ في خلقِ إنسانِ

مطمومةُ الشعرِ غلاميةٌ — تصلح للوطيِّ والزاني[١٤٦]

١٤٠- علقت: أحببت.

١٤١- يلثمني: يجعلني ألثمه. الحِلَق: جمع حلقة يريد في مجتمعات الناس.

١٤٢- الحدق: العيون

١٤٣- المصدر السابق: الغزالي، ص٢٠٣

١٤٤- العنم: شجر أحمر تشبه به الأطراف.

١٤٥- المصدر السابق: الغزالي، ص٢٠١

١٤٦- مطمومة الشعر: مقصوصته. غلامية في ملابس الغلمان.

كـأنـهـا مـن حـسـنـهـا دُرَّةٌ بـارزة مـن كـفّ دهـقـان
أو مـسـكـةٌ خـالـطـهـا عـنـبـرٌ واستُودِعتْ طاقةَ رَيْحانٍ[147]

●آراء حول الغزل بالإماء:

إن شعر الغزل في الجواري من النساء أو ما يُسمى بشعر الغزل بالإماء والجواري المغنيات، ظاهرة تستحق أن نقف عندها قليلاً لما لها من قيمة كبيرة وأثر واضح في تاريخ الأدب والشعر، ولما لها من دور بارز في أخلاق عصر أبي نُواس وأعرافه وتقاليده السائدة التي جعلت من المرأة الحرة أنثى محجبة ومسجينة، أنثى محاطة بتابو[148] ديني فرض الماضي على الحاضر وجعل من السلف مرجعاً مقدساً وعلى كافة المستويات. خاصة عندما قام خالد القسري[149] الذي عُرف عنه أنه «كان يترسل بين عمر بن أبي ربيعة والنساء وهو يومئذٍ غلام مؤنث يصحب المغنين والمخنثين»[150] بهدم منار المساجد حتى حطها على دور الناس عندما بلغه شعرٌ لرجل من موالي الأنصار يقول فيه[151]:

لـيـتـني فـي المؤذنـين حـيـاتـي إنهم يُبصرون من في السطوح
فـيـشـيـرون أو تُـشـيـر إلـيـهـم بالـهـوى كـلُّ ذات دلٍّ مـلـيـح

وبذلك كان أول من مهد لهذا الاتجاه المتخفي تحت اسم الدين دفاعاً عن نقاء الشرف ومكارم الأخلاق؟!.. وباسم السلطة.

١٤٧- المسكة: من المسك نوع من العطر. يقول: يتضوع ريح عطرها بذكي المسك خالطه سحيق العنبر من باقة تضم أنواع الرياحين.

١٤٨- التابو: من الكلمة الإنكليزية Tabu أو Taboo وتعني المحظور، الممنوع أو المحرم بوصفه مقدساً أو ملعوناً.

١٤٩- خالد القسري: هو عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز البجلي ثم القسري أمه نصرانية وجده يزيد بن أسد وفد على النبي فأسلم ونزل بالشام عن كتاب المعارف لابن قتيبة الدينوري، ص٢٢٤ لم تعرف سنة ولادته، ولي مكة في عهد الوليد سنة ٧٠٩ للميلاد، ثم ولاه هشام بن عبد الملك العراق عام ٧٢٤ ميلادية ولنحو خمسة عشر عاماً. ويُقال أن راتبه في ولايته على العراق كان نحو عشرين ألف درهم، ولم يكن يكفيه فكان يستصفي لنفسه بوسائل غير مشروعة ما يزيد على مائة ألف كل عام. عن تاريخ اليعقوبي المجلد الثاني ص٥٥ عزله هشام وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، فسجنه يوسف واستصفى أمواله. ثم قتله عام ١٢٦ للهجرة /٧٤٣ ميلادية.

١٥٠- الغزل عند العرب: ج-ك فاديه، ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني، المجلد الأول ص٢٦٩

١٥١- الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، المجلد الثاني ص٧٥

هذا التابو أو هذه المحرمات الدينية جعلت من المرأة الحرة أنثى سجينة وراء أبواب القصور، وأصبح دون الوصول إليها أسوار وأسوار، وصار يستشار في جمالها وصفاتها وأخلاقها النساء. فمن أراد أن يتزوج حرة عليه أن يبعث إليها بامرأة تراها وتصفها. وغدا أدنى خروج عن هذا العرف الاجتماعي يشكل مروقاً على سلطة التابو، وإهانة للمرأة الحرة ولزوجها وأهلها. وكان الأصل القبلي وتكافؤ النسب القاعدة الأولى التي تحدد اختيار الزوج لزوجه عن طريق الوسيط. وبذلك حلّت الرقابة الاجتماعية الذكورية ومفاهيمها حول الأخلاق العامة للمجتمع، وحول عفاف المرأة وفضيلتها وحريتها ودورها في الحياة محل الإيمان الإسلامي الذي يجب عليه أن ينظم الرغبات والأخلاق والشهوات. وحلّت مفاهيم الاغتصاب القبلي وعنجهية المجتمع الذكوري محل عقل المؤمن المسلم الذي يجب أن يعتمد عليه ويُعمله كي يستطيع أن يميز بين الخير والشر. لأن العقل هو أسمى الوسائل للحكم على الأشياء وللتوصل إلى المعرفة والخير والعدل والمساواة.

أخرج بن سعد في الطبقات الكبرى عن علي بن زيد قال[١٥٢]:

«... إن عاتكة بنت زيد[١٥٣] كانت تحت عبد الله بن أبي بكر، فمات عنها واشترط عليها ألا تتزوج بعده. فتبتلت فجعلت لا تتزوج، وجعل الرجال يخطبونها وجعلت تأبى. فقال عمر لوليها: إذكرني لها. فذكره لها فأبت على عمر أيضاً. فقال عمر: زوجنيها، فزوّجه إياها، فأتاها عمر فدخل عليها فعاركها حتى غلبها على نفسها فنكحها. فلما فرغ قال: أف أف أف أفف بها. ثم خرج من عندها وترك لا يأتيها».

وهكذا تحولت المرأة الحرة الحصان إلى مجرد وسيلة للإنجاب، إلى مجرد دمية جميلة مسلوبة الحرية مستلبة الإرادة والعواطف تعرض بين أثاث القصر ورياشه كأنها مجرد متاع أو نبات أو حيوان أليف.

بينما تسامحت هذه المحرمات وتلك التقاليد والأعراف مع الرجل في أن يسرح

١٥٢- الغدير في الكتاب والسنة والأدب: عبد الحسين أحمد الأمين النجفي، المجلد العاشر، ص٣٨ نقلاً عن طبقات بن سعد.

١٥٣- عاتكة بنت زيد: هي بنت زيد بن عمرو بن نفيل إبنة عم عمر بن الخطاب. وقد تزوجت من بعد عمر أيضاً طلحة بن عبيد الله أحد المبشرين بالجنة. ثم محمد بن أبي بكر، ثم عمرو بن العاص.

ويمرح بين النساء الإماء حتى المسلمات منهنّ. في أن يختلط بهنّ، في أن يداعبهن ويُسرف في العبث واللّهو والمجون معهن دون أن يندى جبين الشرف، دون أن تُمسّ الأخلاق العامة للمجتمع أو يُهتك عفافها.

لقد سمحت للرجل أن يختار بنفسه دون وسيط الجارية التي يريد وإليها يميل، مسلمة كانت أو غير مسلمة. وقبل أن يختارها أو يمتلكها يكون قد تأمل كل شيء فيها، وعرف كل ما يُريد عنها وعن ملكاتها وإمكانياتها حتى قالوا: «الأمة تُشترى بالعين وترد بالعيب، والحرة غِلّ في عنق من صارت إليه».

وهذا ما ساعد المرأة الأمة بعد أن طورت إمكانياتها كإنسانة إلى أبعد قدر سمحت به ظروف حياتها، أن تسيطر على أجواء الحياة الاجتماعية وتشارك في الحياة العامة بعملها وثقافتها ومهاراتها، بمميزاتها الفنية والجسدية وكفاآتها وإمكانياتها الحضارية التي حررتها من جميع القيود التي فرضت على المرأة الحرة فتفوقت عليها.

لقد استطاعت هذه الأنثى «المرأة الأمة» أن تحقق في عصر الشك بكل شيء والنقد لكل شيء، عصر الانطلاق والتمرد والمجون، عصر بداية التدوين وحياكة الشبكة المقدسة للتابو الديني حول فضائل الأخلاق والقيم الدينية والسياسية والاجتماعية للمسلمين، لقد استطاعت المرأة الأمة في عصر تفوق الأنثى الجارية على المرأة الحرة أن تحقق ما لم تستطع أن تحققه المرأة الحرة الحصان في أن تملك المرأة المسلمة حرية أمرها وزواجها وأن يكون لها إرادة تستطيع أن تتصرف بها كما كان الأمر في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام، بعد أن سقطت جميع هذه الأمنيات والمحاولات صريعة أمام تقدم الورع المتدين وشباك تابو عصر التدوين.

أجل لقد استطاعت المرأة الجارية أن تحقق ممارسات أكثر حرية وجراة وشمولاً وأبعد أثراً في حياة الرجال والنساء أدت إلى تغيرات بهذا القدر أو ذاك في البنية السياسية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية والأدبية للمجتمع العربي الإسلامي.

وعزّز هذا التحرر وهذه الإرادة لدى المرأة الجارية إحساسها القوي بذاتها وبقيمة جسدها. فواجهت الواقع بجرأة، وجالست الرجال بحرية وعشت بهم بعد أن تدرجت خبرتها فيهم، وتعلمت كيف تعاملهم وتتعامل معهم. حتى أصبح بعضهنّ زوجاً لخليفة وأماً لخليفة آخر. وتدخلن في السياسة وعبثن بأمور الدولة والخلافة، وأيضاً بالخلفاء كما هو واضح ومعروف.

لقد رفضت المرأة الأمة العلاقة التقليدية بين الرجل الحرّ والمرأة الحرة، بعد أن أصبحت هذه العلاقة غير كافية أمام حواس الجسد التي استيقظت مندفعة تبوح بالشهوة لأن ماء الشباب غلى بها فوهبت نفسها لمن تحب بحرية مطلقة. وبحثت عن إرواء غلمتها دون أن تخاف أحداً حتى ولو كان الخليفة بالذات كما حدث مع المغنية الجارية عريب التي كانت تتسل من بيت الخليفة المأمون إلى بيت حبيبها محمد بن حامد[١٥٤] خفية..

روى أبو الفرج عن أحمد بن حمدون عن أبيه قال[١٥٥]:

«... كنت حاضراً في مجلس المأمون ببلاد الروم بعد صلاة العشاء الآخرة في ليلة ظلماء ذات رعود وبروق.

فقال لي المأمون: اركب الساعة فرس النوبة وسر إلى عسكر أبي اسحق يعني المعتصم، فأدِّ إليه رسالتي في كيت وكيت.

وقال: فركبت ولم تثبت معي شمعة وسمع وقع حوافر دابة فرهبت ذلك وجعلت أتوقاه حتى صكَّ ركابي ركاب تلك الدابة، وبرقت بارقة فأضاءت وجه الراكب فإذا عريب...!

فقلت عريب؟

١٥٤- محمد بن حامد الخراساني المعروف بالخشن وقد أحبته عريب حباً عميقاً وقالت فيه أشعاراً كثيرة وغنت بها. وكان ابن حامد أشقر أزرق العينين وفيه تقول:

بأبي كل أزرق	أصهب اللون أشقر
جُنَّ قلبي به	وليس جنوني بمنكر

ولم تطق عريب العيش في دار مولاها المراكبي وهي مدلّهة بابن حامد ففرت إليه فتلقاها وحماها بالقوة العسكرية وحجبها في منزله. وحاول مولاها أن يسترجعها فلم يقبل ابن حامد. فشكاه إلى المأمون الذي بدوره تحايل وأخذها لنفسه من الاثنين. واتفقت الأحاديث على اختلافها أن المأمون ذهب في حبها كل مذهب وأنها ملكت عليه أحاسيسه حتى سميت والمأمونية. وكانت عريب تتحايل وهي عند المأمون لتقابل حبيبها ابن حامد على الرغم من شدة الرقابة عليها وعليه من قبل حرس القصر. وقيل أن المأمون لما سمع أشعار عريب في ابن حامد وعرف أن العقاب والحبس والوعيد والرقابة لم تجد شيئاً معها ومع عشيقها قال: لن تنفعنا هذه الجارية وزوجها إياه. وقيل أيضاً أنها ظلت في قصر المأمون حتى مات فبيعت فيما كان يملك من جواهر وقيان.

١٥٥- كتاب الأغاني: مصدر سابق المجلد الحادي والعشرين، ص٨٠ وما بعدها.

قالت: نعم حمدون.

ثم قلت: من أين أقبلت في هذا الوقت؟

فقالت: من عند محمد بن حامد.

قلت: وما صنعت عنده؟

قالت عريب: يا تكش[156] عريب تجيء من عند محمد بن حامد في هذا الوقت خارجة من مضرب الخليفة وراجعة إليه وتقول لها أي شيء عملت عنده؟، صليت معه التراويح، أو قرأت عليه أجزاءً من القرآن؟، أو دارسته شيئاً من الفقه؟ يا أحمق تعاتبنا وتحادثنا واصطلحنا ولعبنا وشربنا وغنينا...[157] وانصرفنا.

قال: فأخجلتني رغاظتني وافترقنا. ومضيت فأديت الرسالة..).

وكان أول من عبر عن هذه الحقيقة الاجتماعية أبو نواس عندما أضاف – من خلال شعره الغزلي – إلى المرأة الجارية العاملة التي تضج طفرة وتطفح فتنةً الخبرات الإيجابية بالحياة ومرونة الجسد، وجعل من ذلك نموذجه الأعلى للمرأة.

قال الحسن[158]:

ساعٍ بكأسٍ إلى ناشٍ على طرب	كلاهما عجبٌ في منظرٍ عجبٍ[159]
قامتْ تريني وأمر الليل مجتمعٌ	صُبحاً تولّدَ بين الماء والعنبِ[160]
كأنَّ صُغرى وكبرى من فواقعها	حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذهبِ[161]
كأنَّ تُركاً صفوفاً في جوانبها	تُواتِرُ الرمى بالنُّشّاب من كثبِ[162]

١٥٦- تكش: لم نجد أصلاً لها في العربية.

١٥٧- مكان النقط: كلمة محذوفة تعني المضاجعة.

١٥٨- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٧٢

١٥٩- ناشي: نشوان في أول سكره.

١٦٠- أمر الليل مجتمع: كناية عن تمام الظلام وشموله. الخمر التي تشبه اللّهب بلونها.

١٦١- الفواقع: الفقاقيع من الهواء. الحصباء: الحصى وهي حجارة صغيرة. دُرّ: لؤلؤ.

١٦٢- تواتر الرمي: تتابعه. النشاب: النبل. من كثب: من قريب.

من كفِّ ساقيةٍ ناهيك ساقيةً … في حُسنٍ قدْ وفي ظَرفٍ وفي أدبِ[١٦٣]

كانت لربِّ قِيانٍ ذي مُغالبةٍ … بالكشخ محترِفٍ بالكشخ مكتسبِ[١٦٤]

فقد رأتْ ووعت عنهُنَّ واختلفتْ … ما بينهُنَّ ومن يهويْنَ بالكتُبِ[١٦٥]

حتى إذا ما غلى ماءُ الشباب بها … وأُفعِمتْ في تمام الجسم والقصبِ[١٦٦]

وجُمِّشت بخفيِّ اللحظ فانجمشتْ … وجرتِ الوعد بين الصدق والكذبِ[١٦٧]

تمَّتْ: فلم يرَ إنسانٌ لها شبهاً … فيمن برى اللهُ من عُجمٍ ومن عربِ

تلك التي لو خلتْ من عين قيّمها … لم أقضِ منها ولا من حبها أربي[١٦٨]

عندما صور محاسن إمرأة القرن الثاني للهجرة وهي ترفل في طيب التحضر ونعيم الرخاء من خلال تجربته مع الحياة الجديدة المرتبطة بالتطور الحضاري العام للمجتمع العربي الإسلامي.

قال الحسن[١٦٩]

تُغمِّسُ في العبير قميصها حتى شكا الشَّرَقا

وسالت من عقيصتها … سلاسل كُسِّرت حلقا[١٧٠]

على بشرٍ كأنَّ الدُّرَّ يعلوه إذا عَرِقا[١٧١]

١٦٣- ناهيك: صيغة للتعجب بمعنى حسبك.

١٦٤- الكشخ: جمع النساء والرجال لريبة والكشخان الديوث. القينة: الفتاة الجميلة المغنية. ذو مغالبة: صاحب براعة في اختيار الأشياء.

١٦٥- يقول: إن هذه الجارية كانت وهي صغيرة تخالط القيان وترى ما يفعلن، وكانت تحمل الرسائل بينهن وبين عشاقهن من غير أن يفطن لهُنَّ أحد.

١٦٦- غلا: زاد. غلا ماء الشباب بها تم شبابها. وأفعمت: امتلأ جسمها ونضج وغلظ ساقها. القصب: كل نبات ذي أنابيب ويريد به قوامها وأطرافها.

١٦٧- جمشت: غوزلت: التجميش: المغازلة والملاعبة. بخفيّ اللحظ: سراً فهمت إشارات الغزل الخفية.

١٦٨- لو خلت من عين قيمها: لو فقدت جميع معالم الشباب. أربي: حاجتي

١٦٩- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٢٧٨

١٧٠- العقيصة: الضفيرة من الشعر. الحلَق: جمع حلقة. يصف شعرها بأنه قد سال سلاسل ملتويات معقوصات حلقات.

١٧١- البشَر: ظاهر جلد الإنسان جمع بشرة.

فلو أبصرتها لحزنت عند دنوها صعقا[172]

عندما صور المرأة الجارية العصرية المثقفة وهي تواجه الواقع بجرأة وحرية وخبرة وكأني به يُحسّ الحرائر من النساء ويهمز بهنّ علّهنّ يمارسن حريتهن ويتخلصن من قيودهن ويخرجن من سجونهن من خلال رفضهنّ للقيم الجمالية الموروثة المهترأة عن المرأة، ويتحلين بالعلم والأدب والفن بشكل ينسجم ومذهب الحسن في الحياة القاضي بنبذ القديم والتمسك بواقع الحياة الجديدة وتصويرها بصدق وإخلاص.

قال الحسن[173]:

طفلةٌ، خودٌ رداحٌ ... هام قلبي بهواها

قدُّها أحسنُ قدٍّ ... فاسألوا من قد رآها

ما براها الله إلّا ... فتنةً حين براها

تنثر الدُّرَ - إذا غنّت علينا - شفتاها

وأرى للعود زهواً ... حين تحويه يداها

رُبّما أغضيتُ عنها ... بصري خوفَ سناها

هي همّي ومنائي ... ليتني كنتُ مُناها

أجل لقد صور الحسن هذا الجو العام الذي انعكس على مستويات عدة، منها ما يتعلق بالذوق العام كنمط جمالي سائد، فتفوقت المرأة الشاطرية القد على المرأة السمينة التي تنهكها أية حركة. تفوقت الجارية الغلامية الزيّ التي حاكت الذكور في كل شيء بعد أن خبرت كل شيء.

قال[174]:

أنديكَ خذها من يدي وهاتِ

عذبني حُبُّ غلاميّاتِ[175]

172- دنوها: قربها. صعقا: مغشياً عليه.

173- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، ص268

174- المصدر السابق: الغزالي، ص166

175- الغلاميات: الجواري اللواتي تشبهن بالغلمان في الملابس وقص الشعر.

ذوات أصداغٍ معقربات

مقوّمات القدّ مهضومات[176]

يمشين في قُمصٍ مزرّراتٍ

يصلحن للاطة والزُّناةِ

أُكني بوصفهنّ عن مولاتي

تلك التي في يدها حياتي

وقال أيضاً[177]

وشاطرةٍ تتيهُ بحسن وجهٍ	كضوء البرق في جُنح الظلامِ[178]
رأت زيَّ الغلام أتمَّ حُسناً	وأدنى للفسوق وللآثامِ
فمازالت تُصرِّف فيه حتى	حكته في الفعال وفي الكلامِ
وراحت تستطيل على الجواري	بفضلٍ في الشطارة والغرامِ
تعافُ الدفَّ تكريها وفتكاً	وتلعبُ للمُجانة بالحمامِ
ويدعوها إلى الطنبور حِذْقٌ	إذا دارت معتّقة المُدامِ
تُرجّلُ شعرها وتُطيلُ صُدغاً	وتلوي كُمّها فعل الغلامِ

كما انعكس هذا الجو على شعر الغزل فأوغل أكثر في الحسية، وغلب عليه المجون والإباحية. وأتقن الحسن فيه تصوير ما يجري بين الرجال والنساء الجواري من صلات ومطارحات وعبث ومجون.

قال[179]:

يُطمعني لحظها، ويؤنسني	باللفظ منها فؤادُها القاسي
تقولُ لي والمدام مُرسلةٌ	تفيض حولي نفوس جلاسي

١٧٦- مهضومات: ضامرات البطون، رقيقات الخصور.

١٧٧- المصدر السابق: الغزالي، ص٣٧٤

١٧٨- الشاطرة: الشاطر هو الذي أعيا أهله وأصحابه خُبثاً.

١٧٩- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٣٠٦

هل لك أن تطرد النعاس فقد طاب انضواع المدام والآسي

قلت لها: فابتدي وهاتي فما حضرت منها فإنني حاسي

قالت: فدع عنك الاحتيال لما أردت شكري له وإنعاسي

●الحب عند الحسن ظاهرة إنسانية:

ولكن على الرغم من طغيان سمة العبث والمجون التي تعود لأكثر من سبب والإيغال أكثر في الحسية، لم يُغفل الحسن الحب كظاهرة نفسية فردية وليدة الشخصية الاجتماعية. لم يُغفل سحر الرعشة السامية إزاء الوجه الجميل والحُسن المتجدد في كل لمحة ترسلها عيون المحب الدنف، ومختلف مشاعر الأمل واليأس والسعادة والضجر والفرح والحزن التي تنتابُ الإنسان العاشق وهو يسير على دروب الحب المحفوف بالشوك والصبر والألم، وفيه نعيم وعود الحبيب وعطفه ووفائه ومواتاته.

قال[180]

إذا أنت لم يدْعُ الهوى فتجيبه ولم تأته طوعاً خرجت بلا وطَرْ[181]

وخلّفك الإيقاع تطربُ سادراً وصرت كنغم تاه في الحلق لم يُدر[182]

وما فوق ظهر الأرض أنعم عيشةً وأعرضُ دُنيا من مُحبٍ إذا اقتدر[183]

فإن قُلت في الحبِّ الشقاوة والبلا وفيه مقاساةُ المكاره العِبَرْ[184]

ففيه مواتاةُ الحبيب وعطفُه عليك وفيه الشمُّ والذوقُ والنظرْ

لم يُغفل الحسن أهمية الحب في حياة الناس كظاهرة إنسانية تمثل مفتاح الحياة وسرها السرمدي، ويفتح للإنسان أبواب الحياة العريضة ليدخل منها ويمارس إنسانيته

١٨٠- المصدر السابق، ص٣٨٩

١٨١- الوطر: المأرب والحاجة والمراد. بلا نصيب من شيء.

١٨٢- الإيقاع: التنغيم وموافقة ألحان الآلات للغناء. سادراً: متحيراً.

١٨٣- يقول أن الحب المقتدر هو الذي يملك ناصية حبه. وإذا ما ملك فهو أسعد رجل في الدنيا

١٨٤- مقاساة: من قاسى يقاسي، أي عاني معاناة.

وحريته الحقة. لأن المحبة الصادقة والرؤية المتفائلة في نظره يساعدان في التغلب على ظروف الحياة وعلى اعتلاء صروف الدهر وعدم إضاعة الأيام بالمخاصمات والمهاترات، بالبغضاء والشحناء.

ولما كان الحب في نظره سر جمال الحياة رأى أن معانقة الجمال الحق «اليقين» في الخمرة الأنثى التي دقَّ معناها عن الفهم وعجز الطرف عن رؤية فيض نورها فرجع كليلاً حسيراً لا يمكن أن تُنجز إلا من خلال الرؤية الحقة التي هي رؤية القلب لا العين فقط. وإذا ما رأى القلب مع العين تجلي الجمال الحق وأمسك بالمفتاح الصحيح للوصول إلى اليقين.

قال[185]

دقَّ معنى الخمر حتَّى	هو في رجم الظنون[186]
كلما حاولها الناظر	من طرف الجفون
رجعَ الطرفُ حسيراً	عن خيالٍ الزَّرجونِ[187]
لم تقُم في الوهم إلاّ	كذَّبت عينَ اليقينِ
فمعنى تدركُ مالا	يُستحرى بالعيون

ولما كان شعر الحب، شعر الفرح الكبير لدى الحسن قد تواصل مع شعره الخمري وارتبط به ارتباطاً عضوياً. وهذا ما سوف نتوقف عنده ونتوسع بذكره في فصل الخمرة النواسية. رأى بصراً وبصيرة أن خمرته الإلهية المحتد التي تذوب النفس فيها توقاً إلى التطهير والخلاص تتلألأ بهاءً ونوراً مسطاعاً لتنير دروب الحب، ومسالك الوجد، وتُفضي من خلال الشجون والمواجع، من خلال فيضها الإشراقي إلى الولع المجنون بمن نُحبُّ، إلى عالم البوح بأسرار المعرفة، إلى فرح الحب الكبير... فرح اكتشاف اليقين.

كما رأى أن معانقة الحبيب المقرطق، البديع المعلل الذي يلوح وجهه البدري من

١٨٥- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٤٧

١٨٦: الرجم: الغيب

١٨٧- حسيراً: كليلاً منقطعاً. الزرجون: الشراب الذهبي معربة عن الفارسية.

خلال السحاب[188] وهو يدير كؤوس الحب المترعة بالحكمة واليقين، ويزرع رياض الحياة بأفواف الزهور وأنوار الخمائل، ويزوِّدُ حساسينها بزوادة الفرح. ليهب البهجة والغبطة والصفاء، ويعكس في نفس المحب، في نفس الإنسان نور المحبة الأسمى، ويبعث فيه الحرارة والدفء، ويفتح له أسباب الخير ويعصمه عن الشر، ويدخله محراب الحب المقدس الذي يحوي كل شيء ويسمو على كل شيء. لأن الحب هو الأصل، لأن الحب هو المبتدأ، لأن الحب هو الغاية، لأن الحب هو المنتهى.

قال الحسن[189]:

فالحب فوقي سحابٌ	والحبُّ تحتي سيولُ
وللصبابة حولي	مدينةٌ وقبيلُ
وللحنين بقلبي	محلّةٌ ومقيلُ
وليس حولي إلا	رياحُ حُبٍّ تجولُ

وفي الختام نرى أن شعر الحب عند الحسن يمثل بشكل عام عنوان النضج في شعر الغزل لديه، وما ذلك إلا لأنه شعر متح بل غرف من شاعرية أصيلة لامست مشارف المدى الأسمى لدروب الحاضر والمستقبل اللاحبة والمتوهجة بتاراتها الداعية إلى الأجمل والجديد.

شعر نهل من ثقافة متنوعة أكدت على إنسانية الإنسان وسُمُوّ تطلعاته إلى الرغيد والآمن والمتحرر من كل قهر واستلاب. شعر اعتمد فيه على تجربته الفنية الرائدة والغنية، وعلى شخصيته المتفردة وسمُوِّ خياله، وخصب مشاعره، ودقة تصويره، ورهافة ذوقه

188- المقصود قول الحسن:

ومختلس القلوب بطرف ريم	وجيد مهاة بر ذي هضابِ
إذا امتُحنت محاسنه فأبدت	غرائب حسنه من كُلِّ بابِ
تقاصرت العيونُ له وأغضت	من اللحظات، خاضعةِ الرقابِ
له لقبٌ يليقُ بناظريه	بليغٌ، ليس يُعجم في الكتابِ
يُقال له "المُلِلُ" وهو عندي	كما قالوا، وذاك من الصوابِ
يُحلِّلنا بصافيةٍ ووجهٍ	كبدرٍ لاح من خلل السحابِ

ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، ص188

189- ديوان أبي نواس، الغزالي، مصدر سابق، ص386

كشاعر مُجيد إذا تكلف الشيء أحياناً أحسنه في أغلب الأحيان وأجاده إرضاءً لفنه الغزلي ومجونه وعبثه. ألم ينوه عن هذه الحقيقة حين قال(١٩٠):

أفنيتُ فيكِ معانيَ الشكوى	وصفاتِ ما ألقى من البلوى(١٩١)
جوّلتُ آفاق الكلام فما	أبصرتُني قصّرتُ عن معنى
وأعُدُّ ما لا أشتكي غُبناً	فأعود فيه مرةً أخرى
وإذا نجوتُ القلبَ فيكِ	وجدْتُك في الحشا أدنى من النجوى(١٩٢)
فلو أن ما أشكو إلى بشرٍ	لأراحني من ذِلّة الشكوى
لكنّما أشكو إلى حجرٍ	تنبو المعاولُ عنه أو أقسى
ظبيٌ بمبكاهُ ومضحكِهِ	فينا تنير وتُظلمُ الدنيا(١٩٣)



١٩٠- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٢٦٦

١٩١- يقول: أنه لم يدعي معنى من معاني الشكوى إلّا ذكره، لأنه استوعب كل صفات الشدائد التي واجهها في حبه لها.

١٩٢-- هذا البيت لم يدرج ضمن القصيدة المثبتة في ديوانه تحقيق الغزالي.

١٩٣- اختلف في نسبة هذه الأبيات لأبي نواس. والذي يرجح نسبتها إليه انها وردت في رواية الصولي في باب الغزل بالمؤنث، وكذلك في رواية الأصفهاني. وهي تجري على أسلوب الحسن في الغزل وتتضح بالنفس النواسي.

6 الخمرة النواسية

تغشيرُ عينيكَ دليلٌ على	أنكَ تشكو سهر البارحة[1]
عليكَ وجهٌ سيئٌ حالُه	من ليلةٍ بتَّ بها صالحة[2]
رائحةُ الخمرِ ولذّاتها	والخمر لاتخفى لها رائحة
وغادةٍ هاروت في طرفها	والشمس في قرقرها جانحة[3]
تستقدحُ العود بأطرافها	ونغمةٌ في كبدي قادحة[4]

«أبو نواس»[5]

ويقول الدكتور طه حسين معلقاً:[6]

«انظر الى هذه الأبيات التي لايشك قارئها أنها قيلت أمس أواليوم لأنها تصف شيئاً مما نحن فيه، وأحسب أنها ستظل جديدة على الدهر».

●الخمريون المتخصصون:

شعراء الخمرة عبر التاريخ الإنساني كثيرون... عدد نجوم السماء. يقفون أمام إله الخمر «باخوس» في رتل طويل سحيق يمتد عبر القرون. يحمل كل منهم كأسه المترعة وهي تتفاوت في الكبر والعمق تفاوت عشقه وعطشه ليعُبَّ من مجاج إكسيرها الخالد.

عجبي!! النبع يفيض ويفيض بطهور معسولة، والرتل الخشوع إكباراً وإجلالاً دائماً طويل، يوغل ويمتد عمقاً، وباخوس المهيب يُمجّد ويبارك، والعشّاق يزدادون أواماً،

١- تغشير عينيك: انكسارهما وتقارب مابين جفنيهما من تعب السهر والخمر.

٢- يقول: إن بقايا سهر الليل في العربدة والمجون على وجه المرء هو الصلاح، وبذلك يخالف عرف الأخلاق. وعندما يخالف واقع الناس ليظهر غباء أولئك الذين يحرصون على الظهور بمظهر الرصانة والتعقل، ويُعبر عن مأساة من لايهتدي إلى قرار أو يقين يرتاح إليهما في مجتمع منافق مزدوج الشخصية.

٣- القرقر: ظاهر الوجه وما بدا من محاسنه. يقول: إن طرفها ينفث السحر كهاروت، ووجهها مضيء كالشمس.

٤- تستقدح: قدح الزند: أورى به. قادحة: مشتعلة.

٥- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص١٥

٦- المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، المجلدالثاني، ص٤٢١

فلا من صدٍ يرتوي ، ولا من عاشقٍ يملُّ من التي قال عنها المفكر الإسلامي المتصوف وشاعر الخمرة والحب الإلهي عمر بن الفارض: [٧]

وَلا قبلَها قبلٌ ولابعدَ بَعْدِها ... وقَبْلِيةُ الأبعادِ فهي لها حتم[٨]

والأخصائيون بين عشاقها من شعراء العربية كما هو معروف ثلاثةٌأولهم: صناجة العرب أعشى قيس[٩] وسمي بذلك لكثرة مراودته مجالس الشراب والطرب وتغنيه في المرأة والخمرة والمتعة، والذي قيل إن الخمرة« حالت دون إسلامه لأنه لا يستطيع هجرانها »[١٠] وأن ضريحه تحول بعد وفاته إلى مقصد يحج إليه الفتيان يؤمونه ليشربوا عنده، ويصبون فوقه من كؤوس شرابهم.

وينقل الأستاذ سامي الكيالي حادثة طريفة روتها كتب الأدب يقال إنها السبب الذي حال دون إسلامه؟!

كتب الكيالي يقول:[١١]

ولما سمع هذا الشاعر السكير بظهور الديانة الإسلامية ورسالةمحمد وكان بعيداً عن مكة، ما كان منه إلا أن نظم قصيدةجديدة لا في الخمرة ، بل في مدح محمد، وركب ناقته وأخذ يقطع الفيافي لإعلان إسلامه . وبينا هو في الطريق لقيه بعض المشركين.

٧- ابن الفارض: هو أبو حفص عمر بن علي الحموي الشهير بابن الفارض. حموي الأصل مصري المولد والدار والوفاة. ولد في القاهرة عام١١٨١ للميلاد. ودرس الفقه والحديث وتردد مع أبيه على مجالس العلم والحكم. سلك طريق الصوفية فساح بوادي المستضعفين بالجبل المقطم، وبأودية مكة حيث قضى خمسة عشرة عاماً عاد بعدها إلى مصر ليموت فيها سنة١٢٣٥ ميلادية فدفن بالقرافة بسفح المقطم. له ديوان شعر أشهر مافيه قصيدته التائية الكبرى التي عُرفت بنظم السلوك وقد ضمنها سجل حياته الروحية، وعرض فيها مذهبه الصوفي. ثم الميمية في الخمرة أي المعرفة الإلهية ومطلعها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً ... سكرنا بها من قبل أن تُخلق الكرمُ

٨- ديوان ابن الفارض: طبع مكتبة القاهرة لعام ١٩٦٦، ص٨٩

٩- أعشى قيس : هو ميمون بن قيس بن جندل، ولقب بالأعشى لضعف بصره، من شعراء المعلقات، وأول من سأل في شعره فكان أول شحاذ عن طريق الشعر عرف في الأدب العربي. أدرك الرسول ومدحه بقصيدة مشهورة شكك فيها بعض المعاصرين. مات قبل أن يسلم بسبب تحفظه على تحريم الخمرة. لم تُعرف سنة ميلاده، ويُعتقد أنه توفي عام٦٢٩ ميلادية.

١٠- الرؤوس: مارون عبود، ص١٠٥

١١- خمر وشعر: سامي الكيالي، ص١٧

فقالوا له: إلى أين أنت ذاهب؟

فأخبرهم بأنه يريد محمد....

فقالوا خير لك أن لاتقابله...فإنه يأمرك بالصلاة.

فقال إن خدمة الرب واجبة.

فقالوا إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء...

فقال: اصطناع المعروف واجبٌ.

فقيل له: إنه ينهى عن الزنا.

فقال: هو فحش وقبيح في العقل وقد صرت شيخاً فلا أحتاج إليه.

فقيل له : إنه ينهى عن شرب الخمر.

هنا وقف قليلاً وقال: أما هذا فإني لاأصبر عليه ورجع في الحال.

ويعود الفضل للأعشى برأي معظم الكتاب والنقاد إلى أنه عاشق الخمرة الأمثل الذي وضع الخطوط العامة الكبرى لأدب الخمرة في الشعر العربي وألم بجميع شؤونها وأحوالها وألوانها وتشابيهها فضلاً عن الكأس والندامى والساقي والمجلس والبائع فكان المثال والهادي لمن لحقه من الشعراء الذين ساروا على هدي مارسم بعد أن أضافوا عمق تجاربهم وثقافتهم.

ومن أوصافه للخمرة قوله:[١٢]

وكأسٍ كعين الديكِ باكرتُ شربها	بفتيان صدقٍ والنواقيس تُضْربُ[١٣]
سلافٍ كأنَّ الزعفرانَ وَعندماً	يُصَفَّقُ في ناجودها ثُمَّ تُقطَبُ[١٤]

١٢- مختار الشعر الجاهلي: تحقيق وشرح محمد سيد كيلاني، المجلد الثاني، ص٢١٥

١٣- وكأس كعين الديك: أي صافية صفاء عين الديك، باكرت شربها في الصباح. بفتيان صدق: فتيان شجعان عرفوا بالشدة والصلابة والجلد.

١٤- السلاف: الخمر أو أجود الخمر. العندم: شجر له عروق حمر يستخدم في الصباغة. يُصفق: يصفى ويروق. الناجود: الإناء من الفخار. تُقطب: تمزج.

لها أرَجٌ في البيت عالٍ كأنما ألمَّ بِهِ من تَجْرِ دارينَ أرْكُبُ[١٥]

والثاني هو الأخطل[١٦] الشاعر النصراني اليعقوبي الكبير الذي كان يرتاد بشكل دائم مجلس الخليفة عبد الملك بن مروان، فيدخل عليه مجلسه وهو يترنح من شدة الشراب وصليبه يتدلى على صدره وحدث مرة أن تفاخر على الخليفة عندما أنشده:[١٧]

إذا ماندِيمي علَّني ثم عَلَّني ثلاثَ زجاجاتٍ لهُنَّ هديرُ
خرجتُ أجرُّ الذيل زهواً كأنني عليكَ أميرَ المؤمنين أميرُ

ومع ذلك لم يغضب الخليفة منه أو يعترض على شعره، أو حاول أن يعاقبه ، لا إكراماً لفنّ الشاعر وإبداعه ، بل لدوره الكبير كشاعر مسيّس دافع عن بني أمية وعن دولتهم، وروّج لسياستهم، وقصائده في مدحهم وهجاء أعدائهم تعد بحق نوعاً من الشعر السياسي الموجه لخدمة السلطة الأموية وأهدافها

كتب مارون عبود عن شعره الخمري يقول:[١٨]

«أتى على جميع ما قاله الأعشى وزاد عليه... وانتقل إلى وصف السكران فأجاد وأبدع جسَّد الخمرة ووهبها الحياة، ولما جاء دور شاربها أماته موتاً مؤقتاً فهو:

صريع مدام يرفع الشَرْبُ رأسه ليحيا وقد ماتت عظامٌ ومفصلُ

ويظل لواء شعراء الخمرة معقوداً للأخطل حتى يظهر أبو نواس فيستولي على الأمد».

١٥- الأرج: الرائحة القوية. تجر: تجار. دارين: موضع بالبحرين اشتهرت بتجارة المسك. أرْكُبُ: جمع ركب وهم المسافرون.

١٦- الأخطل: أبو مالك غياث بن غوث التغلبي. ولد في الحيرة أو بادية الشام حوالي عام ٦٤٠ للميلاد، وتوفي في ٧١٠ ميلادية. لقب بالأخطل لطول لسانه أو لارتخاء أذنيه. قدم دمشق واتصل بيزيد بن معاوية وبالخلفاء من بعده حتى غدا شاعر الأمويين، وعبد الملك بن مروان خاصة. ينصرهم بلسانه كما ينصرهم قومه بنو تغلب برجالهم. دخل الأخطل مع جرير في نقائض هجائية، كما تدخل بالخصومة بين جرير والفرزدق. وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين أجمع النقاد على تفوقهم في العصر الأموي وينفرد عنهم بوصف الخمرة. ديوانه ونقائضه مطبوعان. وديوانه كبير ومشهور. دون قصائده أبو سعيد السكري ومحمد بن عباس اليزيدي.

١٧- شعر الأخطل: صنعة السكري، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، المجلد الثاني هامش الصفحة ٧٥٥

١٨- الرؤوس: مارون عبود، الصفحات: ١٠٥ وما بعدها.

●الحسن يحمل لواء الشعر الخمري إلى الأبد.

استلم أبو نواس لواء شعر الخمرة ورفعه مجنحاً وإلى الأبد بعدأن أضاف إلى كشكوله جميع منتوجات الأخطل والأعشى والوليد بن يزيد [١٩] وكل شعراء الخمرة. ثم طوَّر في معانيه الخمرية وأعطاها أبعاداً أعمق متجاوزاً عالمه الحسي، مستخرجاً دقائق معانيه بعد أن بعث فيها الحياة وألبسها أردية جديدة انتزعها من خياله الخصب والواقع الراهن المتنوع الغني الذي ينم بدقة وجرأة عن سمات الحياة العامة في القرن الثاني للهجرة.

قال الحسن: [٢٠]

وكأسٍ كمصباح السماء شربتُها	على قُبلةٍ أو موعدٍ بلقاءِ
أتت دونها الأيام حتى كأنها	تساقطُ نورٍ من فتوق سماءِ
ترى ضوءها من ظاهر الكأس ساطعاً	عليك وإن غطيتها بغطاءِ

وقال أيضاً: [٢١]

---

١٩ الوليد بن يزيد: الخليفة الأموي الحادي عشر أبو العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ولد في دمشق عام ٨٨ للهجرة/ ٧٠٧ ميلادية. وقتل في بخراء قرب تدمر عام١٢٦ للهجرة/ ٧٤٤ ميلادية. وقطع رأسه وقدم إلى ابن عمه يزيد الناقص الخليفة الأموي الذي نُصّب بعده، بعد أن رُفع رأسه على رمح وطيف به شوارع دمشق.

كان الوليد شاعراً مبدعاً غزير الانتاج سهل اللفظ حلو النغمة رقيق العبارة اعتمد من بحور الشعر أخفها وألطفها وأشدها ملاءمة لحياة اللّهو والمجون. وقد أجاد في وصف الخمرة وأبدع كعاشق لها. له مقطوعات لها وحدتها الموضوعية والمعنوية تنبض بالحياة وتخفق بالخيال والسرور وتعبر عن تجربة الشاعر الخاصة وتخدم مواقفه في الحياة وتساعده على الاستمرار في حياته المليئة بالصراع والقهر. غير أن شعره الخمري كان نهباً للشعراء كما كان رائداً لهم.

كان الوليد جميلاً ذكياً شجاعاً نبيلاً، خفيف الروح جذاباً رقيق الذوق مرهف الشعور على شيء غير قليل من سوء السيرة خليعاً ماجناً ظريفاً حاذقاً بضرب العود والنقر على الدف. نُسبَ إليه عندما حجَّ أنه كان ينوي وضع قبة على الكعبة يشرب فيها الخمور؟ كما نسب إليه أنه مزق القرآن رمياً بالنبال وقال متوعداً:

أتوعد كل جبار عنيد	فها أنا ذاك جبارٌ عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشر	فقل يارب خرقني الوليدُ

وتذكر روايات أخرى أنه قتل وهو يقرأ القرآن ويقول: يوم كيوم عثمان؟

٢٠- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، ص٤٠٢.

٢١- المصدر السابق، ص١٣٩

غدوت على اللذات منهتكَ السّترِ | وأفضتْ بناتُ السرِّ مني الى الهجرِ
وهان عليَّ الناس فيما أريدُهُ | بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالي مُرصداتٍ لمُدتي | فبادرتُ لذّاتي مُبادرة الدهر
رضيتُ من الدنيا بكأسٍ وشادنٍ | تَحيرُ في تفضيله فِطنُ الفكرِ[٢٢]
مُدام رَبَتْ في حجر نوح يديرها | عليّ ثقيلُ الرِدف مضطمِر الخصرِ[٢٣]
صحيحٌ مريضُ الجفن مُدنٍ مباعدٌ | يُميتُ ويحيي بالوصال وبالهجر
كأنّ ضياء الشمس نيط بوجهه | وبدرُ الدُجى بين الترائب والنحرِ[٢٤]

ولم يقف النواسي عند إجادة وصفه للخمرة ودقة معانيه وبلاغتها وحسن تجسيد صوره لها. بل تعدى ذلك إلى ولع عشوق برحيقها ، فأربى بشربها على جميع عشاقها وأخدانها ولم يرتو له عطشٌ قال:[٢٥]

فشربنا شُرب قومٍ   عَطِشوا من عهدِ عادِ

وأدمن مجاج رحيقها فكان يشربها إذا أمسى ، ويشربها إذا أصبح ويشربها حتى ينسى، ويشربها حتى يخال الأخرون أنه فقد التمييز.

قال:[٢٦]

نشربُ الليل إلى الصبح صغاراً وكباراً

ونغني ما اشتهيناه من الشعر جهارا

أسقني حتى تراني   أحسب الديك حمارا

وربما عكف عليها ليله ويومه، وربما الأسبوع كلّه، لايتوقف عن تداولها إلاّ مضطراً، لاينصرف عن مجلسها إلا إذا أثقله النوم ونهنهه النصب.

٢٢- الشادن: الظبي إذا قوي وتبع أمه. ويريد به النديم.

٢٣- ربت في حجر نوح: نشأت فيه، ويريد بذلك أنها قديمة العهد. مضطمر الخصر: ضامرة

٢٤- نيط: علق. الترائب عظام الصدر أو مابين الثديين. النحر: أعلى الصدر أو موضع القلادة.

٢٥- ديوان أبي نواس: /الغزالي، مصدر سابق، ص٦٤

٢٦- المصدر السابق، الغزالي، ص٢٠٤

قال:(٢٧)

اشربْ- فُديتَ - علانية   أمّ السر زانية

اشرب لحديثك واسقني   حتّى أنام مكانية

لاتقنعّن بسكرة   حتى تعود بثانية

وفي صوت مرتفع واضح النبرات لالبس فيه ولاغموض ، حدد بفخر واعتزاز انتماءه إليها.

قال:(٢٨)

أنا ابن الخمر مالي عن غِذاها   إلى وقتِ المنيّة من فِطامِ

أُجلُّ عن اللئيم الكأس حتى   كأنَّ الخمر تُعصَرُ من عظامي

وأسقيها من الفتيان مثلي   فتختالُ الكريمةُ بالكرامِ

أجل لقد اختال وندمانه فخراً بها، واختالت هي فخراً بهم واختالوا معاً ما شاء لهم عشقهم أن يختالوا زهواً وكبراً بين كرومها ومعاصرهاوفي حاناتها وعلى مرابع أنسها.

قال:(٢٩)

مسارحها الغربيُّ من نهر صرصرٍ   فقُطْرُ بُلٍّ، فالصالحية، فالعقْرِ(٣٠)

لذلك اعتبر شاعرها الأول والأخير بلا منازع، لأنه العاشق الأوحد الذي تفرد في حسن مداعبتها، وكريم معاشرتها، وتفوق على جميع عشاقها ومدنفيها من الأقدمين والمعاصرين، واقترن باسمه وبشعره أثيل مجدها وإلى الأبد.

٢٧- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ١٣٦

٢٨- الفكاهة والايتناس في مجون أبي نواس، الصفحة: ٦١

٢٩- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة:١٠٢

٣٠- مسارحها: مواطنها، مراعيها. الغربي: يريد بالشاطيء الغربي لنهر دجلة. صرصر: قريتان ببغداد عليا وسفلى. قطرُ بُلّ: موضع تنسب إليه الخمرة، الصالحية: قرية في الرها، ومحلة في بغداد. العقر: موضع قرب الكوفة وهذه المواضع التي ذكرها جميعها تشتهر بزراعة العنب، وجودة الخمر، وبخماراتها وأماكن اللّهو والتصف فيها.

كتب الدكتور طه حسين يقول:(٣١)

«.. ولكنه امتاز ممن سبقه ومن عاصره ومن لحقه، وظلَّ زعيم القدماء، وزعيم المحدثين في الخمر والغزل والمجون».

●الخمرة أنثاه المعبودة وبيت أسراره:

لقد نظر الحسن إلى الخمرة على أنها الأنثى التي يفضل، الأنثى التي يريد، بل اعتبرها معبودته العشوق وفاتنته اللعوب، فحاورها كفارس عاشق ملَّوع مأخوذ، وحاورته بسحرها ودلِّها وتوهجها حاول أن يخضعها أن يصرعها فصرعته بعد أن أسرته بفتنتها ومكامن سحرها فخرَّ مستسلماً بين يديها

قال:(٣٢)

بـالـيـلـةً يـبـثُّـهـا أسـقُـاهـا	ألـهـجَنَي طيبُها بذكراها(٣٣)
نـأخـذهـا تـارةً، وتـأخُـذُنـا	موتورةً نقتضي، ونبداها(٣٤)
نـغـلـبـهـا أولاً، وتـغـلـبنا	فنحن فرسانُها، وصرعاها

أجل لقد خرَّ صاغراً بين يدي عروسه التي ترعرعت في مهاد النعيم ومسارح الترف«ربيت في النعيم بعد النعيم»(٣٥).عروسه التي يداري ويدلل لأنه العليم الأعلم بشمائلها، وخبيرها الدهقان الأكبر بطباعها وخصالها، فصدقه فما ينطق عن هوى.

قال:(٣٦)

هي العروس إذا داريت مزجتها	وإن عَنُفْتَ عليها أختُ شيطانِ

٣١- المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين. مصدر سابق، المجلدالثاني، الصفحة: ٣٩١

٣٢- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٨

٣٣- أسقُاها: أسقى فيها. ألْهجني: أغراني

٣٤- نقتضي: أن نطلب ما نريد منها. ونبدأها بالشرب، خفف الهمزة.

٣٥- ديوان أبي نواس، الغزالي، مصدر سابق، الصفحة ١٧٥ المقصود قوله:

فـهـي فـيـه عـروسُ خِـدرٍ ولكـن	ربيت في النعيم بعد النعيم

٣٦- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١١٤

تنزو جنادبها في وجه شاربها مثل الدُّبى هاجهُ طَشّ بقيعانِ[٣٧]

فهي «صديقة الروح»[٣٨] وشقيقتها الفاتنة التي لها يناجي وإليها يتحدث ويُفضي بهمومه وأوجاعه، بصفتها منبعاً للنقاء والصفاء ووسيلة للخلاص من عالم قاتم قبيح سقيم، علّها تريح نفسه، وتهب روحه الطمأنينة، وتحمله إلى مواطن أسراره ومبعث بوحه، ومصدر إلهامه ونشوته ليلتقي مع مواجده وأشواقه لأنها الداء وهي الدواء.

قال[٣٩]

عاذلي في المدام غيرَ نَصيح لا تلمني على شقيقة روحي[٤٠]

لاتلمني على التي فتنتني وأرتني القبيح غير قبيح

قهوةٌ تترك الصحيح سقيماً وتُعير السقيم ثوب الصحيح[٤١]

بل هي شقيقة روحه الثانية التي تتوهج في جسده بلظى الأمل والنشوة.

قال:[٤٢]

مازلت أستَلُّ روح الدَّنِ في لُطفٍ وأستقي دمه من جوفِ مجروحِ[٤٣]

حتى انثنيتُ، ولي روحان في جسدٍ والدنُّ منطرحٌ جسماً بلا روحِ[٤٤]

يبثّها أحزان نفسه وأشواق روحه لعلّ الغمّ ينقشع، والهموم تتوارى، والأتراح تزول.

٣٧- تنزو: تثب. الجنادب الجراد. الدبي: أصغر الجراد. الطش: المطر الخفيف. القيعان: الأرض السهلة. يشير إلى الفقاقيع التي تثب من الكأس عند انفجارها ساعة المزاج.

٣٨- المصدر السابق: الغزالي، ص٧٥ المقصود قوله:

لاتخدعنّ عن التي جُعلتْ سَقَمَ الصحيح، وصحّةَ السُقْمِ
وصديقة الروح التي حُجبتْ عن ناظريك وقيّم الجسمِ

٣٩- المصدر السابق: الغزالي، ص٢٤

٤٠- عاذلي: لائمي، غير نصيح: غير ناصح

٤١- يريد بالصحة التي تعير للسقيم ما تهبه له من النشاط والحركة وإشعاره بالقدرة على التحدي.

٤٢- المصدر السابق، الغزالي، ص٩٢

٤٣- مازلت أستل: أنتزع في رفق. دمه: الخمرة التي فيه. مجروح: مثقوب.

٤٤- انثنيتُ: رجعت. قوله جسماً بلا روح: خلو الدّن من الخمر التي هي روحه.

قال:[45]

أديرا عليَّ الكأس بنقشع الغمّ ولا تحبسا كأسي ففي حبسها إثمُ[46]

لعلَّ مركبه يقلع بتوقه الغامر إلى عالم الإنعتاق والحرية والضوء والنقاء.

قال:[47]

إذا خَطَرتْ فيك الهموم فداوها بكأسكَ حتى لاتكون همومُ

أدرها وخُذها قهوةً بابليةً لها بين بصرى والعراق كروم

وما عرفتْ ناراً، ولاقدر طابخ سوى حرِّ شمسٍ إذ تهيج سمومُ[48]

لها من ذكيّ المسك ريحٌ ذكيةٌ ومن طيب ريح الزعفران نسيمُ

فشمرتُ أثوابي وهرولت مسرعاً وقلبي من شوق يكاد يهيمُ

وقلتُ لملاحي«ألاهيَّ زورقي» وبتُّ يُغنيني أغَّ ونديمُ[49]

ورحتُ بها في زورق قد كتمتُها ومن أين للمسكِ الذكيّ كُتومُ

إلى فتية نادمتهم فحمدتُهم وما في الندامى- ماعلمتُ - لئيمُ

فمتعتُ نفسي والندامى بشربها فهذا شقاءٌ مرَّ بي ونعيمُ

لعلَّ مركبه يمخر مبتعداً عن أشتات عيشه، محلقاً فوق عميق اغترابه حيث لا هموم ولا أتراح، حيث يلتقي الأحباب وتتشابك الأوصال.

قال:[50]

صفراءُ تسلبكَ الهموم إذا بدت وتُعيرُ قلبك حُلَّةَ السَّراءِ

٤٥- المصدر السابق، الغزالي، ص١٠٤

٤٦- بنقشع: ينكشف. لاتحبسا: لاتمنعا. إثم: ذنب.

٤٧- المصدر السابق، الغزالي، ص١٣١

٤٨- السموم: الريح الحارة.

٤٩- هيّ: هيء.

٥٠- ديوان أبي نواس: الغزالي، ص٧٠٢

كتب المزاج على مُقدَّم تاجها   سطرين مثل كتابةِ العُسراءِ[٥١]

نمَّتْ على نُدمائها بنسيمها   وضيائها في الليلة الظَّلماء

قد قلتُ حين تشوَّفتْ في كأسها   وتضايقت كتضايقِ العذراءِ[٥٢]

لابدَّ من عضِّ المراشف فاسكني   وتشبُّكِ الأحشاء بالأحشاءِ

وتتمتع أنثاه العشوق، خمرته بصفات الفرادة لأنها إلهية المحتد ومن كان إلهيَّ المحتد فهو متفرد الصفات وجدير بالعبادة والتقديس. لذلك فعندما يتحدث عن خمرته الأنثى يتحدث حديث الوثني عن وثنه ، ويثني عليها وينزهها تنزيه العابد لمعبوده، ويحرص على أن يُسمعها أطيب ما تحب أن تسمعه عن شؤون قلبه المولّه العميد بحبها. يحرص أن يُسمعها وهي التي « تَجِلُّ عن المديح»[٥٣] ما لايرتقي إليه شك من نجوى وتراتيل تُسبح بأثيل مجدها وتتغنى بأحسن أسمائها.

قال:[٥٤]

أثنِ على الخمرِ بآلائها   وسمِّها أحسنَ أسمائها[٥٥]

دارت فأحيت غير مذمومةٍ   نفوسُ حسراها وأنضائها [٥٦]

ألا تذكرنا هذه الأبيات كما يقول الدكتور طه حسين[٥٧] بقوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[٥٨] أو بالآية التي تقول: ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾.[٥٩]

٥١- العسراء: الأعسر الذي يعمل بيده الشمال

٥٢ تشوَّفتْ: تزينت. أو تطلعت ونظرت وأشرفت.

٥٣- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ١٦٤ المقصود قوله:

وقام بمنزلٍ فاقتضَّ بكراً   عجوزاً قد تَجِلُّ عن المديح

٥٤- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ١٣

٥٥- أثن: من الثناء. الآلاء: النعم. وهذا يدل على مقدار ما وصل إليه الحسن من تقديس للخمرة وعبادتها. نجعل لها نعماً تستحق الثناء وأسماء حسنى يختار أحسنها ليطلقه عليها.

٥٦- الأنضاء: جمع نِضو، وهو المهزول من العشق

٥٧- المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، مصدر سابق المجلد الثاني، الصفحة: ٤٠٦

٥٨- سورة الأعراف: الآية رقم:١٨٠

٥٩- سورة طه: الآية رقم: ٨

وبشكل دؤوب يؤكد الحسن أن خمرته العشوق هي أنثاه المروم وبكل ماتعني كلمة أنثى من معانٍ وصفات ودلالات. لأن الأنثى هي الأنثى أماً كانت أم حبيبة، عجوزاً كانت في خبرتها وحنكتها وحسن فهمها وتقديرها، أم عذراء شابة في حسن دلها وخفرها. وخمرته هي كل ذلك هي الأنثى الأم التي أرضعته دَرّها[٦٠] لأنها أمه «وأمي العنبُ»[٦١] بل قل هي بنت الدهر[٦٢] وأم الأيام « عجمتها السنون والحقب»[٦٣]

قال:[٦٤]

رضعت والدهر شديا ... وتعلمته في الولادِ

وهي العجوز والعذراء في آن واحد. عجوز تقادم عهدها«وذخرت لآدم قبل خلقته»[٦٥] وعذراء بكرٍ لسورتها.

قال:[٦٦]

تُفتَضُّ بكراً عجوزاً زانها كِبَرٌ ... في زيِّ جارية في اللّهو ملحاحِ

بل هي الأنثى العِرْضُ التي يحرِصُ على سمعتها وشرفها عندما اعتبر القناني والكاسات والدنان حرماً يجب الحرص عليهن حرص الإنسان على ما يدعوه الناس شرفاً وعرضاً.

٦٠- ديوان أبي نواس، الغزالي، مصدر سابق، الصفحة رقم: ٤، المقصود قوله:

تُرضعني دَرّها وتلحفني ... بظِلّها والهجيرُ يلتهبُ

٦١- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة رقم: ٤، المقصود قوله:

تُطرُ لِلّ مربعي ولي بقرى الكرخ مصيفٌ وأمي العنبُ

٦٢- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: رقم: ٨ المقصود قوله:

كان لها الدهرُ من أبٍ خلفاً ... في حجره صانها وربّاها

٦٣- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: رقم: ٤ المقصود قوله:

حتى تخيَّرتُ بنت دسكرة ... قد عجمتها السنون والحقبُ

٦٤- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٢٤

٦٥- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٤٢ المقصود قوله:

ذُخرت لآدم قبل خلقته ... فتقدمته بخطوة القُبَلِ

٦٦- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ١٠٩

قال:[٦٧]

أبِنْ لي كيف صِرْتَ إلى حريمي ... وجَفنُ الليل مكتحلٌ بقارِ

الأنثى التي يُضنُّ بها ولا يُفرط فيها إلا لمن كان أهلاً لها من الخطاب، حيث لها شروط تفرضها على خطابها ، كما جاء في قصيدة له مطلعها:

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرُها ... بالرّطل يأخذ منها ملأه ذهبا[٦٨]

في هذه القصيدة يجري الحسن حواراً بارعاً لم يُسبق إليه، يعرفنا من خلاله على الخُطّاب الذين يجوز لهم أن يتقربوا منها، ويمكن أن تختار منهم، وعلى الذين لايجوز لهم أن يتقربوا منها ولاتقبل بهم خطاباً.

يعرفنا على خُطابها من العرب الكرام[٦٩]. فلن تكرم الكريمة إلاّ بسقاتها الكرماء[٧٠] بـ «فتيان صدق»[٧١] «كمصابيح الدجى»[٧٢] بدء التحية بينهم «نظر النديم إلى النديم»[٧٣] لن تكرم الكريمة السامية المحتد ذات المناسب العريقة إلاّ بفتية«دان الزمان لهم»[٧٤] تخطر وإياهم بين منازهها في قُطْرُبُّلٍ وبنّى وطيرنا باذ وكلواذي وعانة والكرخ

٦٧- ديوان أبي نواس: الغزالي، الصفحة ٧٧

٦٨- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٩١

٦٩- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٩٢ والمقصود قوله: « ولكن أسقني العرباء.

٧٠- المصدر السابق، الصفحة: ١٤٤ المقصود قوله:

ولاتسقِ المدام فتىً لئيماً ... فلستُ أُجِلُّ هذي للئيم

لأن الكرمَ من كرمٍ وجُودٍ ... وماء الكرم للرجل الكريم

٧١- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ١٢٤ المقصود قوله:

وأحور ذميٍّ طرقت فناءهُ ... بفتيان صدقٍ ما ترى منهمُ نكرا

فقلتُ له: جئناك نبغي لهوةً ... معتقة قد أنفذت قدماً دهرا

٧٢- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٣٨، المقصود قوله:

وفتيةٍ كمصابيح الدُجى غُرَرٍ ... شُمّ الأنوف من الصيد المصاليت

نادمتهم قرقف الإسفنط صافيةً ... مشمولة سُبيت من خمر تكريت

٧٣- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ١٣٢، المقصود قوله:

بدءُ التحية بينهم ... نظر النديم إلى النديم

٧٤- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٦، المقصود قوله:

دارت على فتية دان الزمانُ لهم ... فما يُصيبهم إلاّ بما شاؤوا

وهيت..[٧٥] وتشمخ محلقة تتبختر في السماء من كوكب إلى كوكب[٧٦] وتحلُّ في أبراج الشمس[٧٧].

قال:[٧٨]

خطبنا إلى الدهقانِ بعضَ بناتهِ	فزوَّجَنَا منهُنَّ في خدره الكبرى[٧٩]
ومازال يغلي مَهرها ويَزيدهُ	إلى أن بلغنا منه غايته القُصوى
وحيقاً أبوها الماء والكرمُ أمُّها	وحاضِنُتهاحرُّ الهجيرإذا يَحْمى
يهوديةُ الأنساب مسلمةُ القرى	شآميةُ المغدى ، عراقيةُ المنشا[٨٠]
مجوسيةٌ، قد فارقت أهل دينها	لبغضَتِها النارَ التي عندهم تُذكى
رأت عندنا ضوء السراجِ فراعَها	فما سكنت حتى أمرنا به يُطفى
إذا ما علاها الماءُ خِلتُ حَبابها	تفاريقَ دُرٍّ في جوانبها شتىّ
فتزدادُ عند المزج طيباً كأنها	إشارةُ من تهوى إلى كُلِّ ما تهوى

لن نكرم إلاّ بالذي تحبه وتختاره وهي الأنثى اللعوب العروس التي خلقت للنكاح[٨١] لها قلب يحب ويعشق، يرفض ويكره، ترضى بالزواج من الحبيب فتستلين له وتخضع.

٧٥- أسماء لأماكن وقرى اشتهرت بجودة خمرها وخماراتها ومنازهها وأماكن القصف والتبطل فيها.

٧٦- ديوان أبي نواس، الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١٨٧، المقصود قوله:

كؤوسٌ كالكواكب دائراتٌ	مطالعها على الفلكِ الأديمُ

٧٧ المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٣٦، المقصود قوله:

جاءت كشمس ضُحىً في يوم أسعْدها	من بُرجِ لهوٍ إلى آفاق سراءِ

٧٨- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ١١٨ وما بعدها.

٧٩- الدهقان: التاجر أو زعيم فلاحي العجم. بعض بناته: يريد الخمرة.

٨٠- يهودية الأنساب: أغلب من يقوم بعصرها وتعتيقها وبيعها من اليهود. مسلمة القرى: لأن كرمها يزرع غالباً في بلاد إسلامية. شآمية المغدى: تصدر إلى الشام. عراقية المنشا: منشؤها العراق.

٨١- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٣٢٢، المقصود قوله:

وصفراءَ طولُ الدهر فيها يزيدها	إذا شجَّنها صوفاً بماء غوادِ
كأن الذي تبديه عند نكاحها	وما تحمله منها عيونُ جرادِ

قال:[٨٢]

لها في الكأس لينُ عروس خِدْرٍ   وفيها للسرور رحى تدومُ[٨٣]

وإذا راودها من لاتوده وتحبه وترضاه، أبت ورفضت وأطلقت عليه سهاماً لاتجرح، ولاتشج الهامات.

قال:[٨٤]

خندريسٌ كأنها كلُّ طيبٍ   زوّجوها وليس تهوى الزواجا[٨٥]

فرمت أوجُهَ الندامى بنبلٍ   ليس يُدمي وليس يبدي شِجاجا[٨٦]

هكذا تبدو ظاهرة تخيل الخمرة أنثى عند الحسن، وخلعه عليها صفات الأنوثة ظاهرة واضحة إن لم تكن طاغية في خمرياته . وهي دليل واسم الدلالة لا لبس فيه على أصالة حب الأنثى لديه وعميق ارتباطه الوجداني أو الجنسي فيها. وإلاّ ما معنى قوله في الأبيات التالية.

قال الحسن:[٨٧]

فالخمر ياقوتةٌ والكاس لؤلؤةٌ   من كفِّ جارية ممشوقة القدِّ

تَسقيك من عينها خمراً ومن يدها   خمراً فما لك من سُكرين من بُدِّ

لي نشوتان، وللندمان واحدةٌ   شيءٌ خُصصتُ به من بينهم وحدي

٨٢- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ١٥٨

٨٣- تدوم: تتحرك في سكون كما يفعل الطائر حين يطير بجناحيه من غير أن يحركهما.

٨٤- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق الصفحة: ١٦٣

٨٥- الخندريس: من أسماء الخمر. زوجوها: يريد مزجوها بالماء فجعل اختلاط الماء وامتزاجه بها كاختلاط الزوج بزوجه وامتزاجه بها كما قال:

تــزوج الخمــر مــن الماءِ لــي   طاسات تبرٍ، خمرها يَقْهَقُ

ديوان الحسن، الغزالي، الصفحة: ١٥٧

٨٦- يصف ما يتطاير عند المزاج من رشاش، وما ينفجر من نفاقيع فيصيب أوجه الندامى بالسهام التي لاتدمي ولاتجرح.

٨٧- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٢٧

فهو يقرن النشوة التي تولدها الخمرة بالنشوة التي تولدها المرأة فينتشي مرتين، مرة بالخمرة ومرة ثانية بالمرأة وفي كلا الحالين تبقى نشوته النواسية من الخصوصية حيث لاتشابهها نشوة؟!.. وهذا يشير إلى تساوق حاسته الجنسية وحاسته الفنية الجمالية وانسجامها إنسجاماً رائعاً في معظم خمرياته، حيث تتزاوج في شعره الخمري مباهج الحاستين معاً في وحدة متكاملة الأسباب والجوانب.

قال:[٨٨]

وذاتِ خَــــدٍّ مُـــــوَرَّدْ فــتــنــانــةِ المُتـــجـــرَّدْ
فــاشــرب عــلــى وجــه بــدرٍ ريّــان غــيــرَ مُــعــربــدْ

●النكهة النواسية لاتقلد:

وطعَّم الحسن خندريسه بنكهة متميزة فريدة حولتها إلى خمرة من نوع خاص خمرة نواسية بامتياز غير قابلة للتقليد. خمرة يراها الحسن ويريها لنا كما يراها هو بعينه وبروحه وبوجدانه.

كتب ابن منظور يقول:[٨٩]

«كان أبو جعفر محمد بن موسى المنجم يقول:ماأعجب أبا النواس إذا قال: كأنك أو فكأنك، فكأنك ترى ما يقول. ثم سكت ملياً وقال: أخزاه اللّه

فقلنا: ماله؟

فقال:حيث يقول.

تـطّـلـع فـي المرآة فـقـال إيـهـاً هي الشمس العي لاشك فيها
أنا واللّه أصلحُ لـلـمـعـاصـي إذا أهـل الـذنـوب تـقـارفـوهـا»

فالخمرة بعينه ذات نور لايخبو لها بريق فهي كالشمس وساقيها مثل البدر[٩٠]، بل قل هي شمس المدام وساقيها شمس الجمال.

٨٨- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٢٣٢

٨٩- مختار الأغاني لابن منظور، المجلد الرابع الصفحة: ٣٠٢

٩٠- خمريات أبي نواس: الدكتور علي نجيب العطوي، الصفحة: ١٩٩، المقصود قوله:

يُدير علينا الشمس والبدر حولها فيا من رأى شمساً بدور بها بدرُ

قال:[91]

شمسُ المدام بكفِّه وبوجهه   شمس الجمال فبيننا شمسان

وبُريها لنا دائماً ونورها الخالد يزغرد من أفق كأسها بضحكة الفرح فيدحر عسس العتمة وجند القهر ويبقى متلألئاً مسطاعاً

قال:[92]

لاينزل الليل حيث حلَّتْ   فليلُ شرّابها نهارُ

أو يحولها إلى زبرجد متألق برائع الأضواء عندما يمزج رحيقها فتتولد لؤلؤات شبيهات بواوات وأنوار بلطافة قوس قزح وهسهسة البريق تضيء قناديل الواقع الراهن.

قال:[93]

رَقَّتْ عن الماء حتى مايلائمها   لطافة وجفا عن شكلها الماءُ

فلو مزجت بها نوراً لمازجها   حتى تولَّدَ أنوارٌ وأضواءُ

لأن خمرة الحسن – تعني دائماً وأبداً- نبعاً للأمل المروم، وملاذاً من حالك اليأس الظلوم، ورفيقاً يعتمد عليه لمواجهة قسوة الناس والأيام.

قال:[94]

لاتخشعنّ لطارق الحدثان   وادفع همومك بالشراب القاني

فإذا الهموم تعاورتك فسلُّها   بالراحِ والريحان والنُدمانِ[95]

خمرة عندما يتذوقها ينقل إلينا نُعمى ما تذوق وما نهل هو من رحيقها[96]. ينقل

٩١- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة:١٩٥

٩٢- خمريات أبي نواس: مصدر سابق، الصفحة: ١٦٧

٩٣- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٦

٩٤- خمريات أبي نواس، مصدر سابق، الصفحة: ٤١٥

٩٥- تعاورتك: تبادلتك وتجاذبتك.

٩٦- المصدر السابق، الصفحة: ١٤٥، المقصود قوله:

لاتعذلا في الراحِ إنكما   في غفلةٍ عن كُنه ماتُسدي

مامثل نعماها إذا اشتملت   الا اشتمالُ فمِ على خدِّ

إلينا طيب ما نهل روائع ما تذوق من فتيت المسك ونكهة التفاح.قال:[٩٧]

صهباءُ صافيةٌ تجديك نكهتها تنفُس المسك ملطوخاً بتفاحِ[٩٨]

وعندما ينتشي بأريج عبيرها يُسكرنا معه بنشوة هذا العبير المعجز الذي يكشف عرفه لنا منابع الحسن والفتنة وجمال الدنيا وروعة الوجود وبهاء الطبيعة وأريجها المعطار. حيث تحلو الطبيعة،ويفوح الطيب ويطوب الخمر ويتألق الساقي.

قال:[٩٩]

ألا فاسقني مسكيَّةَ العَرفِ مُزَّةً على نرجسٍ تعطيكَ أنفاسها الخمرِ[١٠٠]

عيون إذا عاينتَها فكأنما دموعُ الندى من فوق أجفانها دُرّ[١٠١]

مناصِبُها بيضٌ وأجفانها خُضرٌ وأحداقها صُفرٌ وأنفاسها عِطرُ[١٠٢]

بروضةِ بستانٍ كأن نباتها تفتَّعَ وشياً حين باكرها القطرُ[١٠٣]

يديرُ علينا الشمس والبدرُ حولها فيا مَنْ رأى شمساً يدورُ بها بدرُ[١٠٤]

وإذا ما انتشى حلّقَ في أجواء نشوتها، وطلب مِنّا أن نحلّق معه ونسمو... ليرينا ما يرى ونسمع ما يقول:

قال:[١٠٥]

٩٧- ديوان أبي نواس، الغزالي، المصدر السابق، الصفحة:١٠٨

٩٨- تجديك: تعطيك. نكهتها: رائحتها.

٩٩- خمريات أبي نواس، مصدر سابق، الصفحة: ١٩١

١٠٠- العَرف: الرائحة الطيبة.

١٠١- يشبه النرجس بالعيون، وقطرات الطلّ على حواقه بالدُّر. عاينتها: شاهدتها.

١٠٢- المناصب البيض: بمعنى المنصَب الذي يوضع عليه القدر أبيض لم تمسّه النار لأن خمرته ليست مطبوخة لذلك منصبها أبيض اللون.

١٠٣- الوشي: الثوب المنقوش. القطر: المطر. يشير إلى الأزهار التي انتشرت في الروض مختلفة الألوان بعد المطر.

١٠٤- الشمس: الخمر. والبدر الساقي

١٠٥- خمريات أبي نواس: مصدر سابق، الصفحة: ٥٤

جفا الماءُ عنها في المزاج لأنها خيالٌ لها بين العظام دبيبُ[١٠٦]

إذا ذاقها من ذاقها حَلِّقت به فليس له عقلٌ يُعَدُّ أديبُ[١٠٧]

وإذا ماسمونا محلقين إلى تلك الآفاق بجناحيْ عابد الخمرة ونحن نردد معه تراتيل وجده الخمري وأهازيج مواجع عشقه، تملكتنا قشعريرةٌ وجدٍ تنوء بالمواجع والمواجد، لاتلمس ولايعبر عنها إلاّ «بحسِّ غريزة العقل»[١٠٨] حيث يمتزج الإحساس فيها بالفكر والروح، وتذوب النفس توقاً إلى التطهر والخلاص بفضل فيض رحيقها.

●هل الزمن النواسي نفق إلى المتقية؟!

إن خمرة الحسن تلعب بالزمن كأنها السحر الحلال فتقصّر عُمرَ الليل إن طال شربها[١٠٩] وتولد لدى حاسيها حساً تتساوى فيه أقسامه وأجزاؤه، فلا فرق بين اليل والنهار، ولافرق بين الساعات والأيام. قال:[١١٠]

تــتــشــمــرك المرء إذا مـــا ذاقـــهـــا يُـــرخـــي الإزارا

ويـرى الجـمـعـة كـالـسـبـتِ وكـالـلـيـل الـنـهـارا

بل تمنح شُرابها إمكانية السيطرة على الزمن واقتياد زمامه.[١١١] والزمن عند الحسن- بفضل رحيق خمرته- زمن عجيب غريب. زمن غير الزمن الأرضي. زمن رديف، زمن الحلم المشوق والأمل المرتجى. زمن النشوة والهيام، زمن المواجع والمواجد، زمن الضوء والشمس زمن لايعرف الليل، زمن لايعرف العتمة.

١٠٦- يقول: إن الماء على مابه من رقة وصفاء تقل في المزاج عليها لأنها شيء كالوهم. والدبيب: السير الخفي.

١٠٧- حلّقت به: ارتفعت به كالطائر حين يحلق في السماء.

١٠٨- ديوان أبي نواس، الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٤٣ المقصود قوله:

فــأنـــاك شـــيءٌ لاتـــلامِـــســـهُ الأبـــحـــسِّ غـــريـــزة الـــعـــقـــل.

١٠٩- الفكاهة والإيتناس في مجون أبي نواس، مصدر سابق الصفحة: ١١٢ المقصود قوله:

إذا طال شهرُ الصوم قصّرتُ طوله بحمراءَ يحكي الجلّنار احمرارُها

لتقصُرَ عمر الليل أن طال شربُها ويعملُ في عمر النهار خُمارُها

١١٠- ديوان أبي نواس: مصدر سابق، الصفحة: ١٢٢

١١١- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٦ المقصود قوله:

دارت على فتية دان الزمان لهم فما يصيبهمُ إلاّ بما شاؤوا

قال:[١١٢]

قال: ابغني المصباح، قلتُ له: اتئِدْ   حسبي وحسبُك ضوؤها مصباحا[١١٣]

فسكبت منها في الزجاجة شَربةً   كانت له حتّى الصباح صباحا

زمن ليس كالسيل يأخذ ويلغي، كالسيل يجرف ويمحو... بل يتهادى يتأود كتيار هادىء دفوق بمائه العذب القراح. كتيار ماء نمير يأخذ برفق ويستبقي لأجل قد يطول وقد يقصر، لكنه يوهب الحياة والخير ويحاول أن يسقي الحلم، يحاول أن يروي الأمل. زمن رديف يمنح الأشياء حضورها وقوتها وعمقها من خلال صهر ماضيها واستشفاف مستقبلها في حاضرها الذي لا يقنع من الراهن إلاَّ بمقدار مايبحث من خلاله ومن ورائه عن ما هو ممكن، عن ما هو يولد، عن ما هو مقبل، عن ما هو لذيذ.

قال:[١١٤]

إذا كانت بناتُ الكرم شُربي   وقبلةُ وجهيَ الحسنُ الجميلُ

أمنتُ بذين عاقبة الليالي   وهان عليَّ ما قال العذولُ

زمن يخلُقُ من أكثر الأشياء عتمة صفاءً رائعاً، ويولد فيها طاقة العطاء لعلَّ الواقع الراهن يغتني ويزدهر بالمعاني الجديدة.

قال:[١١٥]

وأشهى من معانقةٍ لقرنٍ   معانقة الصديقةِ للصديقِ[١١٦]

وأيسر من مباكرةِ الأعادي   مباكرة الحبيب لدى الشروقِ

وأشجى نغمةً من صوت طبلٍ   حنينُ الزير مع وتر نطوقِ

وأروحُ من طرادِ الخيل ركضاً   طرادُكَ كلَّ ميَّاسٍ لبيقِ[١١٧]

وأطيبُ من منازلةٍ لحربٍ   منازلةُ الدنان من الرحيقِ

١١٢- خمريات أبي نواس: مصدر سابق، الصفحة: ٩١

١١٣- ابغني: اطلب الي. اتئد: تأنَّ

١١٤- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١٨٤

١١٥- الفكاهة والائتناس في مجون أبي نواس، مصدر سابق، الصفحة: ٨٧

١١٦-القرن: القرين

١١٧- اللبيق: ذو اللباقة.

ورمي الحور بالتفاح نحوي	سوى رمي العدى بالمنجنيق
ومجلس لذةٍ بسماع لهوٍ	ألذُّ من الجلوس على الطريق
ومشي وصيفةٍ تسعى بكأسٍ	مضمخة السوالف بالخلوق[118]
ألذُّ من التجالد بالعوالي	ومن مشي الفريق إلى الفريق[119]
فهذا الرأيُ لارأيٌ سواه	فشدَّ يديك بالرأي الوثيق

زمن يلتصق آناً بالحياة حتى الانصهار، لأن الحياة معناه وهو قيمتها. وآناً يبدو منفصلاً عن الحياة إلى ماوراء تخوم الغربة والانبهار. لكنه يبقى على الحالين الزمن النواسي، زمن يتمحور، يتطاول، يشع بديمومة الحاضر ليصير كله حاضراً. لأن الحاضر في نظر الحسن هو وحده اليقيني، وهو وحده الغني، هو وحده المليء، هو وحده يقوّم الماضي ويستشرف المستقبل، هو وحده الذي يحول كمية الوجود إلى نوعية إلى معنى ولكن بحساب. لأن الحسن يبدو في أغلب الأحيان مغلوباً على أمره؟! حواراً سلبياً، يهادن، يتقي.[120] يبطن غير مايظهر، لايتصدى إلا بمقدار. يهرب من أتون حدةالصراع إلى دنيا الكأس والندمان واللذة ليتغنى بشكل ماجن وظريف بالقيم التي تدعو إلى الأمان والسلام، إلى الهناء والرخاء، إلى تحسين الواقع الراهن وتطوير حياة الناس إلى الأفضل. يهرب من المواجهة المكشوفة في حياة الناس، من الزمن الأرضي إلى الزمن الرديف زمن النشوة النواسية وينابيعها المتفردة السمات المتعددة المشارب، المتفجرة الطاقات، حيث تتبدل بفضلها الأشكال «خلنا الظليم بعيراً»[121] وتتغير القيم.

قال:[122]

١١٨- الخلوق: نوع من الطيب

١١٩- التجالد: المضاربة مع بعض. العوالي: الرماح.

١٢٠- يتقي: من التقية. والتقية في مفهومها السياسي نوع من النفاق الاجتماعي يظهر فيه الإنسان ما فرض عليه، ويُعلن ما آمن به ويحرّم عليه أن يعلن عنه، كضرورة لابد منها للأمن على حياته.

١٢١- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١١٤ المقصود قوله:

خِلنا الظليم بعيراً عند نهضتنا	والتلُّ منبطحاً في قُذْلهلانِ

الظليم: ذكر النعام، ثهلان: اسم جبل

١٢٢- العقد الفريد، مصدر سابق، المجلد الثامن، الصفحة: ٤٦

اسقني كأس حميا تترك الشيخ صبيا
وتُريه الغيَّ رُشداً وتُريه الرُشد غيّا

ويصبح القبيح جميلاً والسقيم صحيحاً،[123] فيتغير وجه الحياة وينبسط الأمل على جليد الواقع المقذي الذي حنط وشائج الوجود، وأسباب الحياة بفضل الزمن الرديف، زمن النشوة النواسية.

قال:[124]

كرخيةٌ تترك الطويل من العيش قصيراً وتبسط الأملا[125]

تلعبُ لِعْبَ السرابِ في قدحِ القوم إذا ما حَبابُها اتَّصلا[126]

غير أن هذا الهروب إلى الزمن الرديف يبقى نوعاً من المواجهة، نوعاً من الدخول في صميم دوامة الصراع ولكن على الطريقة النواسية ومن خلال نفق التقية.

قال:[127]

إذا عبّا أبو الهيجا ءِ للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموتِ أمام الشيخ إعلانا
جعلنا القوس أيدينا وقَبْلَ القوس سوسانا
وقدَّمنا مكان النَّبْلِ والمطردِ ريحانا[128]

١٢٣- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٢٤ المقصود قوله:

لاتلمني على التي فتنتني
وأرتني القبيح غير قبيح
قهوةٌ تترك الصحيح سقيماً
وتعيرُ السقيم ثوب الصحيح

١٢٤- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٦٣

١٢٥- تبسط الأملا: توسعه تمدُّ به.

١٢٦- السراب: ماتراه نصف النهار كأنه ماء وليس بماء. والمراد في قوله يلعب السراب. رقة الخمرة وتحركها في الكأس ولمعانها.

١٢٧- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٩٨

١٢٨- المطرد: الرمح القصير.

فصادت حربنا أنساً وعدنا نحنُ خُلاّنا

بفتيانٍ يرون القتلَ في اللذة قُربانا

وأحجار المجانيق لنا تفاح لبنانا

ومنشا حربنا ساقٍ سبا خمراً فسقّانا

يحثّ الكاس كي تلحقُ أخرانا بأولانا

ترى هذاك مصروعاً وذا ينجرُّ سكرانا

فهذي الحربُ لا حربٌ تُغمُّ الناس عدوانا

بها نقتلهم ثم بها ننشر قتلانا

وهذا ما جعل موقفه من قضية المحن التي يعاني منها مجتمعه وأهل بيئته وعصره، موقفه من قضية تحويل كمية الوجود إلى نوعية إلى معنى أقرب ما يكون إلى النظرة المثالية الخيالية. لأن دوره بقي قاصراً، اكتفى بملامسة أطراف المحن بطريقة طريفة بهيجة، لابسة لبوس العبث الطريف البهيج الهروبي في ظاهرها.

قال:(129)

بُزاتُنا الأقداحُ دُرّاجُهُنَّ الرّاحُ(130)

قِسيُّنا عيدانٌ أوتارُها فِصاحُ(131)

وصيدُنا ظباءٌ كأنّها الصّباحُ

وخيلُنا عذارى عِذارُها الوشاحُ(132)

ميدانُها الحشايا وركضُها النّكاحُ

وعيشُنا موصولٌ بغدوةٍ رَوَاحُ

قد هزّنا فتالٌ ماإن به جُناحُ(133)

129- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: 720

130- البزاة: جمع بازي طير من الجوارح. الدُّراج: طير شبيه بالحجل

131- القسي: جمع قوس.

132- العذار: ما سال من اللجام على خدّ الفرس

133- الجناح: الإثم.

لكنه استطاع بموقفه هذا أن يصم، أن يدين- بهذا الشكل أو ذاك- نظام القمع وكم الأفواه الذي فرضه البيت العباسي على الشعب. استطاع أن يفضح سلوك أولئك الذين يدفعون بأبناء الشعب إلى الموت في ساحات الحرب، بينما هم يحاربون على الحشايا؟! بين الجواري والغلمان والكؤوس والعيدان. استطاع بمواقفه تلك، وبمواقف غيره من المتنورين أن يمهدوا بهذا القدر أو ذاك للثورات المسلحة العلنية التي نشبت وأنهكت السلطة العباسية مثل ثورة الزنج والقرامطة وغيرها.

●الخطيئة قربان الايمان وطريق السقوط المقدس.

وعندما يُخيم ظلام القهر فيخنق الخوف الروح ويصعق الاستلاب النفوس. عندما تُغلق أبواب الحرية، حرية الاختيار، حرية العيش بامتلاء. عندما توصد كوى الفرح وتطفأ شموع الأمل، يصبح السقوط في نظر الحسن مقدساً. تصبح الخطيئة مقدسة، تصبح الخطيئة تمرداً، تصبح الخطيئة هي الحرية، تصبح الخطيئة رمزاً للحرية، رمزاً للتمرد. تُصبح الخطيئة صليب خلاص ، تُصبح الخطيئة تحقيق وجود، أنا أخطيء إذن أنا موجود. تُصبح الخطيئة تأكيد ذات. ويصبح التأكيد على الخطيئة على استمرار اقترافها، التأكيد على السقوط بالنسبة إليه ضرورة كيانية في إطار الحياة التي يعيشها.[١٣٤]

قال الحسن:[١٣٥]

أعاذلتي أقصري عن بعض لومي ... فراجي توبتي عندي يخيبُ
تعيبين الذنوب وأيُّ حُرٍ ... من الفتيان ليس له ذنوبُ
غُرِرتِ بتوبتي ولججتِ فيها ... فشُقي اليوم جَيبكِ لا أتوبُ

لأن لاخلاص للنفس لاسُمو للروح في نظرة الأ بتمجيد الخطيئة؟! أليست الحياة مجموع خطايا يقترفها كل الناس[١٣٦] من كل الطبقات والفئات، وبشكل خاص الشرائح السلطوية والميسورة من ذروة الهرم الاجتماعي.

١٣٤- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٦٢ المقصود قوله:

يلائمني الحرامُ إذا اجتمعنا ... وأجنو عن ملاءمةِ الحلالِ

١٣٥- المصدر السابق: للغزالي، الصفحة: ١٢

١٣٦- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٢٠٨ المقصود قوله:

ترى عندنا مايكره الله كله ... سوى الشرك بالرحمن ربُ المشاعرِ

لأن لاسبيل إلى الخلاص في نظره إلاّ بتمجيد الخطيئة التي تصدم الوقار الزائف المزعوم للمجتمع المنافق، وتهتك خدوره الطهور الذي هو في الحقيقة دنس الذيول آثم السمات والميول. إلاّ بتمجيد الخطيئة الكبيرة الرائعة، بل قل الخطيئات التي يستطيع أن يتباهى ويتيه بها

قال:[137]

أصبني منك بأملي بذنب تتيهُ على الذنوب به ذنوبي

الخطيئات التي تتجاوز الحدَّ بالمها وفحشها،[138] الخطيئات التي يُدِلُّ بها على جميع الخطايا القزمية الأخرى.

قال:[139]

دعْ عنك ماجدُّوا به وتبطَّلِ وإذا مررتَ بربع قصفٍ فانزلِ[140]

لاتركبنَّ من الذنوب خسيسها واعمدْ- إذا قارفتها- للأنبلِ

وخطيئةٍ تعلو على مستامها يلقاك آخرُ طعمها بالأولِ[141]

ليست من اللاتي يقول لها الفتى عند التندُّم ليتني لم أفعلِ[142]

حلَّلتُ لاحرجاً عليَّ حرامَها ولرُبَّما وسَّعت غير محلَّلِ[143]

في كنف هذا المنزلق، وضمن أجواء هذا الشين الذي هتك أستاره وأسراره، يشعر الحسن أنه ربما سيكون أقرب إلى الله؟! لأنه سيقابل الله بخطاياه هو، بأخلاقه هو،

١٣٧- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٣٢٦

١٣٨- الفكاهة والايتناس في مجون أبي نُواس، مصدر سابق، الصفحة:١٠٩ المقصود قوله:

لاتركبنَّ من الخطايا هيناً وإذا ركبتَ فجاوز المقدرا

١٣٩- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١٩٩

١٤٠- تبطَّلْ: أمر من التبطل: وهو تداول الباطل أو الركون إلى البطالة.

١٤١- مستامها: طالبها والمساوم عليها

١٤٢- التندم: الندم

١٤٣- يقصد أنه جعل الحرام حلالاً غير متحرج. وقد يتوسع في كل حرام وهو يعلم أنه كذلك من غير أن يعمد إلى تحليله.

بذنوبه هو، ببراءته هو، لأن الشعور بالإثم والخطيئة ربما كان في رأيه السبيل إلى الإيمان. قال: (١٤٤)

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة	فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لايرجوك الاّ محسن	فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك ربّ كما أمرت تضرعاً	فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلاّ الرجا	وجميل عفوك ثم أني مسلم

هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فإن الحسن إذا ماسار ضمن هذا السمت شعر أنه حقق ذاته وامتلك نفسه وسيطر، لأنه استطاع أن يرفض، لأنه رغب فأراد، لأنه قرر فاختار. وإذا ما رفض ما هو جاهز ومفروض عليه وندّد به على طريقته، وإذا ما أراد وهدف إلى مايريد ودعا إليه، وإذا ما اختار وحدد ما يصبو إليه. تتفجرت الطاقة المغيرة فيه، طاقة الإرادة والفعل. حتى ولو كان هذا الانفجار على حساب سمعته وكرامته اللتين كانتا قربان هذا التصدي وهذه الإرادة. لذلك لم يعد يخاف لأنه سيقابل اللّه بدينه هو لا بدين الجماعة!! (١٤٥)

لم يعد يبالي لأنه أراد أن يفعل ويختار حتى ولو زعم ما زعم من اقتراف المعاصي والموبقات، ومهما دعا إلى ارتكاب حماقات أو شجع على ممارسة المحرمات.

قال (١٤٦):

أدرها علينا مُزّة بابلية	تخيّرها الجاني على عهد قيصرا (١٤٧)
عُقارٌ أبوها الماءُ والكرم أمُّها	وفي كأسها تحكي المُلاءَ المزعفرا (١٤٨)

١٤٤- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٦١٨

١٤٥- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق الصفحة: ٥٩٦ المقصود قوله:

مالي وللناس كم يلحونني سفهاً

ديني لنفسي ودين الناس للناس

١٤٦- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ١٠١

١٤٧- مُزّة: في طعمها ما يشبه الحموضة، الجاني: القاطف.

١٤٨- عُقار: الخمر. تحكي: تشبه. الملاء: مفردها ملاءة تلبسها المرأة فوق الملابس تتوارى فيها. المزعفر: المصبوغ بالزعفران.

فما العيشُ إلا أن تراني صاحياً   وما العيش إلاَّ أن ألذَّ فأسكرا

لم يعد يرى من خلال هذا المنطلق بديلاً حقيقياً لديه عن الحرام واللذيذ.

قال[149]:

نسبتني حوادث الأيام   وَصَفتْ عيشتي وقلَّ اهتمامي

أقطعُ الدهر بالندامى الكرام   وركوب الهوى، وشُرب المدامِ

وغزالٍ يُسبي النفوس إذا هتَّكَ منه مآزرَ الأحرامِ[150]

قد تمتعت منه في يقظاتي   وبطيف الخيال في الأحلامِ

وتبطنتهُ وحارسنا الليل علينا منه لحاف ظلامِ[151]

أَنِفَتْ نفسي العزيزةُ أن تقنع إلاَّ بكلِّ شيءٍ حرامِ

ماأبالي متى يكونُ – وقد قضيتُ منه السرور- كأسُ حِمَامي[152]

لم يعد يبالي أو يخاف حتى من العقاب. وقد يرتكب مختاراً وراضياً ما يستوجب عليه العقاب.

قال:[153]

رُدَّا عليَّ الكأسَ إنكما   لاتدريان الكأسَ ماتُجدي

خوَّفتماني اللّهَ ربكُما   وكخيفتيه رجاؤه عندي

إن كنتما لاتشربان معي   خوف العقاب شربتها وحدي

وقد يفعل مايستوجب السقوط لأن لذة إرادة الاختيار وبريق شهوة الفعل الحُرِّ، وإن كان فعلاً ماجن السمات منتهك السلوك يُحصيه عليه من يُسجل في اللوح المحفوظ لابُدَّ وأن يعوِّض هذا الفعل – في نظره- عن السقوط المستقبلي.

١٤٩- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٣٧٢

١٥٠- يُسبي النفوس: يغريها. هَتَّكَ: من هتك حرمة الستر. مآزر الاحرام ثياب المحرمين للحج.

١٥١- تبطنته: جعلته لي كالبطانة أي احتضنته.

١٥٢- كأس حمامي: كأس موتي. والمعنى: لاأهتم بعد أن أنال مأربي حتى يحل بي الموت.

١٥٣- المصدر السابق الغزالي، الصفحة: ١٨٢

قال:(١٥٤)

مـامـرَّ يـومٌ ولـيـس عـنـدي   من طُرف اللّهو خصلتانِ
كـأسُ رحـيـقٍ، ووجـه ظـبـيٍ   تَـضِـلُّ فـي حُـسـنـه المعانـي
نـلـتُ لـلـذيـذ الحرام مـنـه   ونـالـه الـنـاس بـالأمـانـي
كـم لـذّةٍ قـلـت قـد وعـاهـا   في وسط اللوح حافظانِ(١٥٥)

لذلك نراه- قد يختار- بدافع من توالف الرضى النفسي والتوازن الداخلي، هذا السقوط، أو قد يمارس بتصميم من الإرادة الهادفة الفعل المرغوب وإن استوجب الأمر منه التمرد على طاعة ماهو متعارف عليه بين الناس أنه من أوامر الله.

قال:(١٥٦)

أيـهـا الـعـائـب فـي الخمـر   مـتـى صـرت سـفـيـهـا
لـو أطـعـنـا ذا عـتـاب   لأطـعـنـا الـلّـه فـيـهـا
إنـنـي عـنـد مـلام الـنـاس فـيـهـا أشـتـهـيـهـا

أو أودى به هذا التمرد إلى دخوله بمفرده سقر ذات النار الموصدة.

قال:(١٥٧)

الراحُ شيءٌ عجيبٌ أنت شاربُها   فاشرب وإن حمّلتك الراحُ أوزارا(١٥٨)
يامن يلوم عُلى حمراءَ صافيةٍ   صِرْ في الجنان ودعني أسكن النارا

حيث لامردَّ لقدر إرادة العشق، حيث لامردَّ لقرم رغبات الاشتهاء، حيث لامردَّ لنداء همس بسمات رحيق خمرته الساحرة.

قال:(١٥٩)

١٥٤- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٣٦٧

١٥٥- الحافظان: الملكان من يمين وشمال، يسجلان حسنات الإنسان وسيئاته.

١٥٦- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٩٥

١٥٧- خمريات أبي نواس: مصدر سابق، الصفحة: ١٨٣

١٥٨- أوزارا: آثاما

١٥٩- خمريات أبي نواس: مصدر سابق، الصفحة: ١٦٠ وما بعدها.

ألا ناسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولاتسقني سراً إذا أمكن الجهرُ

فما الغبن إلاّ أن تراني صاحياً وما الغنم إلا أن يتعتعني السكرُ

ولاخير في فتكٍ بدون مجانةٍ ولا في مجون ليس يتبعه كفرُ

وكلما أمعن الناس في لومه وعابوا عليه شربها، كلما اشتد إليها عطشاً وازداد بها عشقاً.

قال:[160]

كـأنـمـا أثـنـوا ولم يـشـعـروا عـلـيـك عـنـدي بـالـذي عـابـوا

●هل الخمرة محّرمة؟ وهي في جنان الخلد شراب المتقين:

وهنا لابد لنا أن نسأل ماكنه هذه الخمرة السرّ التي بهرته فدقّ لونها المعجز عن الوصف، ووقف البصر أمامها كليلاً حسيرا؟!

قال:[161]

بـلـونٍ رقّ حـتـى كـاد يـخـفـى على عيني وطاب على المذاقِ

ماكنه هذه الخمرة السر التي تداول كريم رحيقها مع الوصفاء الخلصاء من الندماء أسياد الناس، رفيعي القدر والمقام؟..

قال:[162]

تـعـلّـلْ بـالمُدام مـع الـنـديمِ ففيه الرَّوحُ من كُربِ الغمومِ[163]

وبـادر بـالـصـبـوح فـإن فـيـه شفاء السُّقم للرجل السقيم

وخُذها إن شَربت ومبض برقٍ بماءِ المُزنِ من نطفِ الغيومِ[164]

١٦٠- ديوان أبي نواس: الغزالي، الصفحة: ٣٢٤

١٦١- ديوان أبي نواس: الغزالي، الصفحة: ٥٦

١٦٢- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٤٤

١٦٣- تعلل: تشاغل وتلهى. الروح: بالفتحة الراحة.

١٦٤- وميض برقٍ: تلألؤه ولمعانه. المزن: السحاب الذي فيه ماء. النُّطف: مفردها نطفة: وهي الماء الصافي.

لتجعل هذه عرساً لهذا — فإنَّ القطر بعلّ للكرومِ[165]

ولا تسقِ المدام فتىً لئيماً — فلستُ أُجلُّ هذي للئيمِ

لان الكرم من كرمٍ رجودٍ — وماء الكرم للرجل الكريمِ

ولاتجعل نديمك في شرابٍ — سخيف العقل أو دنسَ الأديمِ[166]

ونادم إن شربت أخا معالٍ — فإن الشربُ يجملُ بالقرومِ[167]

وإنَّ المرء يصحب كلَّ جيلٍ — ويُنسبُ في المدام إلى النديمِ

ماسوُّ هذه الخمرة اللغزالتي جعلته يتصدى لجمهور الفقهاء والقراء في قضية «تحريمها» فيلتمس المبرر الشرعي لتعاطيها، مستنداً إلى ثقافته الإسلامية والقرآنية العالية ليجد عن طريق السكر المهرب الديني في ترك فرض الصلاة معتمداً قوله تعالى:﴿لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾.[168]

قال:[169]

عصابةُ سوءٍ لايرى الدُّهرُ مثلهم — وإن كنتُ منهم لابريئاً ولاصفرا

إذا مادنا وقتُ الصلاة رأيتُهم — يحثونها حتى تفوتُهمُ سكرا

وقد يلجأ إلى الحوار العقلي والتبرير المنطقي، ليدافع عن تعاطي رحيق عشيقة نفسه الأثيرةوخدينة روحه الغالية.

قال:[170]

اسقني واسقِ يوسُفا — مُزّةَ الطعم قرقَفا[171]

١٦٥- القطر: المطر. البعل: الزوج.

١٦٦- الأديم: الجلد، ويكنى بدنس الأديم عن سوء الخلق ولؤم السجايا.

١٦٧- القروم: مفردها القرم، وهو السيد من الناس.

١٦٨- سورة النساء: الآية رقم: ٤٣

١٦٩- ديوان أبي نواس،الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٦١

١٧٠- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٢٠

١٧١- القرقف: من أسماء الخمر.

دَعْ مِنَ العَيْشِ كُلَّ رَنْقٍ وخُذْ مِنْهُ ما صَفا[172]

اسقِنيها بِملاءٍ وفا | لا أريدُ المُنَصَّفا[173]

وضعِ الزِّقَّ جانباً | ومعَ الزِّقِّ مصحفا[174]

واحسُ من ذا ثلاثةً | واتلُ من ذاك أحرفا

خيرُ هذا بِشرِّ ذا | فإذا اللّهُ قد عفا

فلقد فاز من محا | ذا بذا عنه، واكتفى

ولكن مامعنى هذه المداورات، وثقته بعفو اللّه كبيرة وبشكل خاص بالنسبة لشارب الصهباء؟

قال:[175]

وثقت بعفو اللّه عن كل مسلمٍ | فلستُ عن الصهباء ما عشتُ مقصِرا

ما معنى هذا الحشد من الحجج والمبررات؟ أليس من الأفضل له أن يعلن بشكل واضح صريح أن كلَّ شيء يهون في سبيل رحيقها بما في ذلك الفروض الدينية وطقوس العبادات؟!

قال:(176)

عاذلي فيها أطعني | وأقلَّ الآن لومي

واشربِ الراحَ ودعني | من صلاةِ كُلِّ يومِ

وإذا ما حانَ وقتٌ | لصلاةٍ أو لصومِ

فارفعِ الصّومَ بِشُربِ | وامزجِ الخمرَ بنومِ

أبداً ما عشتُ خالفْ | دأبَ قومٍ بعدَ قومِ

172- الرنق: الكدر.

173- الملء: بالكسر ما يأخذه الإناء إذا امتلأ. وفا: أي وافياً كاملاً.

174- الزّق: وعاء للخمر من جلد.

175- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: 683

176- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: 205

لا بل وجب عليه أن يرد بالحجج والبراهين العقلية على جميع الطقسيين والمتفقهين الذين كفروا شاربها واعتبروها من المحرمات،وهي كما يفهم الدين غير ذلك، لأنه يعلم حق العلم أن الجنة التي وُعِدَ بها المتقون فيها أنهار من خمرة لذة للشاربين.

قال:(177)

هـــذه المـــنـــوع مـــنـــهـــا وأنـــا المحـتـــجُ عـــنـــهـــا

مـــالـــهـــا تُحْـــرَمُ فـــي الـــدنـــيـــا وفـــي الجنـــةِ مـــنـــهـــا

لذلك نراه يستمر على شربها حتى ولو أصروا على تحريمها« واشرب وإن حَرمتْ، أخي الخمرا»(178) حتى ولو طبقوا عليه حدَّها.

قال:(179)

بكيتُ وما أبكي على دِمنٍ قَفْرِ وماِبيَ من عشقٍ فأبكي من الهجرِ

ولـكـن حـديـثٌجاءنا عن نبينا فذاك الذي أجرى دموعي على النحرِ

بتحريم شُربِ الخمر والنهيُ جاءنا فلما نهى عنها بكيتُ على الخمرِ

فـأشـربـهـا صِـرفاً، وأعـلـم أنـنـي أُعزَّرُ فيها بالثمانين في ظهري(180)

ويتساءل هل يمكن أن يطبق عليه حَدُّ الخمر وأمير المؤمنين يشربها، والله لم يرفض اسمها؟

قال:(181)

أأرفـضها والله لم يرفض اسمها وهـذا أمـيـر المؤمـنـين صـديـقـهـا

هل يمكن أن يطبق عليه حدها والله يغفر عن الكبائر(182)؟ لا..لا يمكن لأن كل ماقيل عن تحريمها- كما يرى- محض ادعاء وأحاديث خرافة.

177- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: 170

178- الفكاهة والإيتناس: مصدر سابق، الصفحة: 109

179- ديوان أبي نواس: الغزالي، الصفحة: 36

180- الثمانين في ظهري: المقصود حدُّ شارب الخمر.

181- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة:9

182- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: 126 المقصود قوله:

عـــاد المدام وإن كـــانـــت مـــحـــرمـــةً فـــلـــلـــكـــبـــائـــر عـــنـــد الـــلّـــه غـــفـــران

قال:(١٨٣)

أسقني واسقِ ذُفافة	يا أبا الحرُ سُلافة
هاتها جهراً ودعني	من أحاديث خُرافة

هل يمكن أن يمتنع عنها؟ هل يمكن أن يرفضها؟ وهي التي: «ما وجد الناس ولا جربوا للهمّ شيئاً مثلها مدفعاً»(١٨٤). «وهي التي لايمكن أن تجتمع والهمّ معاً».(١٨٥) لأن رحيقها يزيل الأتراح والهموم، ويشرح صدر حاسيها.

قال:(١٨٦)

إذا ما أتت دون اللّهاةِ من الفتى	دعا همّه من صدره برحيلِ

هل يمكن أن يرفضها..؟ ورحيقها جنة المثوى ونعيم الخلد في هذه الحياة.

قال:(١٨٧)

هي الشمسُ إلا أنّ للشمسِ وقدةً	وقهوتنا في كل حُسنٍ تفوقها(١٨٨)
فنحن وإن لم نسكن الخلد عاجلاً	فما خُلدنا في الدهر إلاّ رحيقها
فيا أيّها اللاحي اسقني ثم غنني	فإني إلى رقت الممات شفيقها

والحياة في مفهوم الحسن هي الأيام التي يعيشها الناس، هي الراهن من الواقع الذي يجمع في بوتقة قطبيه كل الأشياء، كل المتضادات: الخلود والموت، الجنة والأرض، النعيم والشقاء، الثواب والعقاب، الأمل والإخفاق، الوحدة والصراع، ويوالف فيما بينها ويوحدها. هي الحياة التي يمكن أن نعيش وحدة صراع تناقضاتها بامتلاء، ونستمتع بنعيم لحظاتها الحسية حتى الثمالة باشتهاء.

١٨٣- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٥٦

١٨٤- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة ٥

١٨٥- المقصود قوله:

لاتحسبنّ عُقار خابيةٍ	والهمّ يجتمعانِ في صدرِ

- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٩٩

١٨٦- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٦

١٨٧- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٩

١٨٨- هي الشمس في الضياء والصفاء وليست مثلها في حرارتها.

لذلك فهي الحقيقة الوحيدة في نظره، الحقيقة الأكيدة، الحقيقة التي لاجدال حول جبروت تواجدها، الحقيقة التي لايقبل استبدالها بشيء، يوصف ولايرى، يُرَجَّمُ عنه ولايوجد دليل ملموس يشير إلى تمتعه بفضيلة الحياة، بفضيلة الوجود ويجسِّمُ حقيقة كينونته؟ الحقيقة التي لايقبل استبدالها بحياة ثانية بعد فجيعة الموت. فربما ليست هي الآ مجرد وهم من الأوهام.

قال:(١٨٩)

ورأيت إتياني اللّذاذة والهوى	وتمجلاً من طيب هذي الدار
أجدى وأحزمُ من تنظر آجلي	علمي به رجمٌ من الأخبارِ
ما جاءنا أحدٌ يخبِّرُ أنّهُ	في جنةٍ من مات أو في النارِ

● الخمرة سفر في أعماق الانسان إلى سّر الأسرار:

لهذا كانت الخمرة بالنسبة إليه أكثر من أداة للنشوة الروحية الغامرة، وأكثر من أتون للتوترات الوجدانية المتأججة، وأكثر من سماء تُجَنِّحُ فيها شفافيته الابداعية المجددة. لقد كانت أكثر من ذلك وفوق كل ذلك. لقد كانت نوعاً من السفر في أعماق الانسان والأخذ بيده إلى عالم الانعتاق حيث تتلاشى حدود الزمان والمكان. فهي تارةً ذاتاً عليا يدق عن الوصف معناها لأنها تتمتع بفضيلة صفات التفرد حيث لايشابهها وصف ولاينافسها على سماتها أحد.

قال:(١٩٠)

تَمّتْ فلم يرَ إنسانٌ لها شبهاً	فيمن يرى اللّه من عُجمٍ ومن عَرَبِ

وهي تارةً قِدْرَة لأنها روح(١٩١) فلا تجسّدُ بجرمٍ ولايؤطر نورها لأنها تسمو فوق عالم المادة فوق اللحم والدَّم.(١٩٢)

١٨٩- الفكاهة والايتناس: مصدر سابق، الصفحة: ١١٥

١٩٠- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٧٢

١٩١- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٧٨- المقصود قوله:

مازال يجلوها تقادمُها	حتى اغتدت روحاً بلا جسم

١٩٢- المصدر السابق الغزالي، ص٨٠ المقصود قوله:

فهي روحٌ مخلَّصٌ	فارق اللحم والدّما

وقال أيضاً:[193]

فَلَمْ تَزَلْ تخلصُ حتى إذا صار إلى النصف بها الصَّبرُ
جاءت كروحٍ لم يَقُم جوهرٌ لُطفاً به، أو يُحصه نورُ

ومن يسمو فوق العالم المحسوس، وخمرته أبداً السامية، سيكون وسيلة خلاص، سيكون صليب نجاة للروح من عذاباتها، والجسد من غربته وسقمه.
قال:[194]

وبادر بالصَّبوحِ فإنَّ فيه شِفَاءُ السُّقمِ للرجلِ السقيمِ

أجل من كانت خمرته متجردة الأبعاد متناهية القدم فهي حتماً فوق حدود الزمان والمكان. وربما نشأت مع الدهر فرضعا من لبان واحد.
قال:[195]

فتعرَّبتُ بصِرفٍ عُقارٍ نشأتْ في حِجْرِ أمِّ الزَّمانِ[196]
فهي سِنُّ الدهران هي فُرِّتْ نشآ وارتضعا من لبانِ[197]

وربما هي أقدم من الدهر [198] لأنها تقدمت في الخلق على الخلق وسبقت في الوجود وجود آدم.
قال:[199]

صفراءُ مجَّدها مرازبُها جَلَّتْ عن النظراءِ والمِثَلِ[200]
ذُخرتْ لآدمَ قبلَ خلقتِه فتقدمتهُ بخطوةِ القَبَلِ

193- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة:14

194- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: 144

195- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة:18

196- إنها خمر معتقة قديمة ولدت مع الزمن ونشأت في حجر امه معه.

197- فُرِّت: كشف عنها ليعرف سنها

198- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: 80 للمصرد قوله:

رأيت الدهر نائباً وكبيراً تهرما

199- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق الصفحة: 42

200- مرازبها: المرازب رؤساء الفرس.

فــأتــاكَ شــيءٌ لاتــلامُــســهُ إلاّ بــحــسّ غــريــزةِ الــعــقــلِ

ومع أنها قديمة قدم الدهرسبقت آدم حيث كانت ولم يكن[٢٠١] فهي عجوز وأنثة الولادة(عجوز وجنين).

قال:[٢٠٢]

وشمطاءَ حَلَّ الدهرُ عنها بنجوةٍ دلفتُ إليها فاستللتُ جنينها[٢٠٣]

فهي قديمة وجديدة، ماضٍ وحاضر تنطق الحكمة وتتحدث بقصص الأمم الغابرة، وأساطير الأولين لمن يريد أن يعتبر، لمن يريد أن يهتدي كما يهتدي السَّفْرُ بالعلم.

قال:[٢٠٤]

يــاشــقــيقَ الــنَّــفــس مــن حــكــم نــمــت عـــن لــيــلــي، ولم أنمِ
فاسقني الخمر التي اختمرت بخمار الشيب في الرَّحِمِ[٢٠٥]

٢٠١- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٨٠ المقصود قوله:

اســـقــــيــهـــا ســـلافـــةً ســبــقــت خَــلْــقَ آدمــا
فـــهـــي كـــانـــت ولم يـــكـــنْ مـــاخـــلا الأرض والـــســـمـــا

٢٠٢- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٢٠

٢٠٣- الشمطاء: هي العجوز. بنجوة: بمرتفع. دلفتُ إليها: مشيت إليها متقارب الخطى. جنينها: يريد ما تبقى منها بعد أن طال تعتيقها ونفت زبدها وتخلصت من رغوتها.

٢٠٤- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٤١

٢٠٥- يقصد استني الخمر التي طال عليها العهد حتى شابت وهي جنين لم تولد من الدنان. كتب صاحب الكشكول يقول:« ذكر للرشيد قول أبي نواس: فاسقني الخمر... فقال لمن حضره: ما معناه؟ فقال أحدهم: إن الخمرة إذا كانت في دنها كان عليها شيء مثل الزبد وهو الذي أراد. وكان الأصمعي حاضراً فقال: ياأمير المؤمنين إن أبا علي وجل خطر. وأن معانيه لخفية فاسألوه عن ذلك. فأحضر وسُئل فقال: إن الكرم أول مايخرج العنقود في الزرجون يكون عليه شيء شبيه بالقطن. فقال الأصمعي: ألم أقل لكم أن أبا نواس أدق نظراً مما ظننتم». عن الكشكول، بهاء الدين العاملي، المجلد الأول، ص٤٢٥
وحول هذا المعنى كتب الأستاذ مارون عبود يقول: «لو كنت مزارعاً مثلي تزور الكروم حين تبرعم، لرأيت بعينيك هذا الخمار الأبيض وعلمت كيف تتخمر بنت الكرمة في الرحم. فنحن الفلاحين نقول في تلك الساعة قطّن الكرم. وهذا ما عناه أبو نواس. ثم لي في هذا المعنى وجه آخر. إذا رافقنا الخمرة إلى الخابية رأيناها وهي مسطار، حين تغلي تلبس خماراً حقاً. خماراً من نوع «الكربشة» التي كانت تلبسها ستي رحمها الله». عن كتاب الرؤوس مارون عبود، ص١١٧

فهي لليوم الذي بُزلتْ   وهي ترب الدَّهرِ في القدمِ[206]

عُتِّقَتْ حتى لو اتصلتْ   بلسانٍ ناطقٍ وفمِ

لاحتبت في القوم ماثلةً   ثم قصَّتْ قصة الأممِ[207]

فاهتدى ساري الظلامِ بها   كاهتداء السَّفْرِ بالعلمِ[208]

ولِمَ لا؟ وهي راوية صدق وشاهد عدل رأى وعرف تقدمت على الجميع وعاصرت كل من تمتع بفضيلة الوجود، تاريخها معلوم وماضيها سحيق مسطور يعلو سالف الحقب.

قال:[209]

من قهوةٍ زانها تقادُمها   فهي عجوزٌ تعلو على الحُقُبِ[210]

دهريةٌ قد مضت شبيبتها   واستنشفتها سوالف الحِقَبِ[211]

ولم لا؟ وهي التي نسبها ناصعٌ كريمٌ، ومنشؤها محمود معلوم ولها مرابع ومراتع وأهل وخلاّنٍ.

قال:[212]

رحيقاً أبوها الماء والكرم أمها   وحاضنها حرُّ الهجير إذا يحمى

يهوديةُ الأنساب، مسلمةُ القُرى   شآمية المغدى، عراقية المنشا[213]

206- بزلت: بزل الخمر، ثقب إناءها. ترب الدهر: ولدت معه ومن سنه.

207- إن هذه الخمرة قديمة، فلو كان لها لسان لجلست في القوم تقص عليهم تاريخ الأمم لأنها رأته وعاصرته.

208- السَّفْر: المسافرون. العَلَم: شيء ينصب على الطريق يهتدي به المسافرون.

209- ديوان أبي نواس : الغزالي، مصدر سابق، ص161

210- الحُقُب: مفردها حقاب، وهي شيء تعلق به المرأة الحلي وهو يريد إناء الخمر.

211- دهرية: نسبة إلى الدهر. سوالف الحِقَب: السنين الماضية. استشفتها يريد أن كل حِقبة مرت عليها أخذت منها جزءاً.

212- المصدر السابق: الغزالي، ص118

213- يهودية الأنساب: لأن أغلب من يقوم بعصرها وتعتيقها وبيعها من اليهود. مسلمة القرى: لأن كرومها تزرع غالباً في البلاد الإسلامية. شآمية المغدى: لأنها تصدر إلى بلاد الشام. عراقية المنشأ: منشؤها العراق.

ولم لا؟ وهي كائن لطيف الجوهر مُبَجَّلٌ مغرق في القدم متناهي الرقة كامل القداسة.

قال:[٢١٤]

أعطتك ريحانَها العُقارُ	وحان من ليلكَ إنسفارُ[٢١٥]
فاتعم بها قبل رائعاتٍ	لاخمر فيها، ولا خُمارُ[٢١٦]
ووقرُ الكأس عن سفيهٍ	فإنَّ آيينها الوقارُ[٢١٧]
فلم تزل تأكل الليالي	جثمانها مابها انتصارُ
حتى إذا ماتَ كلُّ ذامٍ	وخُلِّصَ السرُّ والنجارُ[٢١٨]
عادت إلى جوهر لطيفٍ	عِيانُ موجودهِ ضِمارُ[٢١٩]

تخاطب عشاقها بلغة خاصةٍ معجزةٍ، تختلف عن اللغات المتداولة بين البشر، لغة تجمع بين عينيها وعيني عاشقيها، لغة لغز لايدرك بعدها الاّ العارفون بها. وسرٌ من الأسرار لاتفصحُ عن مكنوناتها إلاّ لمدنفيها القادرين على النفاذ إلى كنهها.

قال:[٢٢٠]

تجمعُ عيني وعينها لغةٌ	مخالفٌ لفظُها لمعناها
ذي لغةٌ تسجدُ اللغاتُ لها	ألغزها عاشقٌ وعمّاها[٢٢١]

٢١٤- ديوان أبي نواس: الغزالي، ص٧٣

٢١٥- الريحان نبت طيب الرائحة. العقار: الخمر. انسفار: انحسار: انكشاف بمعنى رائحتها طيبة وكشف ضوءها الليل.

٢١٦- رائعات: من راع: مفزعات.

٢١٧- ووقّر الكأس: بجلها، والتوقير التبجيل. آيينها: قانونها. معربة.

٢١٨- كُلُّ ذامٍ: كل عيب، النجار الأصل، السّر: جوف كل شيء ولبه.

٢١٩- الضمار: خلاف العيان: العيان المعاينة والمشاهدة. يريد أنها انتهت من طول مدة التعتيق إلى جوهر لطيف، الموجود منه كأنه غير موجود لشدة لطفه ورقته.

٢٢٠- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة ٩

٢٢١- عمّاها: جعلها معماة غامضة. لأن ظاهر معناها مخالف لما يرمي ويقصد.

ولكن هل للخمر عيونٌ؟ نعم الحسن يقول: إن لها عيوناً تنظر إلى كل من حولها، وتكسُّرُ جفونها لعاشقيها دلاً وخفراً.

قال:[222]

لها من المزج في كاساتها حَدَقٌ ترنو إلى شربها من بعد إغفاء[223]

●الخمرة مقدسة الملكوت، منزهة العشاق طقسية الحركات والأبعاد:

ولما كانت خمرة الحسن هي الأسمى، وهي الكريمة وأبداً ستكون، لما لها من نعم تستحق الثناء. نقل إلى ملكوت مجالسها بشكل احتفالي خاص تقاليد وأسرار عالمها المقدس، واختار لها أحسن الأسماء.

قال:[224]

أثـن عـلـى الخمـر بـآلائـهـا وسَـمِّـهـا أحسن أسمائها[225]

وخلع على ندامائه المنزّهين عن الفحشاء[226] أفضل الصفات وأكرم الخصال[227] لأنهم يمتازون بصدق التعامل ونقاء السريرة وحسن المعاشرة.

قال:[228]

ولـمـتُ بـقـائـلٍ لـنـديم صـدقٍ وقـدأخـذ الـنـعـاسُ بمـقـلـتـيـهِ

تـنـاولـهـا، وإلاّ لم أذقـهـا فـيأخـذهـا، وقـد ثـقـلـت عـليـهِ

ولـكـنـي أديـر الـكـأس عـنـهُ وأصـرفـهـا بـغـمـزة حـاجـبـيـه

٢٢٢- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٣٦

٢٢٣- ترنو: تنظر. الإغفاء: إدناء الجفون بعضها من بعض.

٢٢٤- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة:١٣

٢٢٥- أثن: أمر من الثناء. آلاء: نعم.

٢٢٦- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٢٣ المقصود قوله:

نداماي طولُ الدهر خُرسٌ عن الخنا وعُـمـيٌ عن العوراءِ، نزهٌ عن الكبر

٢٢٧- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٤١ المقصود قوله:

فـي نـدامـى سـادةٍ نُجُـبٍ أخـذوا الـلـذاتِ مـن أَمَمِ

٢٢٨- المصدر السابق، الغزالي، ص١٢٠

وأحبـهـا إلى أن يشتهيها وآخـذهـا بـرفـق مـن يـديـه

فـهـذا مـا حـيـيـتُ لـه وإنـي أبـرُّ لمثـلـه مـن والـديـه

ولن نرى بين ندامائه من كان لئيم السجايا سخيف العقل سيء الخلق،[229] بل يتحلون جميعاً بأخلاق تماثل أخلاقه، ويسلكون سلوكاً شبيها بسلوكه.

قال:[230]

لمثلي من الفتيان حُلَّتْ أخي الخمرُ وطابت له اللذات واسترخص السكر

إذا كان سكري لايكدرُ مجلسي ولايعتري فيه خصامٌ ولاهجرُ

هذا الأمر دفع بالحسن أن يقول: ليس كل الناس أو أي واحد من الناس يمكن أن يكون كفئاً لخمرته وأهلاً لها ويستحق أن يشربها.

قال:[231]

والخمر قـد يـشـربـهـا مَـعْـشَـرٌ ليـسـوا إذا عُـدُّوا بـأكـفـائـهـا

لأنها قد تزيد من فضل سفاهة السفيه حين يشربها، وتوسع مشارف العقل لدى كل عاقل ذي خلق حليم وتشحذ كوامن كريم الأخلاق لديه.

قال:[232]

أرى الخمرَ تُربي في العقول فتنتضي كوامن أخلاقٍ تثير الدواهيا[233]

تزيد سفيه القومِ فضل سفاهةٍ وتترك أخلاق الكريم كما هيا

وجدتُ أقلَّ الناس عقلاً إذا انتشى أقلَّهـمُ عـقـلاً إذا كـان صـاحـيـا

ودفع به لأن يُجلَّها عن اللئيم[234] ويقدمها بطيب خاطر ورضى عشوق إلى من

٢٢٩- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٤٢ المقصود قوله:

ولاتجـعـلُ نـديـمـكَ فـي شـرابٍ سـخـيـف الـعـقـل، أو دنـس الأديمِ

٢٣٠- أبو نواس: عبد الحليم عباس، سلسلة اقرأ العدد: ٢١، الصفحة:٨٥

٢٣١- ديوان أبي نواس تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، الصفحة: ١٣

٢٣٢- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٢١٣

٢٣٣- تُربي:تنمو وتزداد. تنتضي: تُجَرِّدُ رتُسَلُّ.

٢٣٤- الفكاهة والائتناس، مصدر سابق الصفحة: ٦١ المقصود قوله:

أجـلُّ عـن الـلـئـيـم الـكـأس مـنـي كـأنَّ الخمـر تـعـصـر من عـظـامـي

يستحقها من الشرب الكرام الذين حين يتداولونها ينكرون تداول أي حديث فيما عداها.[٢٣٥] بل في تبتل خشوع يتفرغون لمناجاتها لأنها مشغلة بذاتها.

قال الحسن:[٢٣٦]

خلوتُ بالرّاح أُناجيها	آخذُ منها وأعاطيها
نادمتُها إذْ لم أجدْ مُسعِداً	أرضاه أن يُشركني فيها
شربتُها صرفاً على وجهها	فكنتُ ساقيها وحاسيها
لم تنظر العينُ إلى منظرٍ	في الحسن والظرف يدانيها
ما زلت خوف العين لما بدت	أنفثُ في كأسي، وأرقيها[٢٣٧]

وكرامة لعينيها خصَّ الحسن بالمديح كل من له علاقة بها. فوصف كرومها ومعاصرها وعاصريها.

قال:[٢٣٨]

كرمٌ تخالُ على قُضبان نخلته	يوم القطاف له هامات حُبشان[٢٣٩]
حتى إذا عُقرت سالت سلالتُها	في قعرِ معصرةٍ كالعندم القاني[٢٤٠]
وحولها حارسٌ، ذو صلعةٍ شكسٌ	علجٌ يدور، أخو طِمرٍ وتُبّانِ[٢٤١]

ووصف دنانها وخوابيها وكيف تجهز هذه الدنان ويحكم اغلاقها ثم تُشدُّ بالطين.

قال:[٢٤٢]

وبكر سلافةٍ في قعر دَنٍّ	لها درعان من قار وطين[٢٤٣]

٢٣٥- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة:.٢٢١ المقصود قوله:

في الكأس مشغلةٌ وفي لذّاتها	فاجعل حديثك كُلَّه في الكاسِ

٢٣٦- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١١٤

٢٣٧- أنفث في كأسي: أنفخ فيها فعل النفاثات في العقد، وهُنَّ السواحر

٢٣٨- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة:١١٣

٢٣٩- هامات حُبشان: رؤوس أحباش، يصف قطوف العنب الأسود.

٢٤٠- عُقرت: يريد عصرت. سلالتها: ما انسل منها، عصارتها. العندم القاني: الدم الأحمر.

٢٤١- شكس: عنيد مشاكس. الطمر: الثوب البالي. التُبّان: سروال صغير يلبسه الملاحون والمصارعون.

٢٤٢- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٣٢

كما وصف الراقود العظيم الذي يحفر له ليقعد، ويُقَيَّر بمعنى يُطلى بالزفت لتسُدَّ مسامه فيشتد تخمر السلاف في داخله.

قال:(٢٤٤)

استودعوها رواقيداً مزفتةً	من أغبرٍ قاتم منها وغبراءِ(٢٤٥)
وكُمِّمَ أفواهُها دهراً على ورقٍ	منْ حُرِّ طينةِ أرضٍ غير ميثاء(٢٤٦)
حتى إذا سكنت في دنها وهَدَتْ	من بعد دمدمةٍ منها وضوضاءِ(٢٤٧)
جاءت كشمس ضُحاً في يوم أسعدها	من بُرجِ لهوٍ، إلى آفاق سرّاءِ

وبقداسة متناهية التعظيم، وصف أصواتها وهي تخمر في بطون دنانها ورواقيدها وكأنها تراتيل راهب متبتل.

قال:(٢٤٨)

أقامت حِقبةً في قعر دَنٍّ	تفورُ وما يُحسُّ لها لهيبُ
كأن هديرها في الدنِّ يحكي	قِراة القَسّ قابله الصليبُ
تمدُّ بها إليك يدا غُلامٍ	أغنُّ كأنَّهُ رشأ ربيبُ

ولما كان نضجُ الخمرة بغير نار هو أجود لها.(٢٤٩) فإنه عندما يصف طريقة صنعها

٢٤٣- بكر سلافة: أي خمر لم تمسسها يدٌ. والدن: هو الراقود العظيم الذي يطلى بالزفت لتسُد مسامه. وحين يصبون فيه العصير يختمونه بالطين وهذا هو المقصود من قوله لها درعان من قار وطين.

٢٤٤- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٣٥

٢٤٥- الرواقيد: جمع راقود. وهو دنٌّ كبير طويل الأسفل يطلى داخله بالقار.

٢٤٦- الميثاء: الأرض السهلة أو اللينة. يقول أنهم ختموا أفواهها بطين حرٍ من أرض صلبة. وكانوا يفعلون ذلك بالرواقيد.

٢٤٧- هدت: أصلها هدأت. دمدمة: صوت الغضب. الضوضاء: الجلبة. المقصود صوت غليان الخمر في الدنّ أو الراقود.

٢٤٨- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١١

٢٤٩- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١١٢ المقصود قوله:

وإذا كان قِطافٌ	وترقَّعت السَّماراً
فاطبخ الراح بشمسٍ	فكفى بالشمس ناراً

دون أن تمسّها نار، تشعر بأثر الفلسفة والترف الفكري في وصفه وتصويره لقدم الخمرة وطريقة نضجها.

قال:[٢٥٠]

من شراب خُسروي ... ماتعنّوا باعتصاره[٢٥١]

طبخته الشمس لمّا ... تُخل العالج بنارة

تأتي الدهر عليه ... غيرَ شيءٍ في قرارة

فتجلّت عن شهاب ... يترامى بشرارة

ركد الدهرُ عليه ... فكفى ضوءَ نهارة

ثم ينتقل الحسن إلى بائعها فيثني عليه، ويثني على ما يختاره تاجرها من أصنافها التي لها نشوة وسورة في الرؤوس، ودبيب في الأعضاء.

قال:[٢٥٢]

ياصاحب الحانوت لا تكُ مشعياً ... إن الشرابَ محرّمٌ كمحلِّل[٢٥٣]

فدع الذي نبذت يداك وعاطني ... لله درك من نبيذ الأرجلِ[٢٥٤]

مما تخيّره التجارُ ترى لها ... قَرصاً إذا ذيقَتْ كقرص الفلفلِ

ولها دبيبٌ في العظام كأنّهُ ... قبضُ النمالِ، وأخذهُ بالمفصلِ

ويفهم معلم علامة وشيخ كار كبير عارف فهّامه، يصف مزجها بالماء وماتبديه من حركة ولألاء ساطع الضياء.

قال:[٢٥٥]

٢٥٠- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٩٥

٢٥١- الشراب الخسروي: الشراب المنسوب إلى أكاسرة الفرس. ماتعنوا: لم يجدوا عناء في عصره.

٢٥٢- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٦٧

٢٥٣- المشعي: من أشعى: المتهم بالتحليل والتحريم.

٢٥٤- نبذتُ: عصرتُ

٢٥٥- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٢٠

ألا دارها بالماء حتى تُلينها	فلن تُكرِمَ الصهباءَ حتى تُهينها[256]
وصفراءَ قبل المزج، بيضاءَ بعدهُ	كأن شعاع الشمس يلقاك دونها
ترى العين تستعفيك من لمعانها	وتحسرُ حتى ما تُقِلُّ جفونُها[257]
تروغُ بنفس المرء عما يسوءهُ	وتجدُلُهُ ألاَّ يزالَ قرينَها[258]
كأنَّ يواقيتاً عواكفُ حولها	وزرقَ سنانيرٍ تديرُ عيونها[259]

ويصف شعاع رحيقها عندما ينهلُ منه شاربها،[260] وحركتها بعد أن تُصبُّ في الأقداح وتمزج.

قال:[261]

فإذا علاها الماءُ ألبسها	حبباً كمثل جلاجل الحجلِ[262]
حتى إذا سكنتْ جوانحها	كتبت بمثلِ أكارع النملِ[263]

ويصف أباريقها التي تدار بها على الشرب من عشاقها وما يحلولهم من الشموم،[264] وكذلك رقة زجاج أكوابها وشفافيته، وشفافية إكسيرها لدرجة الالتباس، حيث يظن المرء قدحاً ولاخمراً، أو خمراً بلا قدح.

٢٥٦- دارها خاتلها، سايرها لحاين، لأنها من غيرالمزج بالماء شموس جموح صعبة المذاق.

٢٥٧- تستعفيك: تطلب إعفايها فلا تطيل النظر لشدة توهج رحيقها. تحسِر: تكلُّ عن النظر. تُقِلُّ: تحمل

٢٥٨- تروغ: تحيد. تجدله: بمعنى تصرعه، استسلم لها: بمعنى يستسلم للخمرة ويصبح لها قريباً ملازماً.

٢٥٩- سنانير: هررة، مفردها سنور. يصف الحبب كعيون القطط تتحرك وتلمع.

٢٦٠- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٢٢ المقصود قوله:

إذا عبَّ فيها شاربُ القوم خِلْتَهُ	يُقبِّلُ في داج من الليل كوكبا
ترى حيثما كانت من البيت مشرقاً	وما لم تكن فيه من البيت مَغربا

٢٦١- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٤٣

٢٦٢- الجلاجل: مفردها جلجل وهو جرس صغير. الحِجْل: الخلخال.

٢٦٣- أكارع النمل: أطرافها.

٢٦٤- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق،الصفحة: ١٢٣، المقصود قوله:

لدينا أباريقٌ كأنَّ رقابها	رقابُ كراكي نَظَرْنَ إلى صَقرِ
مُنصَّبةٌ قد قدمتها سُقاتنا	وريحاننا شمُّ الخدود إلى النحرِ

الكراكي: طيور مفردها كركي. يشبه بها الأباريق حين تمد رقابها متطلعة إلى الصقر.

قال:(٢٦٥)

رقَّ الزجاجُ وراقتِ الخمرُ ... وتشابها فتشاكل الأمرُ

فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

وأي عالم من عواليم السحر ينقلنا إليه الحسن عندما يضع يده على الصورة النادرة والمعنى الغريب، فيصف كؤوس الخمر المضيئة كالنجوم تطلع من أيدي السقاة كما تطلع النجوم من أبراجها، وتتحرك بأيديهم كما تتحرك النجوم في مدارها، وتغرب في بطونهم كما تغرب النجوم لمستقرٍ لها

قال الحسن :(٢٦٦)

ثم شُجَّتْ فاستضحكت عن لآلٍ ... لو تجمعن في يدٍ لاقتنينا(٢٦٧)

في كؤوسٍ كأنهنَّ نجومٌ ... جارياتٌ بروجها أيدينا

طالعات مع السقاةِ علينا ... فإذا ما غربن يغربن فينا

ولاعجب في ذلك ألم يتصور قياماً مكانياً بذاتها عندما جَنَّحَ في خياله وجعلها بديلاً عن عالم المادة.

قال:(٢٦٨)

قامت تريني وأمر الليل مجتمعٌ ... صبحاً تولد بين الماء والعنبِ(٢٦٩)

كأن صُغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء دُرٍ على أرض من الذهبِ

بل عندما ارتفع بها فوق عالم المادة وقوانينها، وسما بها من الأطر الحسية إلى آفاق روحية عالية المواجد فجُلت عن الوصف.

قال:(٢٧٠)

٢٦٥- هارون الرشيد: أحمد أمين، سلسلة كتاب الهلال العدد رقم: ٣ الصفحة: ١٦١

٢٦٦- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٣٠

٢٦٧- شُجَّتْ: شجَّ الشراب مزجه. لآلٍ: أصلها لآلئ

٢٦٨- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٧٢

٢٦٩- أمر الليل مجتمع: كناية عن تمام الظلام وشموله.

٢٧٠- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٦٩٦

جَلَّتْ عن الوصف حتى مايطالبها وهمٌ فتَخلُقُها في الوصف أسماءُ

تَقسَّمتها ظنون الفكر إذ خفيت كما تقسّمتِ الأديان آراء

عندما ولّدَ منها امكانات ساحرة من التفاعل والتماذج توحي بالديمومة وتعطي صوره الخمرية ثراءً من التألق والبريق، وتمايز الألوان وتمازج الأشعة.[٢٧١] معتمداً في تركيب صوره ووسائله التعبيرية، نتيجة تأثره بالمتكلمين والمعتزلة وآداب الأمم الأخرى- على التجريد عن طريق خلق أبعاد ثانية وثالثة للمعنى.

قال:[٢٧٢]

فأرسلت من فمِ الإبريق صافيةً كأنما أخذُها بالعين إغفاءُ

رقَّت عن الماء حتى مايلائمُها لطافةً، وجفا عن شكلها الماءُ

فلو مزجْتَ بها نوراً لمازجها حتى تولَّدَ أنوارٌ وأضواءُ

ومعتمداً كذلك على الفهم والخيال لإدراك العلاقة بين المشبه والمشبه به. حيث يرتقي التشبيه لديه من الصور الحسية اليقينية إلى الدلالة التقريبية المجردة بمهارة قادرة على تداول الأفكار والمعاني المجردة كما تتداول الأشياء الحسية. فلذة طعم الشراب وهي لذة مذاق كلذّة نظر المحب إلى المحبوب وهي لذّة نظر.

قال:[٢٧٣]

اسقنا إن يومنا يوم رامِ ولرامٍ فضلٌ على الأيامِ[٢٧٤]

من شراب ألذُّ من نظر المَعشوقِ في وجه عاشق بابتسامِ

لا غليظ تنبو الطبيعة عنه نبوة السمعِ عن شنيع الكلامِ

وهذا يشير إلى أن لاحدود بين حواس الشاعر، فهو ينزع من حاسة إلى أخرى، بل

٢٧١- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٦ المقصود قوله:

قامت بإبريقها والليل معتكرٌ

فلاح من وجهها في البيت لألاء

٢٧٢- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٦

٢٧٣- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٦٩

٢٧٤- يوم رامِ: هو اليوم الحادي والعشرون من كل شهر. وكان الفرس يحتفلون به ويقصفون فيه.

يجمع بينهما في وحدة التأثير النفسي لتصبح حاسة واحدة. توحد بين المشاهد الخارجية والأحوال النفسية في كيان عضوي موحد. توحد بين شتى العواطف في النفس البشرية. فكما استطاع أن يلتذ بمذاقها كما يلتذ العاشق بالرنو إلى معشوقه، يستطيع أن يطرب بسماع اسم الخمرة كطربه في ارتشافها.

قال:(٢٧٥)

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولاتسقني سراً إذا أمكن الجهرُ

●الخمرة فيض نوراني تؤوق الرؤى إلى التطهر والخلاص:

وعندما تركع الأباريق، ويسجد البوح المزغرد من لحاظ الحبيب البديع الحسن الكامل الأوصاف.

قال:(٢٧٦)

وبـــديـــع الحســـن قـــد فـــاق الـــورشـــاحـــســـنـــاً ولـــينا
كـــلـــمـــا ازددتُ إلـــيـــه نـــظـــراً زِدتُ جـــنـــونـــا

عندما تقرع الكاس بالكاس، ويطيب شهد الحديث المضمخ بأنفاس الندمان الذي خلت نفسه من العيوب (٢٧٧) لابدَّ من نقر العيدان وشدو القيان.

قال:(٢٧٨)

فاشرب هُديت وغنِّ القوم مبتدئاً على مساعدة العيدان والنّاءُ

لابدَّ من توحد جميع الحواس في بوتقة الوجد الروحي والاحساس اللّذي، في

٢٧٥- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة:٢٨

٢٧٦- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١٣٨

٢٧٧- المقصود قوله:

وعاري النفس من حُلل العيوبِ غـدا فـي ثـوب لـذّاتٍ رحـيـبِ
تـفـرد بـالجمـال وقـال: هـذا مـن الـدنـيـا ولـذّتـهـا نـصـيـبـي

المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٣١٥

٢٧٨- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٣٦

٢٧٩- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٦٨٠

بوتقة وحدة الحياة النفسية لأقاصي أشتات الكيان البشري والعيش في حالات روحية نادرة حيث يتلاقى الزمان والأبدية، المادي والروحي، العقلي والغريزي، الصحو والغيبوبة، حيث ينفي الخير الشر، والشر الخير وتتشابه التخوم، فلا يتميز الذاتي عن الموضوعي، ويصبح الوهم العشوق الذي تخلقه ينابيع النشوة النواسية فيما وراء الحسّ أكثر الحقائق يقيناً وأسطع الأشياء صفاءً وألقاً.

ولما كانت خمرة الحسن تعني تارة السحر، وتارة الشمس، وتارة الضياء، وتارة تخطف الأبصار وهي تضحك وتفتر عن أوجه الندمان.

قال:[279]

تكاد تخطف أبصاراً إذا مُزِجتْ ... بالماء، واجتُليت في لونها الحالي[280]

تفترُّ في أوجه الندمان ضاحكةً ... كمثل درٍّ وهي من كفِّ لآلِ

فهذا يؤكد مرة أخرى على مقدرة الحسن في تداول الأشياء المادية تداولاً نفسياً يمور بوجدانية فياضة متألقة. وتوله أقرب إلى الحلولية الذاهلة في روح الخمر، كما تتوله روح بروح، ونفس بنفس نتيجة توحد ذاته في ذات الخمرة وذوبان روحه في روحها.

قال:[281]

ما زلتُ أستلُّ روح الدَّنِّ في لُطفٍ ... وأستقي دمهُ من جوف مجروحِ

حتى انثنيتُ، ولي روحان في جسدٍ ... والدَّنُّ منطرحٌ جسماً بلا روحِ

ومن يتابع شعر الحسن تظهر له هذه النزعة الوجدانية في كثير من القصائد متألقة ومحملة بأنداء التوجع الوجدي.

قال:[282]

أأدميت بالماء القَرَاح جبينها ... لتسمعَ في صحن الزجاج أنينها[283]

٢٨٠- اجتليت: عرضت مجلوة كالعروس. الحالي: الواضح.

٢٨١- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٩٢

٢٨٢- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٣٨

٢٨٣- الماء القَراح: الماء النقي.

فقد سمعت أذناك عند مزاجها أنيناً وألحاناً تجيبُ دنينها[284]

لما صحا بخندريس الحسن وحولها إلى نغمة علوية خالدة ولألاء من السموّ الفيضي يتهادى ويتأطر في مقدمة موكبه المقدس الجديد الذي تبناه وأخلص وجداً في الدعوة إليه.

المقدس البديل الذي سخر من القيم الحدِّية الثابتة والنهائية في المجتمع، ورفض حلولها والقائلين بها والمقيمين على حراسة مقولاتها. المقدس الذي هدف إلى تلبية حاجات الروح في اللحظة الحاضرة والواقع الراهن فأسعدها وأعتقها من سجن المجتمع، من سجن أعرافه وتقاليده وقيوده، وارتفع بها إلى عالم الحب، عالم السعادة، عالم الجمال، وأثار في الذات البشرية توهج الرؤى والتوق الغامر إلى المطلق لإكتشاف أسراره وخباياه. وهذا ما جعل من عشقه الخمرة عشقاً فاق كل عشق، فاق حتى عشقه النساء. فكانت بالنسبة إليه الأولى وكانت الكفاية والغاية. كانت بالنسبة إليه أشبه بالدين.

قال:[285]

فجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا

بل كانت الدين الذي عبد، الدين الذي قدس، وأسقط عليها أوصافاً الهية السمات سماوية الأوصاف.

قال الحسن:[286]

تحيّرتِ الأوهام دون صفاتها وجلّتْ صفاتٌ عن شبيه وعن ندٌ

ومن كانت في نظره الأولى والكفاية، من كانت بالنسبة إليه الدين واليقين والغاية، متناهية القدم متجردة الأبعاد، تقدمت على الخلق وسبقت في الوجود آدم، من ضنَّ بشربها عن اللئيم والعربيد والمجوس واليهود وحاملي الصلب وغرّ الشباب ومن يجهل الأدبا،[287] لأن نفسها طاهر البوح من أطيب الأنفاس.

٢٨٤- الدنين: الدندنة وهي النغم بغير كلام يُفهم.

٢٨٥- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٦١

٢٨٦- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٨٧

٢٨٧- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٩٢ المقصود قصيدته: خاطب الخمرة.

قال:(٢٨٨)

نَفَسُ المدامة أطيب الأنفاس   أهلاً بمن يحميه عن أنجاس

من تفردت بصفاتها فجلَّت عن الوصف حيث لاشبيهةٌ لها ولاندٌّ ينافسها،(٢٨٩) وسمت فوق العالم المحسوس لأنها قدرة،لأنها روح قادرة على الخلق، روحٌ خالصٌ وصليب خلاص، و.. فهل يمكن أن تكون جميع هذه الصفات صفاتٍ للخمرة التي يسعى بها السقاة إلى الشاربين في الحانات ويتمتع برحيقها الناس؟.. كلٌ الناس كما هو واضح من ظاهر المعنى. أم هي صفات لشيء أجلُّ وأسمى الخمرة النواسية رمزٌ له ومعلمٌ ومعنى؟.. وعندما يتكشف هذا الرمز ينتقل الإنسان من حالة السقم، الجهل، إلى حالة البرء حالة العلم لإدراك أسرار المعرفة.؟

قال:(٢٩٠)

فتمشت في مفاصلهم   كتمشي البُرءِ في السقمِ

وعندما ينعتها بالضوء... المعاد... الفرح... النشوء... التناهي.. التجلي... القداسة... الخالدة التي تعمى عنها المقادير... الذات العليا التي دقَّ معناها عن الوصف(٢٩١) وجَلَّتْ عن الإدراك،(٢٩٢) السلاف السلسل المحجوبة في دنها حقباً.

قال:(٢٩٣)

فسقينها سلافاً سلسلاً حُجبت   في دنُها حقباً في ركن ديماسِ

٢٨٨- المصدر السابق: الصفحة: ٢٢١

٢٨٩- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٧٢ المقصود قوله:

تمَّتْ فلم يرَ إنسانٌ لها شبهاً   فيمن برى الله من عجمٍ ومن عربِ

٢٩٠- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة:٤١

٢٩١- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٤٧ المقصود قوله:

دَقَّ معنى الخمر حتى   هو في رجمِ الظنون

الرجم: الغيب.

٢٩٢- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٦٩٦ المقصود قوله:

جلَّتْ عن الوصف حتى ما يطالبها   وهمٌ فتخلُقها في الوصف أسماءُ

٢٩٣- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٥٩

تشعر بأن الأمر أبعد وأجلُّ.. وأنه ربما كان يهدف ويسمو إلى الخمرة التي يمتزج فيها الإحساس بالفكر والروح، وتذوب النفس فيها توقاً إلى التطهر والخلاص، وتحمل في صفاتها صفات كل ما هو جميل ونقي. الخمرة التي قد توصل إلى اليقين أو التي قد ترمز إلى اليقين الذي يحمله الباطنيون سراً محجوباً؟.. أو ربما الخمرة التي عناها المتصوفون ورمزوا فيها إلى الخمرة الإلهية. وربما كان الأمر هذا وذاك معاً؟!..

مامعنى قوله عندما يصف ندمانه بأنهم:« شباب صدقٍ»[٢٩٤] «سادة نجب»[٢٩٥] «شم الأنوف»[٢٩٦] «منتقون مختارون»[٢٩٧] من يعاشرهم ويخالطهم يقتنع أنهم رفيعو المقام[٢٩٨] مميزون ليسوا من طينة البشر[٢٩٩]... وغيرها من الصفات الكريمة والخصال الحميدة. فهل يمكن لهذه الصفات وتلك الخصال أن تنطبق على الخلعاء والشاذين والسكيرين؟.. أم إنها صفات لرجال لهم من عصرهم موقف؟ ولهم في مجتمعهم قضية؟ صفات لرجال عندما تأخذهم نشوة السكر (اكتشاف اليقين) بفيضها

٢٩٤- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٢٩ المقصود قوله:

ومـجـلـس مـالـه شـبـيـهٌ ... حَـلَّ بـه الحسـن والجمـالُ
شـهـدتُـهُ في شـبـاب صـدقٍ ... مـا إن تُـسـامـى لـهـم فَـعَـالُ

٢٩٥- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة، ٤١ المقصود قوله:

فـي نـدامـى سـادةٍ نُجُـبٍ ... أخـذوا الـلـذاتِ مـن أمَمِ

أمم: قريب.

٢٩٦- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٥٩ المقصود قوله:

هـذا وذاك ونـدمـان لـهـم أدبٌ ... شُـمُّ الأنـوف سـراةٌ غـيـر أنـكـاسِ

شم الأنوف: كناية عن العزة. السُراة: أشراف الناس ورؤوسهم. أنكاس: مفرده نكس، وهو الجبان المذموم الصفات.

٢٩٧- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٢٢١ المقصود قوله:

صفـو الـنـعاشر في مجانبة الأذى ... وعـلـى الـلـبـيـب تـخـيـر الجلاَّسِ

٢٩٨- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١٤٤ المقصود قوله:

ونـادم إن شـربـت أخـا فـعـالٍ ... فـإن الشـرب يجـمـل بـالـقـروم
وأن المرء يـصـحـب كـل جـيـلٍ ... ويُـحـسـب في المدام إلى الـنديمِ

٢٩٩- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٢٤٠ المقصود قوله:

إذا تأملـتـهُ تـعاظـمـكَ الإقـرارُ فـي أنّـه مـن الـبـشـرِ

الإشراقي، وتثير فيهم الشجون والمواجع، وتحلق بهم تجليات علوية تُنهي إلى أسماعهم أسرار المعرفة، تترقرق دموعهم من فرح التجلي،.. فرح اكتشاف اليقين؟

قال يصف مجلساً من هذه المجالس:(٣٠٠)

ومُسمعةٍ جاءت بأخرس ناطقٍ	بغير لسانٍ ظلَّ ينطقُ بالسحرِ
لِتُبديَ سرَّ العاشقين بصوته	كما تنطق الأقلام تجهر بالّسر
أصابعها مخضوبةٌ وهي خمسةٌ	تَحْتِمْنَ بالأوتار في العسر اليسر
إذا لحقت يوماً لُوىَ أصبعٌ لها	تحكي أنين الصّب من حرقة الهجر
تقول وقد دبّتْ عُقارٌ كأنها	دمٌ ودموعٌ فوق خدٍ إذا تجري
سلامٌ على شخصٍ إذا ما ذكرتُه	حَذِرْتُ من الواشين أن يهتكوا سري
فبعض النُدامى في سرور وغبطةٍ	وبعض الندامى للمدامة في أسر
وبعضٌ بكى بعضاً ففاضتْ دموعُهُ	على الخدّ كالمرجان سال إلى النحرِ
فساعدتُهم علماً بما يورث الهوى	وأنّ جنونُ الحب يولعُ بالحُرُّ

وإلا مامعنى هذا الفيض من الدموع المرجانية؟ وماذا تعني هذه الأقلام التي تنطق جاهرة بالأسرار في جلسة شرب وسكر ومجون؟ إنه استدعاء غير مقبول لايمكن تفسيره الاّ إذا قبلنا بقراءة تأويله لكامل جلسة الشراب والطرب.

لأن المجلس الذي تنطق أقلامه بأسرار المعرفة وينتهي بمريدية وهم« خُرسٌ عن الخنا»(٣٠١) إلى هذه المواجد وهذا البوح بالشوق اللامحدود لاكتشاف خبايا أسرار العلم الذي يورث الهوى ويفضي إلى الولع المجنون بمن نحب ليس مجلساً عادياً لاحتساء خمرة فقط كالتي يتعاطاها الناس في المواخير والخمارات ومجالس الشراب العامة، وليس مريدوه بالناس العاديين.

٣٠٠- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٢٢٣

٣٠١- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٢٣ المقصود قوله:

ندامايَ طول الدهر خُرسٌ عن الخنا	وخُمصٌ عن العوراء نزةٌ عن الكبرِ

ثم مَنْ هذا الساقي الأغن الشادن الأحور[٣٠٢]؟ بديع الحسن[٣٠٣] يحيي ويميت[٣٠٤] من هذا الجليس الذي ليس من طينة البشر؟..

قال:[٣٠٥]

إذا تأمَّلتهُ تعاظمك الإقرار في أنّه من البشر

مَنْ هذا النديم الخالي من العيوب متفرد الجمال،[٣٠٦] لايباح باسمه بل يُكنى عنه بأوصاف ورموز تشير إليه؟

قال:[٣٠٧]

عرّضتُ بالشكوى لغيرك شُبهةً   وكنيتُ عنك وما أريد سواكا

أو ليست هذه الصفات وما تحمله من أشواق ومواجد، من تعظيم وتبتل، شبيهة بتلك التي خلعها الصوفيون على معشوقهم ورمزوا بها إلى الذات العليا؟

ومن يكون صاحب الوجه القرشي، العباسي النسب الذي يزين رأسه باكليل من الورد والآس يشبه اكليل ابن مارية، ويتحدث بلفظ ملتبس؟ كما جاء في قصيدة أخرى يصف فيها مجلس شراب.

٣٠٢- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٥٦ المقصود قوله:

وأحور لاتجاوزه الأماني   حلبت لورده ماء المآقي

٣٠٣- المصدر السابق، الغزالي، الصفحة:١٣٨ المقصود قوله:

وبديع الحسن قد فاق الرشا حسناً ولينا
كلما ازددتُ إليه نظراً زدتُ جنونا

٣٠٤- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٣٩ المقصود قوله:

صحيحٌ مريضُ الجفن شَذْنٍ مباعدٌ   يُميت ويحيي بالوصال وبالهجر

٣٠٥- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٢٤٠

٣٠٦- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٣١٥ المقصود قوله:

وعاري النفس من خَلَلِ العُيوبِ   غدا في ثوب فتّانٍ ربيبِ
تفرّد بالجمال وقال: هذا   من الدنيا ولذّتها نصيبي

٣٠٧- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٣٨٢

قال الحسن:[٣٠٨]

مُخنثِ اللفظ يُسبيني بمقلته | مُقرطقٍ قُرشيّ الوجه. عبّاسي
كأن إكليله تاج ابن مارية | إذ راح معتصباً بالورد والآس
وقد يغنيك من سكرٍ ومن طربٍ | والكأسُ تختالُ من ساقٍ إلى حاسِ

من المعروف أن يكون الإنسان مخنثاً، بمعنى أن يحمل صفات الذكورة وصفات الأنوثة، أي ملتبس الجنس أما اللفظ المخنث، فهذا يعني الإلتباس في المعنى، بمعنى أن يكون اللفظ رامزاً وله أكثر من معنى، بمعنى أن يكون له دلالات ضمنية غير ما تظهره الملامح الظاهرة. يعني أن ينطوي على باطن يخالف في معناه صورته الظاهرية. فهل يمكن أن يكون « ابن مارية» في الأبيات السابقة هو أحد غساسنة دمشق كما يقول السيد أحمد الغزالي محقق وشارح ديوان الحسن؟

أعتقد أن الأمر أبعد من ذلك بكثير، وأبعد من أن يكون وصفاً لنادل في خمارة أو لواحدٍ من السقاة في جلسة شراب عادية. أعتقد أن المقصود بابن مارية، هو ابن مريم الذي ألبسه العسكر ثوب أرجوان وعصبوا رأسه باكليل مضفور من شوك قبل صلبه.[٣٠٩] وإذا صحّ تقديرنا لهذا الأمر، فإن استدعاء شخصية ابن مريم الفدائية مع تاجها الذي تحول من إكليل شوك إلى إكليل ورد وآس. استدعاء الفادي عيسى الناصري ابن مريم، الشهيد الأصيل نور العالم[٣١٠] وصاحب رسالة الخلاص الإنساني هو المقصود. وفي هذه الحال يمكن إحالة كامل جلسة الشراب والشراب نفسه والشاربين روحياً إلى نموذج المسيح الفادي، المسيح الكرمة الحقيقية، ومصدر الإثمار الروحي،[٣١١] إلى جلسة روحية لتلقي اليقينيات من الأسلاف إلى الأخلاف «والكاس تختالُ من ساقٍ إلى حاسٍ»[٣١٢].

٣٠٨- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ١٥٩

٣٠٩- الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع عشر، الصفحة: ١٨٣

٣١٠- المقصود قول السيد المسيح: « أنا هو نور العالم من تبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة». الكتاب المقدس العهد الجديد، إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن، الصفحة: ١٦١

٣١١- المقصود قول السيد المسيح: « أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرّام... أنا الكرمة وأنتم الأغصان...» المصدر السابق الإصحاح الخامس عشر الصفحة: ١٧٦

٣١٢- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١٦٠

●الخمرة مشكاة الوهم الصوفي العشوق للمطلق.

ولايعدم الباحثون في شعر الحسن، وبشكل خاص في شعره الخمري وبعض شعر الغزل لديه، والدارسون للأدب الصوفي، من الأمثلة الجلية والعديدة التي تشير إلى نجاح الحسن في تناول بعض الألفاظ تناولاً مجازياً رامزاً استطاع من خلاله أن يكثف المعاني الدقيقة فيها ويحملها الطاقات الروحية الهائلة المتعالية الرامزة ما يقصر عنه كل ابداع. وكيف تحول هذا التناول الرامز لوسائل الحسن التعبيرية والعديد الساطع من صوره الشعرية بفضل الصوفية التي عملت على استثمار الجوهر الرمزي للقيم الدينية إلى منهل روحي يفيض بهالة من النورانية والأوصاف الإلهية نهل منه المتصوفة الإشراقيون[٣١٣] بعض رموزهم في تواصلهم مع الذات العليا بلألاء إشراقي ينوء بالمواجد والمواجع حيث تقلع هذه الرموز والمواجد بأرواح مريديها في صمت من إطار الحسية، من تخوم دار الغربة، من الواقع الراهن الذي يعيشون ضمن أجوائه ولم يستطيعوا أن يتكيفوا أو أن ينسجموا مع مفاهيمه وقيمه، وتلوذ بهم إلى دار الهجرة، دار الأمل المروم والحلم المرتجى.

فيغادروا أوطانهم عقلياً برضى نفسي وروحي خشوع شغوف قنوع. وتحلق بهم مواجدهم ومواجعهم إلى آفاق روحية عالية الطاقة علوية التجليات لمعانقة المطلق، لمعانقة النعيم المروم فيما بعد المدرك والمحسوس، وتفتح لهم كوى الخلاص الروحي التي تفضي إلى الإمساك بأسرار معرفة الوجود حيث يلتقي المهزومون اجتماعياً السالكون شوقاً، العارفون يقيناً مع الحبيب السرمدي.

وبهدف المثال لاالحصر دعونا نستمتع ببعض النماذج التي تشيرإلى الأوصاف التي خلعها كبار المتصوفة على خمرتهم الإلهية، وهي أوصاف ومعان كان الحسن قد جسدها في شعره الخمري وبعض شعر الغزل لديه، وحمّلها من مجاز المعاني ورموزها ما جعلها لغزاً من الألغاز وسراً من الأسرار. لا تفصح عن مكنوناتها الاّلمن كان قادراً على النفاذ إلى كنهها. إلاّ لمن كان قادراً على استشفاف أبعادها والسموّ إلى آفاق استشرافاتها

٣١٣- التصوف الإشراقي: Theo sophy تعاليم تذهب إلى القول بأن الله يمكن أن يُعرف عن طريق رابطة مباشرة مع العالم الآخر، وأن النفس الانسانية تُغير حضورها وغيابها على الأرض مرات عديدة إلى أن تكفر عن الخطيئة وتتحد بالله... ويعتمد التصوف الإشراقي على الروحانية الشرقية وبشكل محدد على فلسفات الشرق ودياناته القديمة.

قال الحسن:(٣١٤)

دقَّ معنى الخمر حتى هوَ في رَجْمِ الظنون
لم تقم في الوهم إلاّ كذبتْ عينَ اليقين
فمتى تدركُ مالا يتحرى بالعيون(٣١٥)

وقال ابن الفارض:(٣١٦)

صفاء ولا ماءٌ ولطفٌ ولا هوا ونورٌ ولانارٌ وروحٌ بلا جسمِ

وقال المنتجب العاني(٣١٧)

شربتها شعلةً بلا قبسٍ ونجتليها روحاً بلا جسدِ(٣١٨)

٣١٤- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٤٧

٣١٥- لقد كرر الحسن هذا المعنى في قصائد عديدة كقوله: الديوان تحقيق الغزالي، الصفحة: ٤٣

فمالك شيء لاتلامسه إلاّ بحس غريزة العقلِ

وقوله: المصدر السابق، الصفحة: ٥٦

أتت دونها الأيام حتى تمادم جسمها والروح باقِ

وقوله: المصدر السابق، الصفحة: ١٤

جاءت كروح لم يقم جوهر لطفاً به أو يُحجه نورُ

وقوله: المصدر السابق، الغزالي، الصفحة: ٢

فأتتك في صور تداخلها البلى فأزالهنّ وأثبت الأرواحا

وقوله: المصدر السابق، الصفحة: ٣٠

فإذا ما اجتليتها فهباءٌ يمنعُ الكفُّ ما تُبيح العيونا

٣١٦- ديوان عمر بن الفارض، الصفحة: ٨٨

٣١٧- المنتجب العاني: هو أبو الفضل محمد بن الحسن المنتجب العاني الخديجي المضري. وكان أجمل ما يُحب أن يدعى به لقبه المنتجب. وهو يعني: المنتقى المختار أو المصطفى المنتخب. أما نسبة العاني فربما ترجع إلى البلدة التي ولد فيها وهي عانة (قضاء في العراق لواء الدليم) يقع بين هيت والرقة. ويرجحُ أن المنتجب ولد حوالي سنة ٣٣٠ للهجرة من أبوين عربيين (مضري الأب والأم). وتوفي حوالي سنة ٤٠٠ هجرية. شاعر عربي عباسي صوفي من متصوفي القرن الرابع الهجري وشعرائه. ويعد من كبار شعراء الشيعة الباطنية. ترفد منابع ذوقه المنتجبي وشاعريته المطبوعة كما يقول الدكتور أسعد علي: وفردية موهوبة وقومية فصيحة، وانسانية كونية خالصة. عن فن المنتجب العاني وعرفانه، الصفحة: ٤٢٤

٣١٨- فن المنتجب العاني وعرفانه، الدكتور أسعد علي الصفحة: ٢٢٠

وفي معنى آخر قال الحسن:[٣١٩]

لي سكرتان وللندمان واحدةٌ شيءٌ خصصت به من دونهم وحدي

وفي ذات المعنى قال المكزون السنجاري:[٣٢٠]

أغنٌ تغني عن الصهباء ريقته وزهر خديه عن أزهار بستان

يُديرُ من طرفه ومن يده خمراً فسكر الندامى منه سكران[٣٢١]

ويذكرنا قول أبي نواس السابق وقول المكزون السنجاري بقول المنتجب العاني.

قال المنتجب:[٣٢٢]

٣١٩- ديوان أبي نواس: مصدر سابق، الغزالي، الصفحة:٢٧

٣٢٠- المكزون السنجاري: هو أبو محمد الأمير حسن بن الأمير يوسف والملقب بالمكزون السنجاري، والمكزون ربما كان بمثابة اسم لجده لقب به، أو بمثابة لقب أطلق عليه لصفات جسدية وفكرية. أما السنجاري فهي إشارة نسبة له. فهو من مدينة سنجار ولذلك نسب إليها. وهو صوفي وفقيه وشاعر. ويعتبر من كبار شعراء الشيعة الباطنية.

تحدر المكزون من أصل غساني قحطاني عربي، ويرجح أنه ولد في عام ٥٨٣ للهجرة/ ١١٨٧ ميلادية، وتوفي سنة ٦٣٨ للهجرة/ ١٢٤٠ ميلادية. أما عن نشأته فقد قيل فيها: «نشأ المكزون حسن بن يوسف على يد أبيه الأمير يوسف في سنجار. وقرأ دواوين أبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي والرضي والمرتضى. وحفظ خطب نهج البلاغة والقرآن عن ظهر قلب.. وأجاد السباحة والرمي،... وبرع في القنص والصيد، وتعلم الكردية.. وخلف أباه على امارة سنجار سنة ٦٠٢ للهجرة» عن تاريخ المكزون للشيخ يونس رمضان، المجلد الثاني الصفحة: ٣٤٠ وما بعدها.

وينفي السيد حامد حسن أن يكون المكزون أميراً على سنجار فيقول: «لم نعثر على ما يدل أو يشير بالتصريح أو التلميح أن الأمير حسن المكزون كان أميراً على بلدة سنجار، الموصل» عن معرفة الله والمكزون السنجاري، الدكتور أسعد علي المجلد الأول الصفحة: ٣٩٦

وقيل إنه لم يكن المكزون أميراً على سنجار فإنه كان أمير قبيلة عربية فيها.. وأنه هاجر إلى المناطق القريبة من سورية أو جاء غازياً، ففتح بلاد النصيرية وأنقذ العلويين من ظلم الصليبيين ومن تجاوزات مجاوريهم. عن تاريخ العلويين للطويل، الصفحة: ٣٠٦

ومن الجدير بالملاحظة أن المكزون عاش في زمن الدولة الأيوبية وانتقال مصر والشام من حكم الفاطميين، وزمان الدولة الأيوبية هو زمان الحروب الصليبية والصراع المذهبي بين الشيعة والسنة. بمعنى زمن الاضطراب والقلق والحروب، الذي يساعد على العودة إلى الله وانتعاش التصوف.

٣٢١- معرفة الله والمكزون السنجاري: أسعد أحمد علي، المجلد الثاني، الصفحة: ٢٣٦

٣٢٢- فن المنتجب العاني وعرفانه: مصدر سابق، الصفحة: ٤٢٤

فللندامى بها سكر ولي أبداً ... منها ومن ريقه المعسول سكران

وتلتقي مع خمرة الحسن في كثير من الصور والمعاني خمرة المنتجب العذراء التي هي روح بلا جسد والتي تفيأت وأدم ظلال جنة المأوى،[٣٢٣] لأنها قديمة، لأنها أقدم من كل قديم. ولولا التقى لقال عنها هي الربُّ؟

قال المنتجب:[٣٢٤]

قديمةٌ كانت ولا أولُ ... لولا التُقى قلتُ هي الربُّ

وقال الحسن:[٣٢٥]

فجاء بها زينبية ذهبيةً ... فلم نستطع دون السجود لها صبرا[٣٢٦]

لقد أُوتيت خمرة المنتجب علم الأولين وأسرار إدراك المعرفة كما أُوتيت قبلُ خمرة الحسن،[٣٢٧] لاتصال خمرة المنتجب الدائم خمرته الرمز بالنبع الكبير (رمز معرفة الله) فعندما ينهل من رحيقها له من سكره منها سكران في كل لحظاته يعبران عن وجده الصوفي المتعالي التوهج والإشعاع، عن سمة العمق والشمول والاستغراق بالذات الكلية.

٣٢٣- المصدر السابق الصفحة: ٢٢٠ المقصود قول المنتجب:

كانت وآدم في الظلال ذخيرة ... في جنة المأوى لدى رضوانه

بينما يقول الحسن: الديوان، الغزالي، الصفحة: ٤٢

ذُخرت لآدم قبل خلقته ... فتقدمته بخطوة القبلِ

٣٢٤- فن المنتجب: مصدر سابق، الصفحة: ٢١٩

٣٢٥- ديوان أبي نُواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٦١

٣٢٦- وكرر الحسن هذا المعنى في قصائد أخرى كقوله: الديوان، الغزالي، الصفحة: ٦٨٧

تحيرت الأوهام دون صفاتها ... وَجلَّتْ صفاتٌ عن شبيهٍ وعن نِدِّ

أوقوله أيضاً، المصدر السابق، الصفحة: ٦٩٦

جلَّتْ عن الوصف حتى ما يطالبها ... وهم فتخلقها في الوصف أسماءُ

٣٢٧- فن المنتجب: مصدر سابق، الصفحة: ٢٢٠ المقصود قول المنتجب:

راح تريح أخا التقى وتزيدُ ذا ... التوحيد إيماناً على إيمانه

بينما قال الحسن: الديوان: الغزالي، الصفحة: ٤١

عُتِّقت حتى لو اتصلت ... بلسانٍ ناطقٍ وفمِ

لاحتبت في القوم ماثلةً ... ثم قصَّت قصة الأممِ

وفي حالات الوجد الصوفي تفيض الدموع حرقةً وشوقاً، وتثور الشجون والمواجع وجداً وتوقاً إلى الحبيب السرمدي. فتتجاوز كل شيء ولا يعلو عليها شيءٌ.

قال الحسن:(٣٢٨)

فبعض الندامى في سرورٍ وغبطةٍ	وبعض الندامى للمدامة في أسرِ
وبعضٌ بكى بعضاً ففاضت دموعهُ	على الخدِّ كالمرجان سال إلى النحرِ

وقالت رابعة العدوية:(٣٢٩)

٣٢٨- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٢٢٣

٣٢٩- رابعة العدوية: امرأة من البصرة كانت تعزف بالمعازف ثم تنسكت وأصبحت زاهدة عابدة محبة لله. لم تعرف سنة ميلادها، ويرجح أنها توفيت بظاهر القدس، وقيل في البصرة عام ١٣٥ للهجرة/ ٧٥٢ ميلادية. نشأت رابعة في بيت فقير، وتذكر المصادر أنها مولاة آل عتيك الذين يُفترض أنهم من مرو ثم انتقلوا إلى البصرة هم ومواليهم. فهل تكون رابعة من أصل إيراني؟ ربما يؤيد هذا الزعم اشتغالها بالعزف على الناي، وهي حرفة كادت تقتصر ممارستها على الفرس.

لم يعرف اسمٌ لأبيها؟ بينما ذكر البعض أن اسمه إبراهيم، ربما كان نتيجة الخلط الذي جرى بين رابعة أو رابعة بنت اسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواري، وبين رابعة العدوية القيسية البصرية الزاهدة. وبقاء اسم أبيها مجهولاً يطرح عدداً من الأسئلة وهي: هل كان والدها فارسياً أم من عنصر آخر؟ ومتى أسلم؟وعلى أي ديانة كان قبل اسلامه؟! وهل كان في الأصل مسيحياً وأسلم أم الذي أسلم هو رابعة بعد أن عانت من الرق؟ وإذا كانت مسيحية ثم أسلمت فهل يجعلنا هذا الأمر أن نستبعد العنصر الفارسي في مذهب رابعة الروحي (فكرة الحب الالهي) ويدفعنا إلى تغلب افتراض التأثير المسيحي؟ أسئلة أثيرت دون أن يوجد لها جواب.

يقال: لمّا كبرت وتوفي والدها حدث قحط في البصرة فتفرقت وأخواتها الثلاث يهمن على وجوههن. فرآها ظالم أسرها وباعها بستة دراهم لرجل أثقل عليها العمل فأرهقها وأعنتها مما كان له الفضل في انفجار روحها النبيلة وهيأها لرسالتها الروحية؟ ويقال أيضاً أنها لما أعتقت نسيت رسالتها الروحية واندفعت إلى المشاركة في حياة الدنيا فأوغلت في طريق الشهوة الجامحة ما وسعها الإيغال ثم تابت. ولكن كيف تمت توبتها؟ وما الذي دعاها إلى تغيير طريقها؟!

لابد أن يكون هناك عوامل متعددة للجواب على هذا السؤال ربما تضافرت وساعدت على الانقلاب الروحي عندها. منها حنينها الدائم إلى رسالتها الروحية التي أشرقت داخلها وهي في الرق، ومازالت تثور في منطقة اللاشعور لديها تنبيهات متوالية. وكذلك علاقتها برياح بن عمرو القيسي الصوفي الكبير. وربما توجت هذين الأمرين تجربة بائسة لحب مخفق فجّرت هذا الانقلاب.

لُقبت رابعة بأم الخير، وهي تنسب إلى الجيل الأول من الصوفيين المسلمين الذين أشاعوا في التصوف روحاً جديدة فأدخلت على التصوف فكرة الحب الإلهي المنزه عن الغرض بدلاً من الخوف والرهبة حيث استوعب حب الله لذاته قلبها. فقالت لما سُئلت عن حبها للرسول عليه الصلاة والسلام: (إني والله أحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين).

كم بثّ من حرقي وفرط تعلقي ... أجري عيوناً من عيوني الدامعة

لاعبرتي ترقا ولاوصلي له ... يبقى ولا عيني القريحة هاجعة[٣٣٠]

ويقول ابن الفارض:[٣٣١]

هي أدمعُ العشّاقِ جاد وليُّها الوادي ووالى جُودُها الألواذا[٣٣٢]

ريمُ الفلا عني إليك فمقلتي ... كُحِلتْ بهم لايَغضِها استيخاذا[٣٣٣]

وبالمقابل لنستمع إلى مسيل دمع المنتجب وهو يدفعه في دروب الشوق يبكي ويستبكي علّ روحه الأسيرة في قفص جسده تنطلق وهي تبكي شوقاً واشتياقاً إلى وطنها الأول، إلى غايتها حيث الراحة المثلى، حيث الحبيب المرتجى قربه، حيث نعم الهيام ومتع الحب الإلهي.

قال المنتجب:[٣٣٤]

فيا صاحبي والصبُّ ما انفكَّ في الهوى ... يُناجي بشجو الحُبِّ من بات يصحبُ

أَعني على وجدي القديم بوقفةٍ ... على ملعبٍ لم يبقَ لي فيه ملعبُ

نُمَحِّ مُجنةً إن كنت للخلِّ مسعدا ... وخلِّ دموع العين في الدار تُسكبُ

لعلَّ مسيل الدمعِ يُعقبُ راحةً ... فيطلق من أسر الغرام المعذَّبُ

ألا تذكرنا هذه الأبيات وأبيات أخرى للمنتجب [٣٣٥] بأبيات الحسن التي يعبر عن تلهف العاشق لحبيبه وشوقه إليه، عن دموع العشق تفيض وجداً إلى الحبيب.

٣٣٠- رابعة العدوية والحياة الروحية في الاسلام: طه عبد الباقي سرور، الصفحة:١٠١

٣٣١- ديوان ابن الفارض: مصدر سابق، الصفحة:١٦

٣٣٢الألواذا: جمع لوذ: وهو جانب الجبل

٣٣٣- الريم: الظبي الخالص البياض. الفلا: المفازة. الاستيخاذ: تنكس الرأس.

٣٣٤- فن المنتجب العاني وعرفانه: مصدر سابق، الصفحة:٢٢٢

٣٣٥- المصدر السابق، الصفحة: ٢٢٨ المقصود قول المنتجب.

لو قيل للقلب ما تختار من أربٍ ... لكان وصلكم أقصى أمانيه

ما زلت أنثر عقد الدمع من أسفٍ ... حتى رجعن يواقيتاً لآليه

قال الحسن:[٣٣٦]

فما زال يسقينا بكأسٍ مُجدَّةٍ	ثُولي، وأخرى بعد ذاك تؤوبُ
فمن كان منا عاشقاً فاض دمعُه	وعاوده بعد السرور نحيبُ
فمن بين مسرور وباكٍ من الهوى	وقد لاح من ثوب الظلام غيوبُ

ألا تذكرنا بلواعج حبه الكبير لمن يحب.[٣٣٧] حبه الذي هو أهل له وليس حب الهوى فقط كما عنت رابعة العدوية،[٣٣٨] وهو حب لم يكن باعثه نعمة ولامدخل فيه للمتع الحسية. بل هو حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذي الجلال حب باعثه المحبوب نفسه لذاته وبذاته.

قال الحسن:[٣٣٩]

إنـي لـصـبٌّ ولا أقـول بـمَنْ	أخافُ مَنْ لايخافُ من أحدِ
إذا تـفـكـرتُ فـي هـوايَ لـه	مسست رأسي هل طار عن جسدي؟
إني على ما ذكرت من فرقي	لآمـل أن أنـالـه بـيـدي

لأن حب التعظيم والإجلال لوجه المتجلي ذي الجلال، هو حب الخير المطلق والكمال المطلق والجمال المطلق. هو الحب الكبير الذي ترعرع ونما وأربى حتى شمل كل شيء وسما فوق كل صقع.

٣٣٦- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١١١

٣٣٧- المصدر السابق: الغزالي الصفحة: ٣١٨ المقصود قول الحسن:

أموتُ ولاتدري رأنت قتلتني	فلا أنا أبديها ولا أنتَ تعلمُ
لساني زتلبي بكتمان هواكم	ولكن دمعي بالهوى يتكلمُ
ولو لم تبُح دمعي بكتمان حبكم	تكلم جسمٌ بالنحول يترجمُ

٣٣٨- اتحاف السادة للزبيدي، الجزء التاسع، الصفحة: ٥٧٦ المقصود قول رابعة:

أحبك حبين حبٌّ الهوى	وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له	فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولاذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

٣٣٩- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٤٢٥

قال الحسن:[٣٤٠]

فالحب فوقي سحابُ والحب تحتي سيولُ
وللصبابة حولي مدينةٌ وقبيلُ
وللحنين بقلبي محلةٌ ومقيلُ
وليس حولي إلاّ رياحُ حبٍ تجولُ

ومن خلال هذا التصور يتسع قلب الحسن ليحتوي تناقضات الواقع وصراعاته وقباحة العالم وشراسة صراع الكائنات فيه على جميع المستويات ويتجاوزها ولو على نطاق الحلم الكبير والأمل المروم اللذين يفتحان أبواب الحياة وسرّ الخلود السرمدي علّهُ يمارس إنسانيته الخيرة وحريته الحقة، ورؤيته المتفائلة بشكل أفضل وأكمل. علّه يضم جميع الأديان والاعتقادات في دين واحد هو دين الحب الشامل.

قال الحسن:[٣٤١]

مزجتُ ديني بدين الروم فامتزجا كالماء يُمزجُ بالصِّرف الرساطونِ
فلست أبغي بها ياعاذلي بدلاً إذ صار لي بهمُ دينانِ في دينِ

وتذكرنا مقولة دين الحب الشامل عند الحسن بهذا القدر أوذاك بعقيدة الحب الشاملة عند ابن عربي، حيث انتهى على مستوى الفكر والعقيدة إلى مذهبه في وحدة الوجود ووحدة الأديان والحقيقة المحمدية.

قال الشيخ محي الدين عربي[٣٤٢]

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائفٍ وألواح توراةٍ ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحبُّ أنّى توجهتْ ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني

لقد دعا ابن عربي إلى مقولة الدين العالمي المنفتح، والرحمة الالهية الشاملة التي فُتح

٣٤٠- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٢٨٦

٣٤١- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٣٠٥

٣٤٢- ترجمان الأشواق: للشيخ محي الدين محمد بن عربي، الصفحة: ٤٣

الوجود بها، بعد أن أدار ظهره لقوانين العالم الموضوعية وحكامه وناسه وحلق فوق الزمان والمكان ليخلق عالماً طوباوياً للواقع منسجماً متناغماً متكاملاً على مستوى الفكر وفوق القرطاس ، يهديه ويرشده ويحكمه الإنسان الكامل خاتم الولاية المحمدية الخاصة وظل الله وصورته بكل قوانين العدل والرحمة والحب. ربما كان هذا الإنسان ابن عربي بالذات؟ وربما كان المقصود به هو الإمام الفقيه العالم المرشد؟ وربما كان بالنسبة لبعض الفرق والمذاهب أحد آيات الله؟ حتى يحين موعد خلاص العالم بنزول خاتم الولاية العامة عيسى ؟ أو عودة الغائب أو مايسمى بظهور المهدي المنتظر.. الذي سيعيد للعالم توازنه ,والأمور إلى نصابها.

وعندما ينعت الحسن خمرته بالقدسية والتناهي كما تقدم معنا ذكره[٣٤٣] نرى خمرة عمر ابن الفارض الإلهية المحتد تتبرج متوشحة أوصاف الخمرة النواسية بعد أن تزيت بزيِّ صفاتها.

قال ابن الفارض:[٣٤٤]

ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانها	ولولا سناها ما تصورها الوهمُ[٣٤٥]
ولم يُبْقِ منها الدّهرُ غير حشاشةٍ	كأنَّ خفاها في صدور النُّهى كتْمُ[٣٤٦]

حتى إن النشوة التي توريها خمرة ابن الفارض في كيان عاشقها تحاكي بحسن تجلياتها وسحر تأثيرها النشوة النواسية.

قال ابن الفارض:[٣٤٧]

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً	ومن لم يمت سكراً بها فاته الحزمُ

٣٤٣- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٧٣ المقصود قوله:

أعطتك ريحانها العقارُ	فكان من ليلك إنسفارُ
عادت إلى جوهر لطيف	عيانُ جوهره خمارُ

٣٤٤- ديوان ابن الفارض، مصدر سابق، الصفحة: ٧٥

٣٤٥- الشذا: قوة ذكاء الرائحة. الحان: حانوت الخمار. والسنا: النور

٣٤٦- الحشاشة: بقية الروح. النُّهى: جمع نهية وهي العقل. الكتم: الستر والإخفاء.

٣٤٧- ديوان ابن الفارض، مصدر سابق، الصفحة: ٧٧

وقال الحسن:[348]

فما الطيش الاّ أن تراني صاحياً وما العيش الاّ أن ألذّ فأسكرا

وقال أيضاً:[349]

فما الغبن إلاّ أن تراني صاحياً وما الغُنْمُ إلاّ أن يتعتعني السكرُ

وهي نشوة مهما كثر اللائمون عليها المطالبون بتركها والابتعاد عنها، فإن لومهم لن يزيد الحسن، وكذلك ابن الفارض الاّ عشقاً وتمسكاً بها.

قال الحسن:[350]

ومُلِحّةٍ في العذل ذاتِ نصيحةٍ ترجو انابةَ ذي مجونٍ مارقِ[351]

بكرت تُبصرني الرشاد وشيمتي غير الرشاد ومذهبي وخلائقي[352]

لما ألحّت في العتاب زجرتها فتأخرت عني بقلبٍ خافقِ[353]

كم رُضتُ قلبي - فاعلمي - وزجرتُهُ فرأى اتباع الرشدِ غير موافقِ[354]

وقال ابن الفارض:[355]

يا عاذل المشتاق جهلاً بالذي يلقى مليّاً لابلغتَ نجاحا

أتعبت نفسك في نصيحة من يرى أن لا يرى الإقبال والإفلاحا

إن رُمتَ إصلاحي فإني لم أرد لفساد قلبي في الهوى إصلاحا

ماذا يريد العاذلون بعذل من لبس الخلاعة واستراح وراحا

348- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة:101

349- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة:28

350- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: 318

351- الملحة: من الإلحاح. العذل: اللوم. الإنابة: التوبة.

352- بكرت: عجلت.

353- زجرتها: منعتها ونهيتها.

354- رُضت: ذلّلتُ

355- ديوان ابن الفارض، مصدر سابق، الصفحة: 67

نشوة لها في رؤوس عشاقها من الأصفياء الأطهار، الكرماء الشرفاء[٣٥٦] سورة تزيد السفيه سفاهة، وتترك أخلاق الكريم كما هيا.[٣٥٧] بل تهذب أخلاق من يستطيع أن يرتفع إلى شرف معاقرتها.

قال ابن الفارض:[٣٥٨]

تهذب أخلاق الندامى فيهتدي بها لطريق العزم من لاله عزمُ

ويكرمُ من لايعرف الجود كفُّهُ ويحلمُ عند الغيظ من لاله حلمُ

ولو نال فدمُ القوم لثم فدامها لأكسبه معنى شمائلها اللَّثمُ[٣٥٩]

وعلى ذكر الأصفياء الأطهار الكرماء الشرفاء من الندمان قال الحسن في وصف النديم:[٣٦٠]

ألفيته بدراً يلوح بكفه بدرٌ جمعتهما لعين الرائي

وقال المنتجب:[٣٦١]

فاعجب لشمس بدت في كف بدر دُجى على زمورٍ ونايات وعيدانِ

فمن يكون هذا النديم الحبيب؟ الخالي من العيوب الذي يشبه الشمس بهاءً وجمالاً؟ من يكون هذا الحبيب المعلل بديع الحسن يلوح من خلال السحاب[٣٦٢] وقد

٣٥٦- الفكاهة والايتناس: مصدر سابق، الصفحة: ٦١ المقصود قول الحسن:

أُجلُّ عن اللئيم الكأس حتى كأنَّ الخمرَ تُعصر من عظامي
وأسقيها من الفتيان مثلي فتختال الكريمة في الكرامِ

٣٥٧- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٢١٣ المقصود قول الحسن

تزيد سفيه القوم فضل سفاهةٍ وتترك أخلاق الكريم كما هيا

٣٥٨- ديوان ابن الفارض: مصدر سابق، الصفحة: ٧٦

٣٥٩- الفدم: البليد. والفِدام بالكسر غطاء إبريق الشراب. والشمائل: الخصال.

٣٦٠- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١٩٥

٣٦١- فن المنتجب العاني وعرفانه: مصدر سابق، الصفحة: ٤٢٤

٣٦٢- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ١٨٨ المقصود قول الحسن:

ومختلسِ القلوب بطرف ريمٍ وجيد مهاةِ بيرٍ ذي هضابِ
إذا امتحنت محاسنه فأبدتْ غرائب حسنه من كلِّ بابِ

أمسك بيديه الكريمتين حياة الحسن الصب دنفاً، المتيم شوقاً يتصرف بهما كيفما شاء ومثلما يريد.

قال الحسن:[٣٦٣]

أنا مستهتر بحبك صبٌّ لستُ أشكو هواك إلاّ إليك

يا بديع الجمال والحسن والدَّلِ حياتي ومنيتي في يديك[٣٦٤]

أترك الجواب لأم الخير وشهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية القيسية البصرية الزاهدة التي ادخلت على التصوف فكرة الحب الالهي المنزه عن الغرض ولأول مرة.

قالت رابعة:[٣٦٥]

يا طبيب القلب يا كُلَّ المنى جُد بوصلٍ منك يشفي مهجتي

يا سروري وحياتي دائماً نشأتي منك وأيضاً نشوتي

وقالت أيضاً:[٣٦٦]

تقاصرت العيونُ له وأغضت عن اللحظاتِ، خاضعة الرقاب
له لقبٌ يليق بناطقيه بديعٌ ليس يُعجم في كتاب
يُقالُ له المدلَّلُ وهو عندي كما قالوا وذاك من الصواب
يُدللنا بصافيةٍ ووجهٍ كبدرٍ لاح من خلل السحاب

٣٦٣- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة: ٣٨٠

٣٦٤- وأكد الحسن في قصائد متعددة على الصفات الجليلة التي خلعها على معشوقه. منها قوله متغزلاً في محبوبه الأسمي:

عذبتُ عنك بمنطقي فعداكا وشكوتُ غيرك إذا رأيت هواكا
عرضتُ بالشكوى لغيرك شبهةً وكنيتُ عنك وما أريد سواكا

الديوان: الغزالي، الصفحة: ٢٨٢

ومنها قوله أيضاً: الديوان: الغزالي مصدر سابق، الصفحة: ٢٤٠

إني صرفت الهوى إلى قمرٍ لا يتحدى العيون بالنظر
إذا تأملته تعاظمك الإقرارُ في أنه من البشر
مباحةٌ ساحة القلوب له يأخذ منها أطايب الثمرِ

٣٦٥- شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية: عبد الرحمن بدوي، الصفحة: ٥٢

٣٦٦- المصدر السابق، الصفحة: ١٦١

ياسروري ومنيتي وعمادي	وأنيسي وعُدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي	أنت لي مؤنس وشوقك زادي
حبك الآن بغيتي ونعيمي	وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حييتُ براحٌ	أنت مني ممكن في السواد[٣٦٧]

لقد أشرت خلال هذه القراءة إلى بعض الصلات والوشائج التي ربطت الحسن ببعض شعراء الصوفية ووصلته بهم فكراً وفناً ورؤية. وبشكل خاص في موضوع الخمرة وبعض شعر الغزل لديه. وكيف استفاد شعراء الصوفية من رموزه وسبل تعبيره في تواصلهم مع الذات العليا ومن دوره الكبير في مجال تعميق مفهوم الرمز، مما أهله لأن يكون المعلم الأول لمن جاء بعده من المتصوفة. فهل يمكن أن تشير هذه الريادة إلى أن الحسن كان شاعراً متصوفاً؟ أو يمكن أن يحسب على أحد الاتجاهات الصوفية في عصره؟

أعتقد أن الأمر عند الحسن يختلف مع المتصوفة بشكل بيّنٍ ممارسةً، ولا يرتقي إلى مستوى التطابق التام فكراً وفناً ورؤية حتى يُنعت بها. على الرغم من لقائهم معه في رفض فهم عدد من القضايا والشعائر والطقوس الدينية فهماً ظاهرياً. وضرورة تجاوز الوقوف في فهمها عند ظواهر النص من خلال الاجتهاد في التأويل والتفسير حتى ولو أدى الأمر إلى الخروج عن المألوف وتقديم فهم جديد للطقوس، وللحلال والحرام، كالموقف من الخمرة، ومن مفهوم الصلاة والصوم... وغيرها من طقوس العبادات.

قال الحسن:[٣٦٨]

٣٦٧- لقد أكدت رابعة العدوية على فكرة الحب الإلهي المنزه عن الغرض في أكثر من مقطوعة. منها ما أورده الزبيدي في اتحاف السادة الجزء التاسع الصفحة: ٥٧٧ قالت رابعة:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي	وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانسٌ	وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ومنها ما روى عن أحمد بن أبي الحواري، قال سمعت رابعة في حال الحب تقول:

حبيبٌ ليس يعدله حبيب	ولا كسواه في قلبي نصيبُ
حبيبٌ غاب عن بصري وشخصي	ولكن في فؤادي ما يغيب

عن شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية. مصدر سابق الصفحة: ١٣٠

٣٦٨- ديوان أبي نواس: الغزالي، مصدر سابق، الصفحة: ٢٠٥

عـاذلـي فـيـهـا أطـعـنـي رأقـــلّ الآن لـــومـــي

واشـــرب الـــراح ودعـــنـــي مـــن صـــلاة كـــل يـــومِ

وإذا مـــا حـــان وقـــتٌ لـــصـــلاةٍ أو لـــصـــومِ

فـــارفـــع الـــصـــوم بـــشـــربٍ وامـــزج الخمـــر بـــنـــومِ

أبـــداً مـــا عـــشـــت خـــالـــف دأب قـــوم بـــعـــد قـــوم

وقال أيضاً:[٣٦٩]

وحين حانت صلاتنا لضحى قمنا نصلي بغير تكبير[٣٧٠]

وكذلك في لقائه معهم في الحلول التي طرحت كأساس لحل أزمة اغترابهم من خلال تأكيد الحسن على حريته وتعاليه وانفصاله فكراً ورأياً وسلوكاً ومنحىً عن مجتمع يطحنه النفاق وتغلّفه المظاهر الخادعة.

لقد أكد المتصوفة وهم المهزومون في ميدان الحياة على العلاقة الباطنية التي تصل بين الذات والمطلق والتي لايمكن أن تتجلى الاّ من خلال توق الإنسان الشغوف إلى معانقة هذا المطلق والإمساك بسرّ الوجود. فعملوا بشكل عام على تحويل وظيفة النص الاجتماعية الإنسانية إلى وظيفة غنوصية[٣٧١] سرية بواسطة توليد صيغ موغلةٍ في

٣٦٩- المصدر السابق: الغزالي، الصفحة:١٤٦

٣٧٠- وللمزيد من التفصيل والمقارنة الموثقة بين الحسن وشعراء الصوفية حول الموقف من طقوس العبادات، يمكن الرجوع إلى الباحثة الدكتورة أحلام الزعيم في دراستها القيمة«أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد» الباب الثاني الفصل الأول «ملامح التصوف في شعر أبي نواس».

٣٧١- الغنوصية: Gnosticts، نسبة إلى حركة فلسفية ودينية نشأت في العصر الهلنستي تُنسب إلى «غنوصيص». وأساسها أن الخلاص يتم عن طريق العرفان أو الالهام الإلهي الذي لاينقطع بانقطاع الرسل. فهو «وحي مسترسل» لايترك أي مجال للعقل. وهذا يعني إيجاد مصدر آخر للمعرفة غير العقل.

لقد مزج مريدو هذه المدرسة بين اللاهوت المسيحي للمسيحية في قرونها الأولى وديانات الشرق القديمة كالبراهيمية والبوذية وغيرها. وبين الأفلاطونية الجديدة Neo platonism التي كان لها تأثير كبير على تطوير الفلسفة في المجتمعات الإقطاعية في البلاد المسيحية والاسلامية على حد سواء.

كان الغنوصيون يؤمنون بصلة أولى روحية لايمكن إدراكها تبدى في الفيض وتتعارض مع العالم المادي الذي هو مصدر الشر. أو كما تقول الأفلاطونية الجديدة: تتبدى بالانبثاق الصوفي من عنصر روحاني عن طريق الوجد والإشراق الصوفيان، لا عن طريق التجربة والعقل.

تأويلاتها لكثير من المفاهيم، يكون الإقرار بالعجز الإنساني فيها هو غاية المعرفة ومنتهاها في نهاية المطاف.

بمعنى لم يعد الهدف من الاستجابة لأوامر الوحي لدى الفرق الصوفية تطبيق استشرافات هذه الأوامر والتوجهات على سلوك الأفراد والمؤسسات الاجتماعية لإقامة مجتمع العدل والديمقراطية والحرية، مجتمع الخلاص العام والعيش الآمن، وتأمين حاجيات الإنسان المادية بشكل أفضل، وإثراء توجهاته الروحية. بل تحول الهدف بمفهومهم إلى هروب من الواقع ومايفرضه من مهام دنيوية واجتماعية جليلة، دينية وسياسية، واقتصادية، وانسانية. وكذلك لدى فقهاء السلطةفي الطرف المقابل الذين يعملون بإيحاء منها ويدافعون عن بقائها من خلال تصويرهم للناس أن غاية الدين ووظيفته تتلخص في تجنب الفتنة وإطاعة أولي الأمر والتمسك بالعفة والطهارة والنقاء والخلود إلى التبتل والانقطاع إلى الله بهدف الخلاص الفردي والنجاح في الآخرة.

وبذلك يتحول الصراع الاجتماعي والتمايز الطبقي والاضطهاد القومي عند هؤلاء جميعاً إلى صراع ديني فردي بين روح الإنسان وجسده ضد وساوس الشيطان وخطرات النفس الأمارة بالسوء ومطالب الجسد، يَدْغَمُ في بوتقته جميع معالم الصراع الحقيقية ويُقفطن أهدافها. تغدوا الحياة الدنيا بجميع أهدافها ومهامها مجرد طريق للسفر يعرج من خلاله الإنسان عن طريق المجاهدة والزهد بأمور الحياة، بالروح والقلب دون الجسد إلى عالم الغيب والملكوت، عالم الحقيقة المطلقة، إلى مجرد رحلة جلّ مبتغاها تطهير الروح والنفس من شهوات الجسد للوصول إلى المطلق، للوصول إلى عالم معرفة الله والاستغراق بجمال الحضرة الربوبية وجلالها. إلى معانقتها والفناء فيها لتحقيق الفوز والفلاح الفردي الأخروي الذي هو غاية الغايات ومنتهى الآمال.

بينما تُنبئ حياة الحسن وفنه، شعره وممارساته عن انتهاجه طريقاً آخر غير طريق التبتل والخلاص الفردي الأخروي، منهجاً ينسجم وطريق رجل ينتمي إلى تيار المعارضة السياسيةبصفته شيعياً باطنياً له موقف، وعنده قضية حاول أن يسعى إليها ويدافع عن مثلها من خلال موقف سياسي ومعتقدي معارض يمتشق التقية درعاً، والتماجن والتعابث والتهتك أسلوباً والتحرر الفكري والأخذ بمبدأ الإجتهاد والتأويل وتحقيق الوجود الإنساني الأمثل رؤية.

هذا الانتماء يمثل حجر الزاوية في لقاء الحسن مع المتصوفة لابصفته متصوفاً بل

بصفته شيعياً باطنياً. ولايعدم الباحث من تلمس وجوه هذا التلاقي بين الفئات الباطنية من الشيعة والمتصوفة. فالشيعة في نظرتهم إلى العقيدة والذين سعوا إلى إيجاد قيم روحية مؤولة عن النصوص الظاهرة، وتوليد أبعاد موغلة في التأويل للدفاع عن حقهم المستلب. وكان الرمز لديهم الذي هو وجه من أوجه التقية (تبعاً لظروف القتل والتعذيب والتنكيل التي كانوا يتعرضون لها) قد رافق بدوره الكثير من معاني الصوفية ومصطلحاتهم. وهذا ماجعل التأويل الباطني عند الفرق الباطنية يتفق كل الاتفاق مع التأويل الصوفي ويصبح الباطن لدى الصوفية كما هو لدى الشيعة الباطنية الأساس الفكري لعقيدة التصوف. كما جعل التصوف في أغلب الأحيان يقترن بالتشيع والباطنية.

لذلك جنح الحسن في ممارساته وشعره بعد أن فقطن قامته المتميزة وبرقع وجهه المتفرد اضطراراً لا اختياراً لضرورات تتعلق بسلامته وأمن حياته إلى رفض السلطة السياسية القائمة من خلال فضح آليات فسادها وشرورها ونقائصها. وتصوير واقع العلاقات الاجتماعية السائدة كنموذج أمثل للضعف والفساد والنفاق الديني والاجتماعي، وتهالك رموزها على الملذات وارتكاب المعاصي والانحراف عن المعايير الأصيلة للدين وتقزيم استشرافاته، وتحويل الإنسان فيه مجرد بوق منفعل الإحساس ناشز الجرس أجنبي النغم في جوقة المطبلين والمزمرين للخليفة العباسي وبطانته.(٣٧٢)

وبصفته منتمياً إلى الشيعة الباطنية دعا إلى التوحد مع المطلق إلى العمل للحياة الآخرة من خلال تأسيس مجتمع العدل والحرية على الأرض لإشباع حاجيات الإنسان المادية وإثراء توجهاته الروحية. وتمنى أن ينهض بناء واقع حيّ متفاعل يقوم النص فيه بدور المرشد والهادي. وهو توجه ينسجم تماماً مع مبادئ الإسلام كشريعة وعقيدة تناهض الاستبداد والظلم الاجتماعي وتضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة باعتبار أن البشر كلهم متساوون في الخلقة ومن منبت واحد الطين.

٣٧٢- لقد حاول الحسن أن يكون واحداً من بطانة الخليفة شاعراً ونديماً وسميراً فتقرب من الرشيد وأصبح نديماًللأمين. ليس بهدف الحصول على الثروة والجاه.وقد عرف عنه أنه أزهد الناس في السعي للثروة والجاه. بل ليكون قريباً من السلطة يدخل القصور ويطلع على ما يجري خلف الستور بهدف تعرية الحقائق وجلائها. ليكون أقدر على فضح السلطة وكشف عوراتها وممارساتها ومخازيها من فوق بساطها وبطريقته النواسية المتماجنة التي تمزج الهزل بالجد وتخلط المواقف الجادة بالعبث والمجون.

جاء في المصحف:[٣٧٣]

﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من طين، فإذا سويتُهُ ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكةُ كلُّهم أجمعون.﴾

توجه ينسجم والتعاليم الدينية التي لم تفرض تعارضاً ما بين الدنيا والآخرة، حيث طلبت من المؤمن أن لاينسى نصيبه الكريم الهني من الحياة فيعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لأخرته كأنه سيموت غداً. وبذلك يمكن أن يجمع بين الجنتين، جنة الحياة الدنيا وجنة الأخرة، وهما الهدف الأسمى والمنتهى الأجمل لوجود الإنسان في الحياة باعتباره صاحب الكون الذي لاح الوجود بوجوده إذ كرمته آيات القرآن فوضعته فوق الملائكة، لأنه يمثل القيمة التي اجتمعت فيها حقائق الوجود وحقائق الألوهة في نفس الوقت لأنه من روح الله. جاء في سورة الحجر:[٣٧٤]

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حماءٍ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.

حمص ٨/ ٤ / ١٩٩٤



٣٧٣- سورة ص: الآيات ٧١، ٧٢- ٧٣- وهي سورة مكية عدد آياتها ٨٨ نزلت بعد القمر.

٣٧٤- سورة الحجر: الآيتان ٢٨- ٢٩ وهي سورة مكية ما عدا الآية ٨٧ فمدنية عدد آياتها ٩٩ نزلت بعد سورة يوسف.

مصادر ومراجع البحث

١- القرآن الكريم

٢- الكتاب المقدس، العهد الجديد

٣- ديوان أبي نُواس، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

٤- ديوان أبي نواس، تحقيق ايفالد فاغنر

٥- ديوان أبي نواس، نشر اسكندر أصاف، شرح محمود واصف

٦- ديوان أبي نواس، الخمريات، شرح الدكتور علي نجيب العطوي

٧- ديوان أبي نواس، الغزليات، شرح الدكتور علي نجيب العطوي

٨- الفكاهة والائتناس في مجون أبي نواس

٩- أرجوزة أبي نواس، تفسير ابن جني تحقيق محمد بهجة الأثري

١٠- أخبار أبي نواس لابن منظور المصري، تحقيق محمد عبد الرسول ابراهيم السفر الأول

١١- أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله ابن منظور المصري تحقيق عمر أبو النصر

١٢- الحانٌ الحانٌ أبو نواس في حياته اللاهية، عبد الرحمن صدقي

١٣- أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد، الدكتورة أحلام الزعيم

١٤- نفسية أبي نواس، الدكتور محمد النويهي
١٥- أبو النواس بين التخطي والالتزام، الدكتور علي شلق
١٦ أبو النواس الحسن بن هانيء: خليل مردم
١٧- أبو نواس الحسن بن هانيء، دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي عباس محمود العقاد
١٨- أبو نواس شاعر هرون الرشيد ومحمد الأمين الدكتور عمر فروخ
١٩- أبو نواس، عبد الحليم عباس، سلسلة اقرأ العدد رقم: ٢١
٢٠- أبو نواس وقصة الحداثة في الشعر، الدكتور العربي حسن درويش
٢١- ديوان شعري مخطوط بين أبي نواس والبازياري، عبد الحسين
٢٢- كتاب الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني
٢٣- مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصبهاني تحقيق السيد أحمد صقر
٢٤- الإماء الشواعر، أبو الفرج الأصبهاني تحقيق جليل العطية
٢٥- مختار الأغاني جمال الدين بن منظور المصري الأفريقي المجلد الرابع
٢٦- الموشح: للمرزباني
٢٧ البداية والنهاية، اسماعيل بن كثير
٢٨- المستظرف في أخبار الجواري، جلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
٢٩- الكشكول، بهاء الدين العاملي، تحقيق طاهر الزين
٣٠- وفيات الأعيان: ابن خلكان.
٣١- ديوان ديك الجن الحمصي، تحقيق محي الدين درويش وعبد المعين الملوحي
٣٢- ديوان ابن المعتز عبد الله بن المعتز، شرح محي الدين الخياط
٣٣- ديوان ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج، تحقيق كامل الكيلاني
٣٤- ديوان ابن الفارض، عمر بن الفارض طبع مكتبة القاهرة لعام ١٩٦٦
٣٥- أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق الدكتور شكري فيصل

٣٦- ديوان الصبابة، أحمد بن أبي حُجْلة المغربي

٣٧- شعر الأخطل، صنعة السكري، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة

٣٨ ترجمان الأشواق، الشيخ محي الدين محمد بن عربي

٣٩- مختار الشعر الجاهلي تحقيق وشرح محمد سيد الكيلاني

٤٠- أعيان الشيعة، محسن الأمين العاملي

٤١- الغدير في الكتاب والسنة والأدب: عبد الحسين أحمد الأميني النجفي

٤٢- الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد

٤٣- لسان العرب: ابن منظور المصري الأفريقي

٤٤- الفهرست، ابن النديم، طبعة فلوجل

٤٥- معجم البلدان،ياقوت الحموي

٤٦- الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري تحقيق الدكتور احسان عباس

٤٧- ضحى الإسلام، الدكتور أحمد أمين

٤٨- هرون الرشيد، الدكتور أحمد أمين، سلسلة كتاب الهلال العدد رقم، ٢٣

٤٩- تاريخ بغداد، البغدادي

٥٠- تاريخ الأمم والملوك،لابن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم

٥١- مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي

٥٢- تاريخ التمدن الاسلامي، جرجي زيدان

٥٣- التاريخ الكبير لابن عساكر

٥٤- تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر

٥٥- عصر المأمون، الدكتور أحمد فريد الرفاعي

٥٦- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري طبع القاهرة لعام ١٩٥٥

٥٧- المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبد الجبار الهمذاني

٥٨- الملل والنحل، للشهرستاني عرض وتعريف الدكتور حسين جمعة

٥٩- البيان والتبيين: للجاحظ عمرو بن بحر

٦٠- الحيوان، للجاحظ عمرو بن بحر

٦١- التاج في أخلاق الملوك للجاحظ عمرو بن بحر تحقيق أحمد زكي

٦٢- زهر الآداب وثمر الألباب، ابراهيم الحصري القيرواني، تحقيق الدكتور زكي مبارك

٦٣- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، الدكتور زكي مبارك

٦٤- العشاق الثلاثة، اقرأ العدد رقم، ٢٦، الدكتور زكي مبارك

٦٥- اتحاف السادة، للزبيدي

٦٦- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: العماد الأصفهاني

٦٧- تزيين الأسواق في تفصيل أشواق العشاق، داوود الانطاكي

٦٨- العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان

٦٩- الديارات للشابشتي، تحقيق كوركيس عواد

٧٠- كتاب الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير، تحقيق الدكتور محمد حميد الله

٧١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده- ابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

٧٢- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٧٣- المحاسن والمساوئ، ابراهيم بن محمد البيهقي. تحقيق فريدريك شوالي

٧٤- مطالع البدور في منازل السرور علاء الدين الغزولي

٧٥- الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني

٧٦- يتيمة الدهر في محاسن الشعراء بكل مصر، أبو منصور الثعالبي. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

٧٧- عيون الأنباء في طبقات الأطباء

٧٨- الإمتاع والمؤانسة. أبو حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين

٧٩- كتاب الورقة، أبو عبد الله محمد بن داود الجراح، تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج

٨٠- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري، تحقيق ابراهيم السامرائي

٨١- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي

٨٢- المصون في الأدب، أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري تحقيق عبد السلام محمد هارون

٨٣- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله تحقيق محمد البجاوي وزميليه

٨٤- ديوان المعاني، الحسن بن عبد الله العسكري

٨٥- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري، طبعة ليدن سنة ١٩٠٢

٨٦- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحي بن حمزة العلوي اليمني

٨٧- الموشى أو الظرف والظرفاء، محمد الوشاء تحقيق كمال مصطفى

٨٨- طبقات الشعراء لابن المعتز

٨٩- مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، أحمد قبش

٩٠- العالم مادة وحركة، غالب هلسا

٩١- دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي حسين مروة

٩٢- شعراء المجون، صالح جودت، كتاب الهلال، العدد رقم، ٢٦٤

٩٣- مسلمون ثوار، الدكتور محمد عمارة. كتاب الهلال العدد رقم: ٢٥٣

٩٤- بغداد مدينة السلام، طه الراوي سلسلة اقرأ العدد رقم، ٢٧

٩٥- المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين. الدكتور طه حسين

٩٦- الرؤوس، مارون عبود

٩٧- العصر العباسي الأول، الدكتور شوقي ضيف

٩٨- تاريخ الأدب العربي، الدكتور شوقي ضيف

٩٩- القبلة في الشعر العربي، الدكتور علي شلق

١٠٠- شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، عبد الرحمن بدوي

١٠١- رابعة العدوية والحياة الروحية في الإسلام: طه عبد الباقي سرور

١٠٢- معرفة الله والمكزون السنجاري: الدكتور أسعد أحمد علي

١٠٣- فن المنتجب العاني وعرفانه، الدكتور أسعد أحمد علي

١٠٤- خمر وشعر، سامي الكيالي

١٠٥- موسوعة حلب المقارنة: خير الدين الأسدي اعداد وتلحقيق محمد كمال

١٠٦ كتاب الأنس: سمير شيخاني

١٠٧- أشعار الشحاذين في العصر العباسي: جمع وتحقيق أحمد حسين

١٠٨- الأندية الأدبية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، علي محمد هاشم

١٠٩- أثر المعدة في الأدب العربي، بهيج شعبان

١١٠- في الشعر العباسي الرؤية والفن، الدكتور عز الدين اسماعيل

١١١- الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، الدكتور محمد مصطفى هدارة

١١٢- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، الدكتور أنيس مقدسي

١١٣- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر

١١٤- الجواري المغنيات، فايد العمروسي

١١٥- بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، الدكتور صلاح الدين المنجد

١١٦- اليمين واليسار في الإسلام، أحمد عباس صالح

١١٧- اسحق الموصلي الموسيقار النديم، دكتور محمد أحمد حنفي سلسلة أعلام العرب

١١٨- قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، محمد بدران

١١٩- العلمنة والدين: الدكتور محمد أركون. ترجمة هاشم الصالح

١٢٠- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، أدم متز. عبد الهادي أبو ريدة

١٢١- روائع طاغور، ديوان جني الثمار ترجمة الدكتور بديع حقي

١٢٢- الغزل عند العرب، ج-ك فادين. ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني

١٢٣- أراء وقصائد، رسول حمزاتوف. ترجمة ميخائيل عيد



الفهرس

